

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة زيان عاشور الجلفة

مخبر جمع دراسة و تحقيق مخطوطات المنطقة و غيرها



مجلة التراث

مجلة دولية دورية محكمة يصدرها

مخبر جمع دراسة و تحقيق مخطوطات المنطقة و غيرها

العدد الثاني عشر — فبراير سنة 2014

ISSN: 2253-0339

الإيداع القانوني: 2011-1934

الرئيس الشرفي :

أ.د شكري علي رئيس جامعة زيان عاشور الجلفة

مدير المجلة :

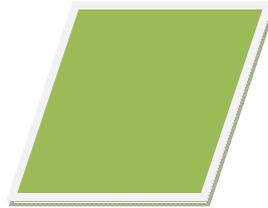
د. لحرش أسعد المحاسن

رئيس التحرير :

أ. بشيري عبد الرحمن

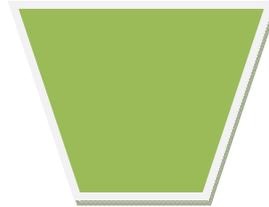
الهيئة العلمية

| | | | |
|-------------------|----------------------|----------------|--------------------------------|
| جامعة جندوبة تونس | د. سناء الباروني | جامعة الجزائر | أ.د بوزيدي كمال |
| جامعة الجلفة | د. بن داود ابراهيم | جامعة الجزائر | أ.د بوغزالة محمد الناصر |
| جامعة الجلفة | د. حمادي نورالدين | جامعة باتنة | أ.د عبد القادر بن حرزالله |
| جامعة الجلفة | د. فشار عطاالله | جامعة باتنة | أ.د سعيد فكرة |
| جامعة الجلفة | د. عزالدين مسعود | جامعة تلمسان | أ.د خير الدين سيب |
| جامعة الجلفة | أ. هنرشبي عبد الرحمن | مصر | أ. عبد الستار عبد الحق الحلوجي |
| جامعة الجلفة | أ. شلالى رضا | جامعة الجلفة | د. عز الدين بوكربوط |
| جامعة الجلفة | أ. درماش بن عزوز | جامعة ام القرى | أ.د العوفي عبد الكريم |
| جامعة الجلفة | أ. صدارة محمد | قطر | أ.د عمر أنور الزيداني |
| جامعة الجلفة | أ. بن حفاف اسماعيل | الأردن | أ.د ذياب البداينة |
| جامعة الجلفة | أ. معيزة عيسى | مصر | د. محمود محمد زكي |
| جامعة الجلفة | أ. شريط محمد | الجزائر | د. دهينة نصيرة |
| | | جامعة عنابة | د. كحيل سعيدة |



قواعد النشر في المجلة

- تصدر مجلة التراث في شكل دوري ضمن الميادين التي تعنى بالبحوث و الدراسات الاجتماعية و الانسانية من كافة الأساتذة باحثي الجامعات و يشترط في الدراسات و الابحاث المراد نشرها ما يلي :
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر في أي مجلة أو جزء من كتاب أو مذكرة أو أطروحة
 - أن يلتزم الباحث بالمنهج العلمي و الموضوعية و الأصالة
 - تقدم المقالات مكتوبة بخط 16 traditional arabic أما الهوامش فبالبند 12 ولا بد من التأكد من صحة الهوامش وعلاقتها و ربطها بالنص ويفضل أن تكون الهوامش في آخر المقال.
 - يرسل البحث عبر البريد www.makhtot_labo@yahoo.fr
 - تخضع الأعمال المرسلة الى المجلة للتحكيم قبل نشرها و البحث غير المنشور لا يرد إلى صاحبه
 - ترتب الموضوعات وفق اعتبارات فنية
 - ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبه ، و لا يمثل رأي المجلة بالضرورة



كُتُبُ مَنَاهِجِ التَّحْقِيقِ عَرَضٌ وَتَقْيِيمٌ

الدكتور ماحي قندوز

جامعة تلمسان

توطئة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين: فقد سبق العلماء المسلمون غيرهم إلى وضع قواعد لتحقيق النصوص القرآنية والحديثية واللغوية؛ في القرون الأولى؛ وذلك للثبوت من صحة النص وعدم الكذب على الله أو على حديث النبي صلى الله عليه وسلم؛ فمما كتب في تقنين قواعد التحقيق من المتقدمين: الحسن بن عبد الرحمن الرمهرمزي ت 360هـ في كتابه "المحدث الفاصل بين الراوي والواعي"، وأبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ت 463هـ في كتابه "الكفاية في علم الرواية"، والقاضي عياض بن موسى اليحصبي ت 544هـ في كتابه "الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع"... إلخ.

ومن المتأخرين: عبد السلام هارون في كتابه "تحقيق النصوص ونشرها" والدكتور صلاح المنجد في كتابه "قواعد تحقيق المخطوطات"، والدكتور الصادق عبد الرحمن الغرياني في كتابه "تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث"... إلخ.

ومع الهجمة الاستعمارية على العالم الإسلامي، كتب بعض المستشرقين عن التراث الإسلامي ومناهج التحقيق؛ ثم تلقف العرب والمسلمون هذه المناهج والطرق وطوروها وزادوا عليها؛ وكثرت كتب المناهج في الجامعات التي تدرس فن تحقيق التراث المخطوط، وكذا الدراسات المتخصصة، والكتب المطبوعة. وفي هذه المداخلة محاولة لتسليط الضوء على أهم ما كتب في مناهج تحقيق المخطوطات، وذلك بغرض تفهيمها وإبراز الجديد الذي أتت به.

أولاً. تعريف مناهج التحقيق:

- أ. المناهج لغة: جمع منهج، وهو كالنهج، والمنهاج الطريق الواضح.¹
- ب. التحقيق في اللغة: الحق: نقيض الباطل، وحقّ الأمر يحقه حقاً: كان منه على يقين، واحتق القوم: قال كل واحد منهم: الحق بيدي، ونقول: حققت الأمر وأحققته إذا كنت على يقين منه.²

¹ القاموس المحيط للفيروزآبادي: ص 208.

² المصدر نفسه: ص 874.

ج. أما مناهج التحقيق في الاصطلاح: فهي الطرق التي يتبعها المحقق في إخراج كتاب مخطوط من عالم النسيان إلى عالم النور، على أسس صحيحة محكمة من التحقيق العلمي في: عنوان الكتاب، اسم المؤلف، نسبه، علاقته بالكتاب المرغوب في تحقيقه، تحريره من التصحيف والتحريف والخطأ والنقص والزيادة.¹

أو هي: السبل التي ينتهجها المحقق والباحث في إخراج المخطوطات ونشرها وتيسيرها للاستفادة منها، في الصورة التي أرادها لها مؤلفها، أو أقرب ما تكون إلى ذلك، ولا يدرك ذلك إلا بعناء، وصبر على البحث والتمحيص.²

والذي نقصده في بحثنا هذا بمناهج التحقيق أو المؤلفات في مناهج التحقيق؛ المؤلفات التي كتبها أصحابها في تعليم قواعد ووسائل التحقيق، وكيفية إخراج نص تراثي مخطوط من هيئته القديمة إلى مطبوعة تماثل أو تقرب من النص الذي كتبه صاحبه.

وقد كثرت هذه المؤلفات في زماننا، بين متوسع ومضيق، وبين من عاج جزئية بعينها أو جزئيات متعددة، كما أن المستشرقين كان لهم قصب السبق في التأليف في قواعد التحقيق مما سنستعرضه بعد حين.

ثانيا. المؤلفات في قواعد ومناهج التحقيق:

1. كتب المستشرقين: مع حلول القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي تطورت الخبرات في نشر المخطوطات إلى وضع أصول فنية وقواعد لتحقيق النصوص؛ رفعت هذه المادة إلى مستوى علم تحقيق المخطوطات.

ولقد كان للاستشراق دور كبير في عملية غزو العالم الإسلامي؛ فهو الذي مهد له بدراسة أحوال الشرق؛ وبالغزو الثقافي الذي سبق الغزو العسكري المسلح بمئات السنين.

وبدأ اهتمام المستشرقين بالتراث الإسلامي ونقله إلى الغرب بشتى الطرق للاستفادة منه، وإبعاد أهله عنه، وتحقيقه وإخراجه، مع ظهور الطباعة في القرن العاشر الهجري / الخامس عشر الميلادي، وكان عملهم لا يتعدى حدود الطبع البدائي، الذي كان يعتمد فيه غالبا على نسخة واحدة، وقد تكون غير مصححة ولا معتنى به فنيا.

ثم تطور العمل، وأصبحوا يهتمون بجمع نسخ المخطوط الواحد، ومقابلة النسخ وتدوين الاختلافات في الهوامش، وأصبح التحقيق صناعة تعتمد على الخبرة المستفادة من التجارب المتكررة حتى حلول القرن الثالث عشر/التاسع عشر الميلادي.¹

¹ تجرني مع التحقيق، د/علي موسى الشوملي: ص01.

² تحقيق نصوص التراث في القدم والحديث، د/ الصادق عبد الرحمن الغرياني: ص7؛ وراجع أيضا: تحقيق النصوص ونشرها لعبد السلام هارون: ص42، وتحقيق التراث للدكتور عبد الهادي الفضلي: ص36.

أما مؤلفات المستشرقين في مناهج تحقيق المخطوطات؛ فنذكر أهمها:

أ. نقد النصوص/باللغة الفرنسية/ تأليف ب. كولمب، باريس 1931م. (La critique de texts)
ب. قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها، ريجيس بلاشير وجان سوفاجيه، ترجمة د. محمود المقداد، دار الفكر. دمشق 1988م.

ت. أصول نقد النصوص ونشر الكتب: المستشرق برجستراسر، وهي محاضرات ألقاها بكلية الآداب بالقاهرة سنة 1932/1931م، قدم لها د. محمد البكري، طبعة دار الكتب 1969م.

ث. منهج العلماء المسلمين في البحث العلمي: فرانتزر وزنتال، دار الثقافة، بيروت 1961م.

2. كتب مناهج التحقيق عند العرب والمسلمين:

لقد كثرة المؤلفات في مناهج التأليف عند العرب والمسلمين في العصر الحديث، ما بين بحوث مطولة ومقالات في مجالات علمية، وملتقيات متخصصة أو دورات تدريبية؛ وقد أحصى الأستاذ إياد خالد الطباع في مقدمة كتابه "منهج تحقيق المخطوطات" ما يزيد عن 24 كتابا ومقالة وبجنا في هذا الموضوع²، وتتبعها الدكتور عباس هاني الجراخ في مقال له بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، فوجدها أكثر من 120 مؤلفا ومقالة وبحاثا³؛ ولا يمكننا في هذا المقام سردها جميعها؛ لذلك سنذكر أهمها:

أ. تحقيق النصوص ونشرها: عبد السلام هارون، طبع مرارا، آخرها ط7، مكتبة الخانكي، القاهرة 1998م.

ب. قواعد تحقيق المخطوطات: صلاح الدين المنجد، نشر أولا في مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، ثم طبع مرارا في بيروت في دار الكتب وفي دار الكتاب الجديد.

ت. منهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين: د/ رمضان عبد التواب، مطبعة الخانجي، القاهرة 1406هـ، وله كذلك مقال "في أصول البحث العلمي وتحقيق النصوص" مقالة في المجلد الأول من مجلة المورد، سنة 1972م.

ث. منهج تحقيق النصوص ونشرها، د/ نوري حمودي القيسي، ود/ سامي مكّي العاني، بغداد مطبعة المعارف، 1975م.

ج. ضبط النص والتعليق عليه، د/بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط1982م.

ح. تحقيق التراث: د. عبد الهادي الفضلي، الطبعة الأولى مكتبة العلم جدة 1402 هـ.

خ. في منهج تحقيق المخطوطات: مطاع الطرايشي، طبعة دار الفكر، دمشق 1403هـ.

د. المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات، د/محمد ألتونجي، عالم الكتب بيروت لبنان، 1986م.

¹ أصول كتابة البحث العلمي وتحقيق المخطوطات، د/يوسف المرعشلي: ص 223، تحقيق نصوص التراث في القدم والحديث، للغرياني: ص 65.

² منهج تحقيق المخطوطات، إياد خالد الطباع: ص 9 حتى ص 13.

³ مقال " ما ألف في مناهج التحقيق قائمة وراقية تحليلية توثيق ودراسة"، د/عباس هاني الجراخ: ص 1 حتى ص 24.

ذ. تحقيق التراث العربي: منهجه وتطوره: د/ عبد المجيد دياب، منشورات المركز العربي للصحافة، القاهرة 1983 م.

- ر. مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، د/ رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، طبعة 1985 م.
 ز. تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأصيل: د/ عبد الله عسيان، مكتبة الملك فهد 1415 هـ.
 س. تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث: د/ صادق عبد الرحمن الغرياني، ليبيا، 1989 م.
 ش. منهج تحقيق المخطوطات، إباد خالد الطباع، دار الفكر، دمشق سورية، ط1، 2003 م.¹

ثالثا. تحليل طبيعة كتب المناهج التي كتبها المستشرقون:

لقد استفاد المستشرقون في وضع محاضراتهم مما كتبه المتقدمون عنهم من قواعد لنشر الآداب اليونانية واللاتينية وآداب القرون الوسطى.² ثم نقلوا هذه القواعد وطبقوها على الكتب العربية والشرقية؛ غير أنهم لم يؤلفوا في ذلك تأليفا خاصا؛ وكان الدكتور برجستراسر أول من ألف في ذلك، أخذ في الحسبان طبيعة المخطوطات العربية، واختلاف نسخها وتفاضلها.

وقد وضع في الخاتمة شروطا هي أقل ما يفعله المحقق، ممن يود نشر الكتب العربية حتى تكون موثوقة:

1. أن يكون عدد النسخ التي بنيت عليها النشرة كافيا بالنسبة إلى عدد النسخ الخطية المتوفرة.
 2. أن يصف المحقق النسخ التي استخدمها في نشر الكتاب وصفا يمكن القارئ من مراجعتها وتقدير قيمتها.
 3. أن لا يدع الناشر مجالاً للشك فيما هو موجود في النسخة أو النسخ وأن يقابلها بعناية تامة.
 4. الامتناع عن تغيير النص وإسقاط شيء منه إلا بعد أن ينبه القارئ إلى ذلك.³
- والملاحظ على كتاب براجستراسر استكثاره من الأمثلة مما نشره المستشرقون، كما نلاحظ عدم إعطائه أهمية للتعليق على النص وتوضيحه.⁴

أما كتاب المستشرقين الفرنسيين بلاشير وسوفاجيه "قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها"، فجعلنا منهج التحقيق على شكل مقنن، مادة مادة.

قال الدكتور محمد حمدي البكري: "لا يشتمل/كتابهما/ إلا على قواعد مختصرة، ينقصها أمثلة توضحها من المخطوطات القديمة، وقد صرف جزء كبيرا من هذا الكتيب للعناية بقواعد ترجمة الكتب العربية على الفرنسية".¹

¹ للاستزادة راجع: منهج تحقيق المخطوطات، إباد خالد الطباع: ص 9 حتى ص 13، و مقال " ما ألف في مناهج التحقيق قائمة وراقية تحليلية توثيق ودراسة" د/عباس هاني الجراخ:ص 1 حتى ص 24.

2 قواعد تحقيق المخطوطات، لصلاح المنجد: ص 07.

3 أصول نقد النصوص ونشر الكتب: ص 126 وما بعدها.

⁴ منهج تحقيق المخطوطات، إباد خالد الطباع: ص 15.

وقد اعتمدا طريقة الاختصار في ذكر الإحالات والعناوين؛ مثل: العقد 45/3، واختصار بعض الألفاظ: رحمه الله/ رحمه، صلى الله عليه وسلم/ صلعم.²

إن مدرسة المستشرقين في العموم لا تميل إلى تخريج النصوص من مظانها، على الرغم من أن هذه المظان تعد نسخا ثانوية للأصل المنشور، فقد تقوم تحريفا، أو تصلح سقطا، إضافة إلى عدم اعتنائهم بتوضيح النص وفهمه للقارئ وشرح غريبه؛ بل يقدمون الكتاب كما يحسبون أنه يريد المؤلف، دون شرح لغريب أو تفصيل لمبهم.³

رابعا. تحليل طبيعة كتب المناهج التي دونها العرب والمسلمون:

1. اتفاهم على المعالم العامة في فن التحقيق؛ من حيث ضبط النص واختيار النسخ ومقابلتها وإعداد الفهارس.

2. ذكر الأمثلة العملية في بعض تحقيقاتهم وبحوثهم، وذكر بعض التصحيحات والتحريفات في بعض الكتب المحققة.⁴

3. يعتبر الأستاذ عبد السلام هارون أول من صنف في مناهج التحقيق، وتبعه الدكتور صلاح المنجد، وقد دار بين الرجلين من الكلام والرد ما دار، مما يطوى الحديث عليه.

4. وقد اختلفت الكتابات العربية في مناهج التحقيق شكلا ومضمونا وحجما وتوسعا وإجازا. فمن حيث منهج الكتابة والتأليف؛ فبعضهم كان متأثرا بمنهج المستشرقين؛ كالدكتور صلاح المنجد، حيث تأثر بمنهج المستشرقين الألمان، وجمع مع منهج المحدثين في ضبط النصوص، وكان يرى عدم ضرورة التعليق على النصوص.

يقول رحمه الله: "إن هذه القواعد التي نقدمها غايتها توحيد طرق النشر، والتعريف به، وقد استقيناهما من نهج المستشرقين الألمان، ومن خطة جمعية غيوم بوده، ومن قواعد المحدثين القدامى في ضبط الروايات، ومما نشر في هذا الموضوع من قبل، أفدنا من ذلك كله، ومن العقبات التي مرت بنا أثناء نشرنا عددا من المخطوطات القديمة، ونحن ندعو المحققين إلى اتباعها ومناقشتها؛ فلعل في ذلك ما يدفع إلى توحيد طرق النشر الذي نهدف إليه".⁵

أما الأستاذ عبد السلام هارون رحمه الله فيقول في هذا الصدد: "ومن هنا كان من المستحسن ألا يترك المحقق الكتاب غفلا من التعليقات الضرورية، التي تجعله مطمئنا إلى النص، واثقا من الجهد الذي بذله المحقق في تفهم النص وتقدير صحته".⁶

¹ مقدمة تحقيق كتاب أصول نقد النصوص ونشر الكتب: ص 12.

² منهج تحقيق المخطوطات، إباد خالد الطباع: ص 17.

³ المرجع نفسه.

⁴ منهج تحقيق المخطوطات، إباد خالد الطباع: ص 13.

⁵ قواعد تحقيق المخطوطات: ص 08.

⁶ تحقيق النصوص ونشرها: ص 80.

أما من حيث طريقة تناول الموضوع؛ فبعضهم تناوله من منطلق التجربة الشخصية، مستفيدين مما وضعه المحدثون من قواعد؛ ككتابات عبد السلام هارون وصلاح الدين المنجد وعبد التواب رمضان، ومنهم من وضع منهج المحدثين أساسا لعمله؛ ككتاب "توثيق النصوص وضبطها عند المحدثين"، للدكتور موفق بن عبد الله بن عبد القادر.¹

أما من حيث المادة المدونة؛ فقد توسع بعض الباحثين في كتبهم؛ كصنيع الدكتور رمضان عبد التواب "مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين" وبلغت عدد صفحاته 436 صفحة.

ونجد أمالي مصطفى جواد في فن تحقيق التراث موجزة ومختصرة في 22 صفحة، وأكثر منه وجازة القواعد التي وضعها المجمع العلمي العربي بدمشق في مقدمة تحقيق تاريخ مدينة دمشق، حيث لم تتعدى نصف صفحة. وتوسط البعض فجاء كتاب عبد السلام هارون شاملا في أبحاثه أهم ما يحتاجه الباحث في هذا الفن، مع تجربته في معاشته لتحقيق النصوص امتدت نحو خمسين عاما، أخرج فيها ما يزيد عن 110 كتاب ورسالة؛ كذلك فعل الدكتور عبد الرحمن صادق الغرياني وعبد الهادي الفضلي.²

5. تكرار النشر، فكثير من المقالات والكتب نشرت مرارا دون إضافة أو تنقيح؛ فمقال الأستاذ هلال ناجي "تحقيق عنوان المخطوط" نشر أربع مرات، ومقال الدكتور حاتم الضامن "المنهج الأمثل في تحقيق المخطوطات" سبق وأن نشره مرتين، في مقدمة بحثه: إسهامات العراقيين المعاصرين في تحقيق التراث، ثم في كتابه "بحوث ودراسات في اللغة وتحقيق النصوص".³

6. وضع الأستاذ هلال ناجي أرجوزة شعرية في قواعد التحقيق، لم يسبق إليها كتبها سنة 1980م، وهي في 256 بيتا.

7. هناك أعمال هي اجترار وتكرار للأعمال السابقة، وليس فيها أي زيادة؛ كالذي كتبه الدكتور أسعد النجار مع أنه لم يمارس التحقيق، أو ما كتبه علي جهاد حساني، حيث ادعى أن التحقيق لم يمارسه العرب، ثم عاد فقال أن العرب مارسوه، ولم يذكر لدراسته مصادر ولا مراجع، وقام نوري شاكر الألويسي بنقل كتاب عبد السلام هارون مادة ومصادر وهوامش.⁴

8. أثبت جل المؤلفين تجاربهم في التحقيق والمصاعب التي واجهوها، ما يثبت اهتمامهم بكتاباتهم؛ لأنهم مارسوا التحقيق وعانوه وعرفوا أسرارهم ومظانهم، ثم كتبوا في مناهجهم؛ ومنهم من استدرك على نفسه في بعض ما

¹ منهج تحقيق المخطوطات، إباد خالد الطباع: ص18.

² المرجع نفسه: ص 13، وص 18.

³ ما ألف في مناهج التحقيق قائمة وراقية تحليلية توثيق ودراسة، د/عباس هاني الجراخ: ص19.

⁴ المرجع السابق: ص21.

وقع فيه من هفوات وزلات، كما فعل الدكتور بشار عواد معروف في كتابه "تحقيق النصوص بين أخطاء المؤلفين وإصلاح الرواة والنساخ والمحققين".

9. الاقتصار على موضوع محدد في التحقيق ومنهجه؛ من ذلك ما كتبه د/ محمد مولود المشهداني عن التصحيف والتحريف، ود/شاكر محمد عبد المنعم عن كتب الأسماء والكنى والألقاب، ود/حسين علي محفوظ عن التخريج، وأ/نبيلة عبد المنعم عن تحقيق النسخ الفريدة، ود/صالح مهدي عباس عن الفهارس، ود/ناجي معروف عن التنقيط... إلخ.¹

لخاتمة.

بعد هذه الرحلة الممتعة بين كتب مناهج وقواعد التحقيق؛ على كثرتها وتنوعها واختلاف موضوعاته وحجمها؛ نصل إلى نتيجة مفادها أن تحقيق النصوص لا يرسو على قاعدة أو قواعد موحدة، بل هو مناهج متنوعة، ومدارس مختلفة؛ وعلى المحقق والمؤلف في هذا الشأن أن يطلع على كل ما كتب في هذا المضمار وأن يتخير منها ما يراه مناسباً لعمله.

وقد حاولت بعض المؤسسات المعنية بالتراث وضع قواعد وأسس مضبوطة، لكن الوفاق لم ينعقد عليها:

1. المجمع العلمي العربي بدمشق في مقدمة كتاب تاريخ دمشق؛ حيث جمعت لجنة من العلماء لوضع قواعد عامة تتبع في تحقيق مجلدات التاريخ.
2. اللجنة التي وضعت لتحقيق كتاب الشفاء لابن سينا.
3. التقرير الذي وضعه مركز تحقيق المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية.

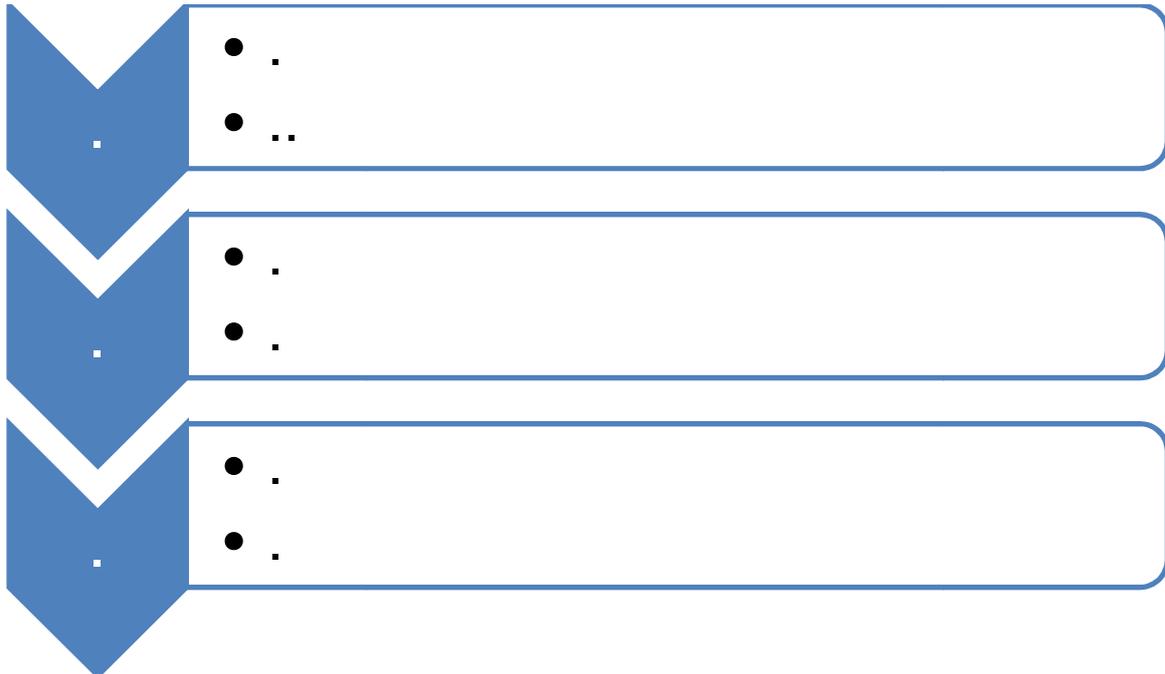
والذي نراه صوباً هو أن يجتمع كبار المختصين في مجال تحقيق التراث ممن لهم قدم راسخة، والاتفاق على وضع معالم لخطة وقواعد تحقيق النصوص وإخراجها؛ والله أعلم.

المصادر والمراجع

1. أصول كتابة البحث العلمي وتحقيق المخطوطات، د/يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط1، 1424هـ/2003م.
2. أصول نقد النصوص ونشر الكتب، بيرجستراسر، إعداد وتقديم: محمد حمدي البكري، دار المريخ، الرياض السعودية، د ط/ د ت.
3. تجرّبي مع التحقيق، د.علي موسى الشوملي، مجلة التراث العربي - مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق العدد 104 السنة السادسة والعشرون - كانون الأول 2006 - ذو الحجة 1427
4. تحقيق التراث، د/ عبد الهادي الفضلي، مكتبة العلم، جدة، ط1، 1402 هـ.

¹ المرجع نفسه: ص20.

5. تحقيق النصوص بين أخطاء المؤلفين وإصلاح الرواة والنساخ والمحققين، د/بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2009م.
6. تحقيق النصوص ونشرها لعبد السلام هارون، مكتبة السنة، القاهرة مصر، ط5، 1414هـ/1994م.
7. تحقيق نصوص التراث في القدم والحديث، د/ الصادق عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط1، 1427هـ/2006م.
8. القاموس المحيط للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، دمشق سورية، ط7، 1427هـ.
9. قواعد تحقيق المخطوطات، صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، ط7، 1987م.
10. ما ألف في مناهج التحقيق قائمة وراقية تحليلية توثيق ودراسة" د/عباس هاني الجراخ، مجلة مجمع اللغة العربية؛ دمشق، المجلد 82، الجزء الثاني.
11. محاضرات في تحقيق النصوص، هلال ناجي، ط1، 1994م.
12. منهج تحقيق المخطوطات، إيادخالد الطباع، دار الفكر، دمشق سورية، ط1، 1423هـ/2003م.



صناعة المخطوط في المغرب الأوسط على العهد الزياني

أ/ العربي لخضر.

المركز الجامعي بالبيض.

الملخص:

على مرّ فترة حكم الزيانيين، حدثت تغييرات كثيرة في الحياة الثقافية والاقتصادية والسياسية، ليس في مدينة تلمسان وحسب بل في كل المغرب الأوسط، وفيما يتعلق بالموضوع فقد كان من الأهمية بمكان بزور العاصمة التي أصبحت قاعدة سياسية، ومركزًا للعلم، والإشعاع الثقافي، له ثقله ووزنه، ساهم في تنمية وازدهار معالم الحضارة. وكان من بين نتائج هذا التطور تدشين الكثير من المدارس، والزوايا التعليمية الأخرى، وإقامة المكتبات، بهدف نشر الدين وتعميم الثقافة الإسلامية، وتكوين الأطر التي تحتاج إليها الدولة واقتضى هذا الأمر إستقطاب العلماء والمدرسين في العلوم المختلفة، ووفرت لهم الظروف المناسبة لممارسة نشاطهم من الأجرة، والإقامة،...؛ وهذا بدوره ساعد على تزايد عدد الطالبين لأمّتهات الكتب المقررة في الدراسة، أو مراجع أخرى مكملتها من شروح وإيضاحات، وتولى مهمة توفير هذه الأصول النسخ والوراقون والمسفرون (المجلدون) في الورشات، والخوانيت والأسواق الخاصة بهم في المدن.

وسنحاول في هذا البحث التطرق إلى أهم النشاطات والحرف التي ساهمت بقوة في إنتاج وصناعة أوعية العلم المختلفة (المخطوطات)، وكذا مراحل إنجازها، والأدوات المستخدمة في ذلك، من خلال عرض وتحليل نصوص تاريخ العصر الزياني.

Résumé:

Durant le règne des Beni-Zeïyan, de nombreux changements ont eu lieu dans la vie culturelle, économique et politique, non seulement dans la ville de Tlemcen, mais aussi dans tout le Maghreb Central. Quand au sujet étudié, l'apparition de la capitale qui est devenue une base politique et un centre de science rayonnement culturel, elle prenna part au développement et l'efflorescence des signes de la civilisation.

Inauguration de nombreuses écoles et des Zawias, l'instauration des bibliothèques furent résultats de ce développement, dans le but de propager la religion, et de répondre la Culture Islamique et pour former les cadres dont l'état en avait besoin, ce qui imposait la polarisation des scientifiques et des enseignants de différentes sciences, tout en leur procurant de meilleures conditions adéquates à l'exercice de leurs fonctions, tels que les traitements, l'hébergement, Ce ci à son tour, participa à la multiplication du nombre demandeurs aux manuels mères programmés dans les études, ou autres œuvres

complémentaires, explicatives et éclairantes. Dans leurs ateliers, magasins et marchés spéciaux, les transcripseurs, les papetiers ainsi que les relieurs, ont pris la charge de donner l'abondance à ces sources.

Dans cette recherche et d'après une présentation et une analyse des textes historiques appartenant à la période Zeiyaniide, nous allons essayer d'aborder les principales activités artisanales, qui ont fortement contribué à la production d'une variété de récipients scientifiques (les Manuscrites) ainsi que les outils utilisés, et les étapes de leurs réalisations.

أولى القضايا التي نثيرها في هذا البحث وتعلق بأحد النشاطات الحرفية التي ساهمت بقوة في إنتاج وصناعة أوعية العلم المختلفة (المخطوطات) هي:
أ- التوريق (الوراقة):

ذكر الرازي أن الوراق هو: "الذي يورق ويكتب"¹، أما القلقشندي فيشير إلى أنّ الوراق هو الرجل الذي يكتب فقط،² ويشير آخر إلى أنّ الوراق: "اللفظ مشتق من الورق، والوراق: هو مؤرق الكتب، وحرفته الوراقة".³ ومن خلال هذه التعاريف نستنتج أنّ الوراق هو ذلك الرجل الذي يقوم بنسخ الكتب وبيعها. وصناعة الوراقة عند ابن خلدون هي: "الإعتناء بالكتب من حيث الانتساخ والتصحيح والضبط والتجليد"⁴، فهي إذن تهتم بنسخ الكتب، وتصحيحها، وضبطها، وتجليدها، ثم بيعها؛ بل إنّّه تعدى ذلك إلى توفير الورق المستعمل في عملية النسخ والكتابة، والأحبار، والأقلام والجلود.⁵ إذن فمصطلح الوراقة يعني أنّ كل إنسان إشتغل بمهنة نسخ الكتاب أو تجليده، أو تزويقه أو حط عناوينه، أو بيع أدوات الكتابة، وما لحقها من أمور تخص بيع الكتب، ولا شك أنّ مجمل هذه العمليات كان يشارك فيها عدد من الحرفيين وليس الوراق وحده.

وصناعة الوراقة أعطت للكتابة دورها المتميز في ترسيخ الإنجازات العلمية والأدبية، وإعادة إنتاجها من خلال فئة الوراقين؛ وإنّ ظهور هذه الفئة يعكس متطلبات المجتمع الثقافية والعلمية ويحدد مكانتها التاريخية في حفظ الإنجازات الثقافية، التي يتداولها الباحثون اليوم في إنجاز أبحاثهم العلمية.

والوراقة كحرفة كانت لها قيمتها المتميزة بين باقي الحرف والصنائع، التي شهدها العصر الزياني، وكانت لها مميزاتا وخصائصها؛ فابن خلدون في معرض حديثه عن أهمية العلم في الصنائع، قام بتقسيم الصنائع إلى نوعين

¹ - مختار الصحاح، الطبعة الأولى، دار الكتاب الحديث، الكويت، 1994، مادة ورق، ص 307.

² - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تعليق: محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، دون تاريخ، ج6، ص516.

³ - الفيروزآبادي محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تقديم: أبو الوفا نصر الحوريني، الطبعة الأولى، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2004، ص941.516.

⁴ - المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979، ص755.

⁵ - هالة شاكر، الورق والوراقون في العصر العباسي، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2004، ص51.

بسيط ومركب، منها ما يختص بالأفكار التي هي من خصائص الإنسان، ومنها ما هو ضروري للعمران أو شريف بالموضوع،¹ وجعل الوراقة من الصنائع المركبة،² التي تعتبر من كماليات الحياة، وليست من ضرورياتها، وضمها إلى زمرة الحرف التي تختص بالأفكار، وجعلها أيضا ضمن حيز الصناعات الشريفة جنبا إلى جنب مع الكتابة لأنها: "حافضة على الإنسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان، ومُبلّغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف".³

كما يرى أنّها من الصناعات التي يستدعيها الترف والعمران الحضري على العكس من ذلك فالعمران البدوي لا يحتاج من الحرف إلا البسيط الضروري بوجه خاص، بيد أن المدينة إذا سرت إلى التبخّر في العمران، كثرت فيها الأعمال، ونفقت بها أسواق الحرف، وأمنت الضروري وزادت عليه، صرف الزائد عن ذلك إلى الكماليات من المعاش، وفي هذا الباب تدخل الوراقة.

إذن فالوراقة كانت تختص بالأمصار العظيمة العمران، لا سيما في مدينة تلمسان التي أصبحت "أعظم أمصار المغرب،...، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية".⁴ ونعتقد أنّ الإزدهار الثقافي والعلمي الذي عرفته تلمسان مع نهاية القرن السابع الهجري وبداية القرن الثامن،⁵ كان من أهم العوامل في تفعيل دينامية هذه الحرفة، إلى جانب إنتشار مؤسسات التعليم التي تقوم مهمتها الرئيسية على حرفة الوراقة ولواحقها.

واهتم الوراقون في العهد الزياني بتوفير المواد التي يحتاج إليها في الكتابة والنسخ، أهمها:

1- الرقّ: وهو نوع من الورق يصنع من جلود الأنعام كالغزلان، والماعز، والبقر، والغنم حيث يؤخذ الجلد فينظف ويدبغ ويصقل حتى يصير رقيقا.⁶ ثم يهيا على شكل الورق ليصبح جاهزا للكتابة عليه. وكان الرقّ على العهد الزياني مستعملا في نطاق ليس بالضيق، في إنتساخ المصاحف، وكتابة الدواوين، وسجلات الجند، والخراج وغيرها، وذلك لما يتميز به من إمكانية البقاء مدة طويلة.⁷

ومن الآثار المادية الدالة على أنّ الكتابة على الرقّ كانت موجودة فعلا في العصر الزياني مخطوطة للمصحف الشريف قام بكتابتها الأمير أبو زيان على رق غزال بخط مغربي جميل، وكان ذلك سنة 801 هـ

¹ - ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص 713.

² - نفسه، ص 714.

³ - ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص 723.

⁴ - ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب

اللبناني، بيروت، 1979، مجلد 7، ص 161.

⁵ - عبيد بوداود، ظاهرة التصوّف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع (القرن 13-15م)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003،

ص 95.

⁶ - هالة شاكرا، المرجع السابق، ص 97.

⁷ - نفسه، ص 90.

بمحاضرة تلمسان،¹ ومن هنا نستطيع القول أنّ بعض دور الدباغة التي كانت بالمدينة، أنتجت هذا النوع من الرقوق، ولا شك أنّ دكاكين الورّاقين بسوق الكتب² كانت تروج لهذه البضاعة.

2- الورق أو الكاغد: يعتبر الورق إحدى دعائم الثقافة والحياة الروحية، حيث كان أشد ارتباطا بالحياة العلمية، وتدوين العلوم والمعارف حفظا للشريعة من الضياع،³ كما إستخدم الورق في مقاصد أخرى، في الرسائل بصفة عامة، والمكتبات، وفي البيوع، وفي عقود الزواج، وفي القضاء والفتاوي.⁴

أما عن صناعة الورق في العهد الزياني، حريّ بنا الإشارة إلى أنّ المعلومات حولها قليلة جدا بل تعجز المصادر في أحيان كثيرة عن إمدادنا بالمعطيات المبحوث عنها، ومع هذا حاولنا - باذلين كل الجهد- توضيح بعض النقط بما اشتملت عليه المعلومات التي استوعبناها من بعض النصوص المنتشرة في ثنايا المصادر، تتعلق أغلبها ببعض النّساخ وما كانوا ينسخونه.

باستثناء إحدى النوازل التي ذكرها الونشريسي حول النّسخ في الكاغد الرّومي، وردت في المصادر بعدة عناوين منها: "تقرير الدليل الواضح المعلوم على جواز النّسخ في كاغد الرّوم"،⁵ أو "الدليل المومي في جواز النّسخ في الكاغد الرّومي" وهناك من أطلق عليه اسم: "الدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغد الرّوم".⁶

رفعت هذه النازلة الى ابن مرزوق الحفيد (ت 842هـ) سنة 812 هـ بتلمسان، ما يهمننا فيها ذكر المفتي أنّ الكاغد الرّومي قبل عصره كان شائع الاستعمال من مدينة طرابلس المغرب إلى مدينة تلمسان ومن بلاد السواحل إلى بلاد الصحراء، يعني بذلك أنّ البلاد الواقعة بين هذه الحدود، كانت لا تستغني عن إستعمالات الكاغد الرّومي المتعدّدة، الذي فيما يبدو كان يجلب من بلاد الروم عن طريق تجار البحر، وذكر أيضا أن عددا كثيرا من الكتب القديمة، والتي رآها بأمر عينيه قد كتبت على هذا النوع من الورق.

بينما يضيف أنه لم يكن مستعملا في حياته بمدينة تلمسان، يقول: "وقد كان يستعمل قبل هذا الزمان بتلمسان، وأما الآن فلا"¹، وبالتالي توضح لنا هذه الفتوى عدة نقاط هي:

¹ - تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من كتاب نظم الدرّ والعقبان في بيان شرف بني زيان لمحمد بن عبد الله التّسي (ت 899هـ)، تحقيق: محمود بوعباد، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، الهامش 534، ص 211؛ و ينظر: علوش والجرجاني، فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة برباط الفتح، القسم 2، ج 1، ص 2.

² - ابن مرزوق التّلمساني أبو عبد الله محمد (ت 781هـ)، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقدم: محمود بوعباد، الشركة الوطنية للنشر والتّوزيع، الجزائر، 1981، ص 460.

³ - الونشريسي أحمد بن يحيى (ت 914هـ)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج: جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج 2، ص 462.

⁴ - زيفريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، كمال الدسوقي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1993، ص 46. كونستيل أوليقيا ريمي، التجارة والتجار في الأندلس، تعريب: فيصل عبد الله، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، 2002، ص 292.

⁵ - المازوني أبو زكرياء يحيى (ت 883 هـ)، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق: مختار حساني، مخبر المخطوطات، بوزريعة - الجزائر، 2004، ج 2، ص ص 68 - 108.

⁶ - ابن مرزوق التّلمساني، المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق: سلوى الزّاهري، الطبعة الأولى، مطبعة التّحاح، الدار البيضاء، 2008، ص 91.

- توقف إستيراد المناطق التي حددها ابن مرزوق للكاغد الرّومي في الفترة قبل سنة 766هـ.²
- وتحول تجارة الورق إلى فاس وشاطبة³ بعد سنة 766 هـ إلى سنة 812 هـ.
- أنّ تلمسان لم تتوفر على معامل لصناعة الورق، حيث يذكر ابن مرزوق الحفيد: "أنّ الورق الإسلامي لا يصنع إلاّ في فاس وشاطبة".⁴

3- أدوات أخرى: منها المحبرة: وكانت تتخذ من الخشب الجيد كالأبنوس والصندل، وأومن النّحاس والحديد، ومن أوصافها أن تكون متوسطة في قدرها، لا باللطيفة جدا فتقتصر أقلامها، ولا بالكبيرة فيثقل حملها.⁵

والقلم من أدوات النّسخ، وهو كما صورته البعض: "سفير العقل ورسوله ولسانه الأطوال وترجمانه الأفضل"،⁶ ومما وصف به أن يكون رخوًا حتى يلزم مكانه، و أن يتخذ من أملس العود مزال العقود وتوسع فتحته.⁷ ومن أنواع القلم: القلم الغليظ،⁸ الذي يتميز بكتابته العريضة البارزة، و كان عبد الرحمن بن خلدون لما ولي العلامة بتونس " يكتب العلامة للسلطان وهي وضع «الحمد لله والشكر لله» بالقلم الغليظ، ما بين البسملة وما بعدها في المخاطبة والمراسيم".⁹

هذا بالإضافة إلى أنواع المواد المختلفة الألوان، والأغرية، ولوازم التّجليد وغيرها.

ب- النّسخ:

ساعد اقتناء الكتب على فتح الباب أمام العديد من الأشخاص لكسب قوت عيشهم وأصبح النّساخ فنانيين مهرة في مجال تخصصهم، ووظفوا داخل المكتبات أو في دكاكين الوّاقين ومتاجر الكتب.

ولا شك أنّ النّساخ هم الشهود الحقيقيون على ذلك الوجود الأدبي والتاريخي في ذلك العصر، حيث نعثر اليوم في كثير من الخزانات العامة والخاصة، على مخطوطات قديمة تثبت وجود نساخين مارسوا صناعة المخطوط

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 85.

2- اعتبرنا تاريخ سنة 766هـ (بداية عصر ابن مرزوق الحفيد) كحد فاصل للتحوّل عن الكاغد الرّومي، أما سنة 812 هـ وهو تاريخ الفراغ من الفتوى في يوم 9 ربيع الثاني.

3- شاطبة "مدينة حسنة بينها وبين بلنسية اثنان وثلاثون ميلا، ومنها الى دانية خمسة وعشرون ميلا... يعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير ومعمور الأرض، ويعم المشارق والغارب". القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 281.

4- الونشريسي، المصدر والجزء السابقان، ص 75.

5- حسن جبر، أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها، دار الكتاب العربي، الكويت، 1999، ص 253.

6- نقله ابن نديم عن ابن أبي داود. الفهرست، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة- تونس، دون تاريخ، ص 15.

7- حسن جبر، المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

8- المقرئ التلمساني أحمد بن محمد (ت1040هـ)، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وآخرون، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، 1978، ج4، ص 8.

9- ابن خلدون عبد الرحمن (ت808هـ)، الرحلة، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، تقديم: نوري الجراح، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والتشر، بيروت، 2003، ص 99.

وحذقوا بالنسخ وتجليد الكتب، وهو ما يعبر عن اشتغال أهل تلمسان بالأمر الفكرية كإخوانهم الأندلسيين، والمغاربة، والتونسيين وقتئذ.¹

وحق يتسنى للناسخ إظهار الكتاب في أجمل صورة وأبدع صناعة، ضمانا لرواجه، وتحصيلا لسعر مناسب له، كان- في تصورنا - يراعي ثلاثة أمور:

الاعتناء بالخط في نسخ الكتاب: أمر ضروري، ولأهميته كان أهل العلم والفتوى في المغرب يبحثون المعلمين على أن ينظروا في ألواح الصبيان، وتصحيح ما فيها من الأخطاء في الحروف، وتعليمهم آداب القرآن، والهجاء، والخط الحسن؛² وبين ابن خلدون أنه لا بد للكتاب من إجادة الخط، لأنه حلية الكتب،³ ورياض العلوم،⁴ تنشرح النفوس وتميل إليه.⁵

وقد أحسن من قال:⁶

تَعَلَّمَ قِوَامَ الْخَطِّ يَا دَا التَّأْدِبِ وَلَا زِمَ لَهُ التَّعْلِيمَ فِي كُلِّ مَكْتَبٍ.
فَإِذَا كُنْتَ دَا مَالٍ فَحَظُّكَ زِينَةٌ وَأَنْ كُنْتَ مُحْتَاجًا فَأَفْضَلُ مَكْسَبٍ.⁷

ومن خلال كتب التراجم وجدنا أن أغلب الذين احترفوا النسخ كانوا من أحسن الناس خطا فضلا عن علمهم وورعهم، فالنساخون كانوا على جانب مهم من المنافسة في إجادة الخط وهو المعيار الذي تخضع له الكتب المنتسخة، ويحدد قيمتها النقدية في معرض سوق الكتب.

ومن عرفوا بحسن الخط أحمد بن علي الملياني التلمساني (ت 715هـ) "كان حسن الخط مليح الكتابة"،⁸ وأبو العباس بن الحسن البلياني التلمساني كان: "نخبة في عصره في حسن الخط والتصرف فيه مع أدب وطلب ونبل"،⁹ وأبو زيد عبد الرحيم بن أبي العيش المتقدم: "كان يخط خطا بارعا"،¹⁰ أما أبو إسحاق

¹ - محمد الطمار، تلمسان عبر العصور: دورها في سياسة وحضارة الجزائر، تقديم: عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 186.

² - كمال أبو مصطفى، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ص 114.

³ - المقدمة، المصدر السابق، ص 440.

- ابن نديم، المصدر السابق، ص 16.

⁵ - النويري أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع كوستا تسوماس و شركاه، القاهرة، 1933، المجلد 9، ص 3.

⁶ - أنشد هذه الأبيات محمد بن محمد الحفيد المعروف بابن مرزوق الكفيف (ت 901هـ) ابن القاضي المكناسي أبو العباس أحمد بن محمد (ت 1025هـ)، درة الحجال في ذكر غرة أسماء الرجال، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2002، ص 223. ابن مريم الملقب بالمديوني التلمساني أبو عبد الله محمد (ت 1014هـ)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تقديم: عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 249، 250.

⁷ - البحر الكامل.

⁸ - ابن الخطيب لسان الدين السلماني (ت 776 هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، مصر، 1973، مجلد 1، ص 284، 285.

⁹ - ابن مرزوق، المسند، المصدر السابق، ص 314.

- ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 185.¹⁰

إبراهيم بن علي ابن اللّجام "كان أشدّ الناس تبصراً بالشروط والوثائق، وأبرعهم خطأ،..."¹، وغيرهم في بطون المصادر كثير.

وقد عرفت عملية النسخ استعمال عدة أنواع من الخطوط الكتابية كالنسخي، والمغربي والأندلسي، وسمي الأول بالنسخي لأنّ الكتاب كانوا ينسخون به المصحف الشريف، والمؤلفات والدواوين، وتعدت استعمالاته إلى التزيين والتجميل داخل المساجد والقباب،² وانتشر في شرق العالم الإسلامي وغربة.³ والخط المغربي والأندلسي، كلاهما مشتق من الخط النسخي، فسُمّيَا بالمغربي، والأندلسي لما طرأ عليهما من إبداعات، أو إضافات أحدثها النساخون والخطاطون،⁴ وقيل أنّ الخطّ المغربي إشتق من الخطّ الكوفي، وكان يسمى الخطّ القيرواني نسبة إلى القيروان، وعرف هذا الخطّ تحسنا عظيما لأنها كانت تمثل إحدى عواصم الثقافة والإشعاع العلمي.⁵ وفي نظر الأستاذ محمود لعرج الخطّ النسخي المغربي، منحدر من الخطّ الأندلسي، لذا سمي بالخطّ النسخي الأندلسي أحيانا، وأحيانا أخرى بالخطّ النسخي المغربي الأندلسي، وذلك لإشتراك العدوتين في تجويده وتحسينه وتطويره.⁶

لكن الذي نعتقده هو أنّ الخطّ المغربي ليس بالمنسلخ من الخطّ الأندلسي، لأن أغلب أنواع الخطوط إنّما اشتقت من الخطّين الكوفي والنسخي، وتبعاً لما أحدث فيهما من جماليات وتحسينات محلية أو إقليمية فدعت بهما، والخطّ المغربي إنّما دعي بهذا الاسم لخصوصية ما لحق به من تغيرات مغربية.

ولما كان الخطّ مظهر من مظاهر الحضارة، يجري عليه ما يجري عليها من التطور والتدهور فقد امتعض ابن خلدون ممّا آل إليه وضع الخطّ من الرّداءة على عهده، وأصبحت المؤلفات صعبة القراءة لكثرة ما وقع فيها من الفساد والتّصحيف، وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة، فوقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدولة؛⁷ و يذكر في موضع آخر أنّ الخطّ المغربي قد شهد تطوّراً كبيراً بفعل تأثير الأندلسيين، وذهب إلى أكثر من ذلك لما يفترض أنّ الكتابة المغربية على عهده أخذت أشكالها النّهائية عن الخطّ الأندلسي،⁸ ويبدو أن المؤلف قد

¹ - نفسه، ص 182؛ ابن خلدون يجي، المصدر السابق، ج1، ص118.

² - يجي وهيب الحبوري، الخط والكتابة في الحضارة العربية، الطبعة الأولى، دار الغرب الاسلامي، بيروت- لبنان، 1994، ص137.

- نفسه، ص 142.³

⁴ - أ. هوداس: "محاولة في الخط المغربي"، ضمن كتاب قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي، تعريب: عبد المجيد تركي، دار الغرب الاسلامي، بيروت- لبنان، 1988، ص 461.

⁵ - يجي وهيب الحبوري، المرجع السابق، ص 142-144.

⁶ - محمود لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة بتلمسان: دراسة تاريخية أثرية في عمارتها وعمارتها وفنونها، الطبعة الأولى، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006، ص 152-153.

⁷ - المقدمة، المصدر السابق، ص 751 وما بعدها.

- نفسه.⁸

أطنب كثيرا في هذه القضية، خاصة لما نجد عددا ممن شهد لهم بحسن الخط والبراعة فيه ممن ذكرنا، وكان معظمهم بتلمسان على عهده، مما يدفعنا إلى القول بأن ظاهرة الرداءة في الخط لم تكن بالحدّة التي صورها ابن خلدون.

والجدول التالي يقدم جملة من المعطيات حول بعض من اشتهروا بالنسخ:

| النّسخ: | أهم مستنسخاتهم: | مقر النّسخ: | المصدر/المرجع: |
|---|---|--|---|
| أبو عبد الله الأكبر محمد بن أبي بكر بن مرزوق (بين القرن 6 و7هـ) | - تخصص في نسخ القرآن الكريم على طريقة أهل الأندلس، و بيع السّلع. | في حانوته بقيسارية تلمسان | - ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 148. |
| أبو عبد الله بن البلد | - كان يعيش بالنّسخ و هو من أصحاب ابن مرزوق جد الخطيب (ت 681 هـ). | تلمسان | - نفسه، ص 185. - ابن خلدون يحي، المصدر السابق، ج1، ص 119. |
| يحي بن أحمد بن عبد المتّان الأندلسي | - نسخ كتاب: "البداية إلى بلوغ النهاية" أتمّه في 18 شوال 759هـ. | بأقادير | -الصدّيق ابن العربي، فهرس خزانة ابن يوسف مراكش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص315. |
| السلطان أبو زيان محمد بن أبي حمو | - نسخ من قرآن الكريم - نسخة من صحيح البخاري - و نسخ من كتاب الشفاء للقاضي عياض | حبسها على الجامع الأعظم بتلمسان | - تاريخ بني زيان، الصدر السابق، ص 211. - المصدر البوعبدلي، "مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر"، الأصالة، عدد 11، سنة 1972، ص 103. |
| السلطان أبو عبد الله المتوكّل (866-873هـ) | - جزء من الجامع الصحيح للإمام البخاري | حبسها على الجامع | -الصدّيق ابن العربي، المرجع السابق، ص 98. |
| أبو عبد الله بن الحداد الوادي آشي (ت779هـ) | - نسخ بخطه نحو مائة سفر - حيث كان نساخا بخزائن الكتب | في تلمسان | -المقري، الأزهار الرياض، المصدر السابق، ج1، ص 71 / ج3، ص 305، 308. |

وعملية النسخ لم تكن خاصة بمن احترفها وحسب، بل كانت الشغل الشاغل للعديد من الشرائح الاجتماعية، فالعلماء والطلبة، والتلاميذ كان شغفهم من باب أولى، كونهم مختصين في طلب العلم، وهو ما يدفعهم إلى انتساح الكتب والشروح المفصلة، للإستفادة منها أولاً وامتلاكها لتكوين مكتبة خاصة بهم ثانياً، لا سيما عند ظهور الكتب النادرة والمؤلفات الجديدة فهذا محمد بن عمر الهواري المغراوي¹: "لما ظهر شرح سيدي خليل في أواخر عمره، وبلغه عنه ما اشتمل عليه من فوائد، قال في بعض كلامه: قد نشتهي نسخاً من خليل فيه أبيان ونفرح بما ننقل ولا يكن نسيان"². وهذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على قمة اعتناء ذوي النباهة من العلماء بالنسخ، وبالكتب القيمة النادرة ذات الفائدة الكبيرة، ومن الممكن جداً أنّ معظم العلماء الذين كانوا بتلمسان، أو بالأحرى في كامل ربوع الدولة الزيانية كان اهتمامهم على شاكلة اهتمام محمد بن عمر الهواري أو أكثر منه.

وتصحيح الكتاب وضبطه: من أهم ما يقوم عليه النسخ، لأن بفضلته يتوصل الناسخ إلى إخراج نسخة قد تكون فريدة، بعد تحقّقه من مواطن الزيف، والتصحيح، والأخطاء في المخطوطات المستخدمة في النسخ من خلال مقابلة النصوص ومقارنتها؛ لأنّ تجارة الكتب كانت شائعة كغيرها من التّجارات، كتجارة المعادن، والقماش، وكانت تتناقلها الأيدي من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى الأندلس، ثم من الأندلس إلى المغرب وهكذا إلى المشرق، وبالتالي تكون المؤلفات دائماً عرضة لمثل تلك الأخطار.

ومن عرفوا بالتحقيق والضبط في النسخ محمد بن أبي بكر مرزوق (ق 6 و 7هـ) بشهادة ابن مرزوق الخطيب حيث يقول: "وكان مصحفياً يكتب المصاحف التي كان الناس يتنافسون فيها على طريقة أهل الأندلس، ...؛ غاية في الحسن، خطأً وضبطاً، لا تبعد عن خط الغطوسيات"³. وتوحي إحدى الأصول المخطوطة بوجود هذا النوع

¹ - "هو محمد بن عمر بن عثمان بن منيع بن عياشة بن سيد الناس بن خير الغياري، المعروف بالهواري، ... جمع بين العلم والولاية، ... تعلم القرآن على أستاذه علي بن عيسى، خرج من وطنه فدخل كلبتمو، ... وطاف في البلاد شرقاً وغرباً، ... رحل إلى بجاية فقرأ على أعلامها الجلة، ... ثم سافر إلى فاس فأخذ عن علمائها، وبعد سنة 776هـ توجه لقضاء فرض الحج، ثم زار بيت المقدس، ثم رجع إلى وهران، واستقر بها، وأخذ ينشر العلم، ألف سنة 776هـ كتاباً سماه: "السهو في أحكام الطهارة والصلاة". توفي يوم السبت 12 ربيع الثاني 843/1439م فكان عمره 92 سنة". ابن سعد التلمساني محمد بن أحمد بن أبي الفضل (ت 901 هـ)، روضة السنين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تحقيق: يحيى بو عزيز، الطبعة الأولى، نشر: ANEP، الجزائر، 2004، ص ص 47-123؛ ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973، ص 433. أبو رأس الناصري، محمد بن أحمد، عجائب الأسفار و لطائف الأخبار، تحقيق: محمد غالم، منشورات CRASC، الجزائر، 2005، ج1، ص 110.

- ابن سعد، المصدر السابق، ص 93.²

³ - المناقب المرزوقية، المصدر السابق، ص 148، والخط الغطوسي: خط اشتهرت به أسرة ابن غطوس الأندلسية وينسب لها، استعمل في نسخ المصاحف، وتميز هذا الخط بحسن الوضع ورعاية الرسم، وجودة الضبط حيث لكل ضبط لون من الألوان لا يخل به، فاللازورد للشدات والحزمات، وكذلك للضمات وللفتحات والكسرات، والأخضر للهمزات المكسورات، والأصفر للهمزات المفتوحات، وكان محمد بن أبي بكر ابن مرزوق من أعرف النساخ بهذا الخط في تلمسان. نفسه، الهامش 31؛ وينظر: المراكشي ابن عبد الملك (ت 703هـ)، الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، تحقيق: احسان عباس، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت- لبنان، 1973، السفر السادس، ص 314-315.

من الحرص لدى النساخين التلمسانين، وهو مخطوطة كتاب: "نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان"¹، وفي نظر محمود بوعبيد فإن المخطوطة نسخت في حياة مؤلفها؛² ولعل الأوصاف التي تميزت بها أدلّ على أنّ الناسخ قد التزم فيها التصحيح والمقابلة بين النسخ، والضبط، يذكر بوعبيد: "وهذه النسخة قيمة متقنة، تتميز بجودتها وأصالتها،... مكتوبة بكل إتقان، وتتميز بالجلال والوضوح،... كتبت بخط مغربي جميل قريب إلى الخطّ الأندلسي، وهو في منتهى الجودة والأناقة، لم تقم بها إلا يد فنان، ولم يتغير من بداية الكتاب إلى نهايته"³.

وإلى جانب اهتمام النساخ بالخطّ، وتصحيح وضبط الكتاب، فقد اعتنوا بتزويق الكتب وترصيعها بالزخارف والأشكال الهندسية، وتذهيبها، وتلوينها ليزيدوا من جماليتها.

والجدول التالي يقدم معلومات هامة حول هذا الموضوع:

| نماذج لمخطوطات مزينة و منمّقة | | | |
|---|---|--|--|
| أدوات التزيين | مخطوطة نظم الدرّ والعقيان | مخطوط للمصحف الشريف | مخطوط نوازل ابن مرزوق |
| الألوان المستعملة: - الأزرق. - الأحمر. - الأسود. - التذهيب. | + رؤوس الفقرات. + في المتن. + العناوين الرئيسية، أسماء السلاطين، أسماء الله الحسنى واسم الرسول. | أغلب الألوان في أول كل سورة، ورأس كل آية وأسماء الله الحسنى. + محلى بالذهب. | + رؤوس الفقرات. + المتن. - |
| الإطارات: | + أطر مذهبة للعناوين. | + | + اطارات من ثلاث خطوط متقاربة بلون أسود وأحمر وأزرق. |
| الزخارف النباتية والهندسية: | + شجرات المنسب كلها مذهبة. + أزهار النقاط. + شكل هندسي مذهب فوق كلمة "نظم الدرّ و | + زخارف أسماء السور. | - |

¹ - من تأليف أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي (ت 899هـ)، حقق منها محمود بوعبيد الجزء الخاص بتاريخ الدولة الزيانية. نشير سنة 1985.

وهذه النسخة محفوظة بمكتبة خاصة لإحدى الأسر بتلمسان.

² - تاريخ بني زيان، المصدر السابق، (مقدمة التحقيق) ص 82.

³ - نفسه، ص 82-83.

| | | | |
|--|--------------------|---|-------------------|
| | | العقبان " مزين بأشكال نباتية. | |
| + العناوين والمسائل والمناظرات العلمية. | + | - صفحة عنوان الكتاب. - العناوين الرئيسية بالقلم الغليظ البارز. | الزخارف الكتابية: |
| مغربي متوسط. | مغربي جميل. | مغربي جميل. | نوع الخط: |
| كاغد. | رق غزال (جلد غزال) | كاغد. | نوع الورق: |

ومن خلال الجدول السابق، والمعطيات التي يتوفر عليها، يتبين لنا أنّ النساخين اعتمدوا على مجموعة من الأساليب في تنميق مستنسخاتهم المختلفة، ومدى المهارة الفنيّة التي تميزت بها أنامل الناسخ التلمساني في صناعة الكتاب أو المخطوط خلال العصر الزياني.

وتدخل عملية الكتابة بالذهب ضمن إطار النسخ والخطاطة والتأنيق، ونعتقد أنّ هذه العملية كانت تتم باستخدام نوع خاص من الحبر يستخلص من معدن الذهب، سمي "بجبر الذهب" أو "ماء الذهب"،¹ لذا يُعتبر التذهيب في الكتب من أرفع فنون الكتابة بعد تجويد الخط.²

وقد عنى الخطاطون بتذهيب الكتب وبخاصة المصحف الشريف والمؤلفات النادرة، وأهم شيء شملته هذه العملية في الكتب الصفحة الأولى، والعنوان، والبسملة، وبدايات السور بالنسبة للمصاحف، أما المؤلفات العادية كانت الزخارف والرسومات هي الميدان الذي يمارس فيه المذهبون فنهم، وقليلاً ما كان التذهيب يمتد إلى الخط، وحتى إذا وجدت كتابة بماء الذهب فإنّها تكون في نطاق ضيق محدود لا يكاد يتجاوز كتابة العناوين أو رؤوس الموضوعات.³

وعملية التخطيط والتذهيب ليست إلا تكميلاً للعمل الذي بدأ بنسخ الكتاب، ثم تصحيحه وضبطه تم تزيينه وتحسينه، ليدفع في الأخير إلى عملية التجليد التي لا تقل أهمية عمّا قبلها.

ج- التجليد (التسفير):

¹ - عبد الستار الجلوحي، المخطوط العربي، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2002، ص 241.

Marie Genevieve Guesdon : « L'art du livre arabe manuscrit en Algerie », in: *L'Algerie en héritage*, p 294

² - عبد الستار الجلوحي، المرجع السابق، والصفحة ذاتها.

³ - نفسه.

تعتبر صناعة مهمة ازدهرت بالمدن الإسلامية ازدهارا كبيرا، حتى تحولت من مجرد تغليف الكتاب وكسوته، إلى فنّ جميل يدخل ضمن خانة الفنون الإسلامية البديعة؛ وعرفت هذه الصناعة بالتفسير عند أهل المغرب، أما عند المشاركة فقد أطلق عليها إسم صناعة التجليد.¹

ووجدت صناعة تفسير الكتب في بلاد المغرب الإسلامي عامة، حيث الميدان الخصب الذي يمدّها بأسباب الازدهار، فقد كانت صناعة الجلود منتشرة في المدن خاصة مدن المغرب الأوسط كبحاية، والجزائر، وتلمسان، وذلك لوفرة المادة الأولية المتمثلة في الجلد بأنواعه، لأن أغلب الناس القاطنين في هذه المناطق كانوا يعتنون بتربية الماشية والصيد، بالإضافة إلى وجود فئة من الحرفيين تسهر على العناية بتصنيع الجلد وهي فئة الدباغين.

تظهر أهمية التفسير في كونه يحقق للكتاب ولصاحبه وراقاً أو نساخاً كان، أكثر من مآرب فهو يحافظ على الكتاب ويحميه مما قد يتعرض له من التلّف، ويظهره في صورة حسنة لا تفتت، تحقق قيمة جمالية ومالية عالية.² كما كان الكتاب يزود بجلدة زائدة لحماية الأطراف الخارجية للأوراق تعرف "باللسان"،³ ويسمى أيضا "بالمرجع وهو الذي يستدل به القارئ ويجعله حدا فاصلا بين ما قرأه من الكتاب وما لم يقرأه بعد".⁴

وكان لأبي عبد الله محمد بن يحيى الباهلي البجائي⁵ إهتمام كبير وعناية بتجليد الكتب حتى عرف بالمسفر⁶ ومن الأدوات التي كان يعتمد عليها المسفر في تجليد الكتاب: المقرض، والإبرة ومدلّكاً يدلّكُ به الجلد، والأصباغ، وسكين للتسوية، وكان يحتاج إلى حديد النقش كالمصقلة والمشطب، ويحتاج من الطوابع: الورقة، والمعشار، والمضربة، والقمحة، والمربعة، والعقدة، وكلها من الحديد، بالإضافة إلى الأخرية، والخيوط،⁷ ومعادن الذهب، والفضة، والنحاس لتحلية المجلدات، بإذابتها في الفراغات الناتجة عن ضغط الزخارف وكبسها.⁸

محمل القول هذه محاولة جديدة ومتواضعة، وجرئية لما اعتور طريقها من مجازفة علمية بسبب أن مثل هذه مواضيع ما تزال مدرجة في خانة اللامفكر فيه أو المسكوت عنه، بسبب النقص الحاصل في المصادر الإخبارية - رغم تعددها- التي لا تسعف الباحث في كثير من الأحيان بالمادة العلمية التي يكشف من خلالها عن مضمّرات مواضيع بهذا الشكل خاصة في الحقبة الوسيطية، وحاولنا في هذه الورقة إبراز أهمية التوريق والنسخ والكتابة

¹ - بكر بن براهيم الاشبيلي، التسيير في صناعة التفسير، تحقيق: عبد الله كنون، نشر في: صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد- اسبانيا، 1959 - 1960 م، المجلد 7 و 8، (مقدمة التحقيق)، ص 1.

- هالة الشاكر، المرجع السابق، ص 118.²

³ - زخرقة الفضة والمخطوطات عند المسلمين، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية، الرياض، 1988- 1989 م، ص 31.

- بكر بن براهيم الاشبيلي، المصدر السابق، ص 1، 2.⁴

⁵ - الباهلي: كان فقيها عالما صالحا، قاضي الجماعة ببجاية، أخذ عن أبي الحسن الصغير المغربي، له مؤلفات عديدة منها إملاء عجيب على ابن الحاجب في الفقه، وشرح على أسماء الله الحسنى، وقصائد شعرية، وكلام في التصوف، توفي سنة 744 هـ، ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعزّ الحقير، تحقيق: محمد الفاسي وأدولف فور، مطبعة أكّدال، الرباط، 1965، ص 53، 54؛ ابن مريم، الصدر السابق، ص 227.

- ابن مريم، نفس المصدر والصفحة.⁶

⁷ - بكر بن براهيم الاشبيلي، المصدر السابق، ص 10-14.

- زخرقة الفضة والمخطوطات، المرجع السابق، ص 31.⁸

والتجليد وطرق النسخ ومراحلها وما ينبغي مراعاته في ذلك، ودورها في دفع حركة إنتاج وصناعة الكتب والمخطوطات، التي بدورها أدت إلى إنتاج المعرفة ونشر الثقافة العربية الإسلامية، وهذه الأنشطة تعادل في زماننا هذا دور الطباعة والنشر، وبالتالي هذه الآليات كفلت للمغرب الأوسط على العهد الزياني التطور في عديد مجالات الحياة الاجتماعية، والعمرانية، والإقتصادية، والسياسية، والثقافية؛ التي شكلت المعالم الحقيقية للحضارة الزيانية.

مصادر ومراجع البحث:

أ- المصادر:

- الاشيلي بكر أبو عمرو بن إبراهيم بن المجاهد (ت 629 هـ)، التيسير في صناعة التفسير، تحقيق: عبد الله كنون، نشر: صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد-إسبانيا، 1959-1960، المجلدان السابع والثامن.
- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من كتاب نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان لمحمد بن عبد الله التّنسي (ت 899 هـ)، تحقيق: محمود بوعياض، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.
- ابن الخطيب لسان الدّين السّلماني (ت 776 هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، مصر، 1973.
- ابن خلدون أبو زكرياء يحيى (ت 780 هـ)، بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، الجزء الأول.
- ابن خلدون عبد الرحمن (ت808هـ)، الرّحلة، تحقيق: محمد بن تاويت الطّنجي، تقديم: نوري الجراح، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر، بيروت، 2003.
- ابن خلدون عبد الرحمن (ت808هـ)، المقدّمة، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، 1979.
- ابن خلدون عبد الرحمن (ت808هـ)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّطان الأكبر، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، 1979، المجلدان السادس والسابع.
- ابن سعد التّلمساني محمد بن أحمد بن أبي الفضل (ت 901 هـ)، روضة النسر في التعريف بالأشياء الأربعة المتأخرين، تحقيق: يحيى بو عزيز، الطبعة الأولى، نشر: ANEP، الجزائر، 2004.
- الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، الطبعة الأولى، دار الكتاب الحديث، الكويت، 1994.
- الفيروزآبادي محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تقديم: أبو الوفا نصر الحوريني، الطبعة الأولى، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2004.
- القارّة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

- القلقشندي أحمد بن علي (ت 861 هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تعليق: محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، دون تاريخ.
- ابن القاضي المكناسي أبو العباس أحمد بن محمد (ت 1025 هـ)، درة الحجال في ذكر غزاة أسماء الرجال، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2002.
- ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعزّ الحقيير، تحقيق: محمد الفاسي وأدولف فور، مطبعة أكذال، الرباط،
- المازوني أبو زكرياء يحيى بن موسى بن عيسى بن يحيى المغيلي (ت 883 هـ)، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق: مختار حساني، مخبر المخطوطات، بوزريعة-الجزائر، 2004.
- المقرئ التلمساني أحمد بن محمد (ت 1040 هـ)، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وآخرون، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، 1978؛ ج 1، ج 3، ج 4.
- ابن مرزوق التلمساني أبو عبد الله محمد (ت 781 هـ)، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- ابن مرزوق التلمساني أبو عبد الله محمد (ت 781 هـ)، المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 2008.
- ابن مریم المليلي المديوني التلمساني أبو عبد الله محمد (ت 1014 هـ)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تقديم: عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.
- ابن ناسم محمد بن إسحاق (ت ق 5 هـ)، الفهرست، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة-تونس، -
التأصري محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر (ت 1238 هـ)، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق: محمد غالم، منشورات CRASC، الجزائر، 2005، الجزء الأول.
- التويري أحمد بن عبد الوهاب (ت 732 هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع كوستا تسوماس وشركاه، القاهرة، 1933.
- الونشريسي أحمد بن يحيى (ت 914 هـ)، المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تخرّيج: جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.
- ب- المراجع:
- 1- باللغة العربية:
- أوليفيا ريمي كونستبل، التجارة والتجار في الأندلس، ترجمة: فيصل عبد الله، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض-المملكة العربية السعودية، 2002.
- بوداود عبيد، ظاهرة التصوّف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع (القرن 13-15 م)، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، 2003.

- التّركي عبد المجيد، قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1988.
- جبر حسن، أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها، دار الكتاب العربي، الكويت، 1999.
- الجبّوري يحي وهيب، الخطّ والكتابة في الحضارة العربية، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان،
- الحلوّجي عبد الستار، المخطوط العربي، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2002.
- زخرقة الفضّة والمخطوطات عند المسلمين، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية، الرياض، 1988 - 1989 م، ص 31.
- زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال الدسوقي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1993.
- ابن سحنون الراشدي أحمد بن محمد، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973.
- شاكر هالة، الوراقة والوراقون في العصر العباسي، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2004.
- الصديق ابن العربي، فهرس خزانة ابن يوسف مراكش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994.
- الطّمّار محمد، تلمسان عبر العصور: دورها في سياسة وحضارة الجزائر، تقديم: عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
- كمال أبو مصطفى، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997.
- محمود لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة بتلمسان: دراسة تاريخية أثرية في عمرانها وعمارتها وفنونها، الطبعة الأولى، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006.
- المراجع باللغة الأجنبية:

- *L'Algérie en héritage: Art et Histoire*, Institut du monde arabe, actes sud, 2003.

- Marie Genevieve Guesdon : " *L'art du livre arabe manuscrit en Algerie* ", in: *L'Algérie en héritage*

المقالات:

- البوعبدلي المهدي: "مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر"، مجلّة الأصالة، العدد السابع، 1972، ص.ص 103-111.
- هوداس أ: " محاولة في الخط المغربي "، تعريب: عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1988، ص.ص 443-478.

صور التغير النحوي للعربية

د. مختار درقاوي (جامعة الشلف)

ذهب اللساني الفرنسي دارمستير Arsène Darmeseter إلى أنّ اللغة، أية لغة كانت، وفي أية فترة كانت من وجودها، يتنازعها في تطورها الدائم المستمر عاملان متناقضان تجاهد اللغة في الاحتفاظ بتوازنها بينهما، وبقدر احتفاظها بهذا التوازن يكتب لها طول العمر بين الناطقين بها، وهذان العاملان هما عامل المحافظة من ناحية، وعامل التطور من ناحية أخرى¹.

أمّا فيما يتصل بعامل المحافظة، فقد كان دائما كاجبا للتطور اللغوي؛ لأنّه ينطلق من فكرة أساسية وهي أنّ اللغة تراثٌ قوميّ، وقد يكون دينيا أيضا - مثلما هو الحال عند أهل الإسلام، تقتضي الأمانة الحفاظ عليه كما كان على عهد السلف. وأمّا عامل التطور فهو عامل ثوري متمرّد على الجمود، تقف من ورائه الحضارة قوة دافعة، فاختلاط الناس بعضهم ببعض، والرحلة من مكان إلى آخر ووجود عناصر بشرية جديدة تدخل على مجموعة مستقرة فتؤثر في نطقها والهجرة الجماعية من البيئة الأصلية إلى أمصار بعيدة أخرى، وتعاقب الأزمان والأجيال، مع وجود الفارق في دقة التلقي عن طريق السمع، وعن طريق المحاكاة بين الأبناء وآبائهم، كل ذلك يحدث عاهات عميقة في شكل اللغة بل يظهر فيها لهجات تتنوع وتنفصل عن اللغة الأم².

أمّا التطور النحوي عن طريق التوسع في القياس فظاهرة شائعة في جميع اللغات، وإن لم يكن مطبقا من قبل، من ذلك إجراء حركات الإعراب على المضاف في اللغة العربية بحيث نقول: هذا كتابٌ زيد بضم الباء، وقرأت كتاب زيد بفتح الباء، ونظرت في كتاب زيد بكسر الباء، هذا الإعراب لم يكن على الأرجح إلا استمرارا في عملية آلية هي تغيير في الحركة في آخر الكلمة بتغيير التراكيب. وبمقارنة العربية بغيرها من اللغات السامية نجد أن قواعد الإضافة في العبرية والآرامية ثم في الأشورية والبابلية قبلها تؤكد أنّ المراحل الأولى للغة الساميين لم تكن تعرب المضاف³.

وما زال النحاة العرب يقولون بصريح العبارة إنّ المضاف والمضاف إليه في حكم اللفظة الواحدة، وقد عثر على نقش في جزيرة العرب يرجع إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقد وردت فيه صيغة "علي بن أبو طالب"، نقله حسن ظاظا عن كراوس وحميد الله في كتابهما "وثائق سياسية من عهد النبوة والخلفاء الراشدين"،

• من صور التغيّر النحوي للعربية:

ينم التغير النحوي مع قلته في اللسان العربي عن التطور المستمر الحاصل في اللغة، فقد يلاحظ المتكلم أنّ كلمة أو إجراء نحويًا ما، لم يعد كما كان في السابق نتيجة ترك العمل به، أو عدول عن الوظيفة المسندة إليه إلى وظيفة جديدة، أو عن طريق التناوب والجمع بين الوظيفتين، الوظيفة المعهودة التي أشار إليها علماء النحو قديماً، والوظيفة الجديدة الطارئة. فهذه ثلاث صور للتغيير النحوي، وسيأتي بيّانها.

1- من أمثلة الترك في العربية المعاصرة نذكر زوال الألفات الآتية:⁸

• الألف المبدلة من نون التوكيد الخفيفة، كما في قوله تعالى: "وليكوناً من الصاغرين"⁹، وهذه وردت كثيراً في الشعر القديم، كقول أحدهم:

وإياك والميتات لا تقرّبَنّها ولا تعبد الشيطان، والله فاعبدا¹⁰

والتقدير: "فاعبدن".

• الألف عوضاً من المضاف إليه، وهي التي تزداد في "بين" كقولك: بينا كنت أسير لحتك من بعيد. ولا تعرف هذه الألف في العربية المعاصرة، والمعربون يستعملون بينما وهم يصلون إلى ما يريدون.

• الألف الزائدة في المنادى المستغاث أو المتعجب منه أو المندوب، نحو:

يا يزيدا لآملٍ نيلٍ عَزٌّ وغنّى بعد فاقة وهوان¹¹

وقال جرير:

حُمِلتُ أمراً عظيماً فاصطَبَرْتُ لَهُ وَفُئِمْتُ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا¹²

وقد يرد هذا بعد الواو في الندبة نحو قول المتنبي:

واحرَّ قلباهُ ممَّن قلبه شيمٍ ومَن بجسمي وحالي عنده سَقَمٌ¹³

ولا تعرف العربية الحديثة هذه الألفات، بل إن باب الاستغاث والندبة قد أوشك جملة أن يزول. وإن المعربين يعربون عن الاستغاث وما يندرج في الندبة بأساليبهم فيظهرون توجعهم وتفجعهم وأسفهم في غير هذه القوالب¹⁴.

ومن أمثلة ما نطق بها العرب القدماء وزال في العربية الحديثة نذكر:¹⁵

- "أَجْدَكَ": وهو مصدر نائب عن فعله المحذوف منصوب، ومعناه: أجدد منك. وهذا من الكلم القديم الذي لا نعرفه في عربيتنا المعاصرة، وقد يتعذر وجوده في شعر الشعراء أصحاب القافية والوزن.
- "ألا": بفتح الهمزة مخففة، حرف في عدة معان لدى النحاة:
 - حرف استفتاح وتنبيه...
 - حرف عرض (وهو طلب برفق).
 - حرف تحضيض (وهو طلب بحث وشدة).
 - حرف توبيخ وإنكار.
 - حرف استفهام عن نفي.
 - حرف تمن بمعنى أتمنى.
- ولم يبق من هذا كله إلا انصراف "ألا" إلى العرض كقولنا: ألا تأتي معنا، وقد تنصرف إلى التوبيخ المستفاد من المعنى كقولنا: ألا تستحيي.
- "ألاً": بفتح الهمزة وتشديد اللام وهي:
 - حرف تحضيض، نحو: ألا تنتهيا للسباق.
 - أن الناصبة مدغمة في "لا".
- أمّا الثانية فمعروفة في العربية المعاصرة بخلاف الأولى التي زالت ولم يبق شيء منها.
- "انبرى": من أفعال الشروع بمعنى "بدأ"، وهذا يعني أنه يرفع الاسم وينصب الخبر، وخبره جملة فعلية فعلها مضارع نحو: انبرى الصبي يلعب.
- وليس يستعمل هذا الفعل في العربية الحديثة على هذا النحو، فقد يكثر أن نسمع: انبرى فلان في عمله، والفعل يتجاوز معنى البدء والشروع، فيكون بمعنى مضى وجرى.
- "أيّ" الموصولة التي تضاف إلى المعرفة ويحذف صدر صلتها، وهي بلفظ واحد للمذكر والمؤنث، مفردا أم غير مفرد، عاقلا أم غير عاقل، نحو قوله تعالى: "ثُمَّ لَنُنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيْعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا"¹⁶. وكقول غسان بن وعلة:
- إذا ما لقيت بني مالكٍ فسلم على أيُّهم أفضل¹⁷
- وهذا شيء من الكلم النحوي القديم الذي عفا أثره في العربية الحديثة.
- "أينما": اسم شرط جازم، ومنه قول كعب بن جُعيل:

صَعَدَةٌ نَابِتَةٌ فِي حَائِرٍ أَيْمًا الرِّيحُ تُمَيِّلُهَا تَمَلُّ¹⁸

وهذه من أدوات الشرط التي لا تُرى في عربيتنا المعاصرة.

● "حار": فعل ماضٍ ناسخٍ مبني على الفتح بمعنى "صار"، نحو:

وما المرءُ إلا كالشهابِ وضوئه يحورُ رماداً بعد إذ هو ساطعٌ¹⁹

وليس لهذا الفعل من وجود في العربية الحديثة بهذا الاستعمال. إن الفعل "حار" في إعرابنا الحديث من

"الحيرة" وهو فعل تام متصرف.

● "هيا": حرف نداء، قال الحطيئة:

فقال: هيا ربّاه ضيفٌ ولا قريٌّ بحقِّك لا تحرمهُ تا الليلة اللحم²⁰

وليس في العربية المعاصرة شيء من استعمال هذه الأداة.

2- ومن أمثلة العدول عن الوظيفة المعهودة والمألوفة عند النحاة إلى وظيفة جديدة طارئة قول العامة: "كم

هو جميل"، و"كم أنا مسور" وما أشبه ذلك. وهذا من التراكيب الأعجمية الخالصة، فإنّ الذي تستعمله

العرب في هذا المعنى هو: ما أجمله وأجمل به، وهما صيغتا التعجب، ولا مكان لاستعمال "كم" هنا سواء

كانت خبرية أم استفهامية. وهكذا نلاحظ أن المتكلم العربي المعاصر عدل عن صيغتي التعجب المقررتين

في الدرس النحوي القديم إلى استعمال جديد بواسطة "كم"؛ فأضاف بذلك موضعا ثالثا لها وهو

التعجب إلى الموضعين المشهورين والمتفق عليهما وهما: الاستفهام والخبر المقترن بالتكثير.

3- ومن أمثلة التناوب والجمع بين الوظيفتين؛ الوظيفة المشار إليها في الدرس النحوي القديم والوظيفة الجديدة

نذكر ظاهرة التضمين.

- التضمين بوصفه مظهرا من مظاهر التغير النحوي:

التضمين من القواعد التي لفتت أنظار اللغويين فصرفوا وكدهم في بحثها وتحقيقها، ولكنهم اختلفوا في

هذه الظاهرة العربية واتسع مضمار الخلف بينهم بين منكر ومؤيد، فمآل بعضهم إلى إقرارها في الدرس النحوي

والتماسها في التصحيح والتيسير - وبالتالي عدّها مظهرا من مظاهر التغير اللغوي-، وآخرون شدّوا الوثاق

فمنعوا اعتقاداً أنّ "هذا الباب يتلقاه الناس مغسولا ساذجا من الصنعة وما أبعد الصواب عنه، وأوقعه دونه"²¹.

للتضمنين في سياق المعجمات العربية دلالات عدّة تختلف باختلاف الوجوه التي استعمل فيها، ولعلّ الدلالة الأقرب إلى مراد اللغويين هي أنّ التضمنين "جعل الشيء في شيءٍ يحويه"²²، أمّا في الاصطلاح فعده التهانوي "إيقاع لفظ موقع غيره لتضمّنه معناه، ويكون في الحروف والأفعال، وذلك بأن تضمن حرف معنى حرف أو فعل معنى فعل آخر، ويكون فيه معنى الفعلين معا، وذلك بأن يأتي الفعل متعديا بحرف ليس من عادته التعدي به، فيحتاج إلى تأويله أو تأويل الحرف ليصحّ التعدي به، والأوّل تضمنين الفعل، والثاني تضمنين الحرف"²³.

ومن أمثلة تضمنين الفعل قوله تعالى: "ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم"²⁴ بمعنى: تضيفوا، أمّا تضمنين الحرف يذكر علماء النحو استعمال "على" بمعنى "في"، نحو قوله تعالى: "ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها"²⁵؛ أي: في حين غفلة واستعمال "عن" بمعنى "على"، نحو قول ذي الإصبع حرتان بن الحارث العدواني:

لاه ابنُ عمِّك لا أفضلتُ في حسَبٍ عَيِّي، ولا أنتَ دَيَّانِي فَتَحْزُونِي

أي: لا أفضلت في حسَبٍ عَيِّي²⁶، واستعمال "على" بمعنى "عن" في قول قحيف العقيلي مادحا:²⁷

إِذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قَشِيرٍ لَعَمْرُ اللَّهِ أَعْجَبَنِي رِضَاهَا

أي: إذا رضيت عَيِّي، وأضاف الزركشي نوعا ثالثا أسماه "تضمنين الاسم"²⁸، كقوله تعالى: "حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق"²⁹، ضمّن حقيق معنى حريص ليفيد أنّه محقوق بقول الحق وحريص عليه.

وقد شجر خلاف وجدل رحب في أمر تناوب حروف الجر بين البصريين والكوفيين، حيث منع البصريون وقوع بعض حروف الجر موقع بعضها وأجاز الكوفيون ذلك، وحقّة البصريين "أنّ الأصل في كل حرف ألا يدلّ إلا على ما وضع له، ولا يدلّ على معنى حرف آخر"³⁰، فأهل الكوفة يحملون على ما يعطيه الظاهر من وضع الحرف موضع غيره، وأهل البصرة ييقون الحرف على معناه الذي عهد فيه، إمّا بتأويل يقبله اللفظ، أو بأن يجعلوا العامل مضمنا معنى ما يعمل في ذلك الحرف³¹.

فقوله تعالى: "ولأصلبّتكم في جذوع النخل"³² ذهب الكوفيون إلى أنّ "في" بمعنى "على"، ومنع البصريون ذلك وتأولوا النص بأنّ هناك تشبيها للمصلوب لتمكّنه من الجذع بالحال في الشيء، فهو من باب المجاز، وإمّا على شذوذ إنابة كلمة عن أخرى³³، ووافقهم ابن عصفور، جاء في سياق ردّه على الكوفيين قوله: "لا حجة لهم

—أي الكوفيين— في ذلك؛ لأنّ الجدوع قد صارت لهم بمعنى المكان لاستقرارهم فيها³⁴، أي إنّ "في" في موضعها ولا تناوب في الآية.

في حين ارتضى جمع آخر ما أقرّه الكوفيون من إمكان نيابة حروف الجر عن بعضها، فقد عقد ابن قتيبة (ت276هـ) في كتابه "تأويل مشكل القرآن" بابا خاصا "لدخول حروف الصفات مكان بعض"³⁵، وأيضا خصّ في كتابه "أدب الكاتب" بابا لـ "دخول بعض الصفات على بعض"³⁶، وعقد الثعالبي (ت430هـ) في كتابه "سر العربية" فصلا في "وقوع حروف المعنى مواقع بعض"³⁷، وغير ذلك مما هو مقرّر في تضاعيف كتب اللغة والنحو. ولكن، ونحن نتحسس الطرح اللغوي والنحوي في مظان التراث العربي لمخنا شيئا مهما وهو أنّ عددا من الذين أجازوا تضمين الحرف وضعوا شرطا لتحقيق ذلك، وهو وجود صلة وتقارب بين الحرفين، فإذا انتفى التقارب لا يصحّ التناوب يقول ابن السراج (ت316هـ): "فهذه حقيقة تعاقب حروف الخفض فمتى لم يتقارب المعنى لم يجز"³⁸، ووضّح ابن السيّد البطليوسي هذه الفكرة بقوله: "هذا الباب أجازه قوم من النحويين أكثرهم من الكوفيين، ومنعه قوم أكثرهم من البصريين، وفي القولين نظر؛ لأنّ من أجاز دون شرط وتقييد لزمه أن يجيز سرت إلى زيد وهو يريد مع زيد، قياسا على قولهم: "إن فلانا لظريف عاقل إلى حسب ثاقب"؛ أي: مع حسب، ولزمه أن يجيز (زيد في عمرو)؛ أي: (مع عمرو)..."

هذه المسائل لا يجيزها من يجيز إبدال الحروف، ومن منع ذلك على الإطلاق لزمه أن يتعسف في التأويل لكثير مما ورد؛ لأنّ في هذا الباب أشياء كثيرة يبعد تأويلها على غير البدل، ولا يمكن للمنكرين لهذا أن يقولوا: إنّ هذا من ضرورة الشعر؛ لأنّ هذا النوع قد كثر وشاع، وأنّه يخصّ الشعر دون الكلام فإن لم يصح إنكار المنكرين له، وكان المجيزون له لا يجيزون من كل موضع، ثبت بهذا أنّه موقوف على السماع غير جائز القياس عليه³⁹.

والنتيجة التي آل إليها البطليوسي بوقف التضمين على السماع ليست محلّ إجماع، ذلك أنّ هناك جمعا من المتقدمين نادوا بقياسيته، وتابعهم على ذلك المحدثون وإقرارهم به جاء مسaire "مع واقع الحياة الاجتماعية وظروف اللغة المستعملة"، ولكن هذا لم يمنع هذا الاتجاه من تأكيد أنّه "إذا أمكن إجراء اللفظ على مدلوله، فإنّه يكون أولى"⁴⁰.

ولعل ما يستوقف الباحث والناظر اللغوي في زاوية أخرى من زوايا بحث هذا المبدإ التساؤل الآتي: أليس التضمين ضربا من المجاز؟، انقسمت في الحقيقة الآراء إلى ثلاثة مذاهب:⁴¹

—الأول: يرى أنّ المادة المتضمنة قد استخدمت على الوجه الحقيقي مع قطع الصلة بينها وبين الأصل.

—الثاني: يرى أنّ المادة استخدمت على الوجه المجازي، مع توفر القرينة التي تدلّ على ذلك.

-الثالث: رأي توفيقى يجمع بين الحقيقة والمجاز.

وأياً كان نوع الخلاف الدائر حول التضمين، بين الإقرار والمنع، وبين السماع والقياس، وبين الحقيقة والمجاز يكفيننا أنه "لا يخالف طبيعة اللغة وروحها ولا يُصادم قاعدة مقررة فيها وهو أدخل في باب الأسلوب (...). وقد يكون من آثار التوليد والقياس ومحاكاة النظير، (ومظهرها من مظاهر التطور والنمو)، فأَيّ حرج في هذا؟"⁴² وبناء على هذا الاعتقاد تمّ -في العصر الحديث- إجازة وتصحيح الكثير من الاستعمالات بحملها على التضمين.

- تصحيح الاستعمال بتضمين الحرف:

وشمل عددا من حروف الجر نذكر منها: على، ب، ل، في، عن وغيرها ولعل الأمر يتضح من خلال الاستعمالات الآتية:

- "أخذه على ذنبه"، مرفوضة عند بعضهم؛ لأنّ الفعل "أخذ" لا يتعدى بـ"على" وإنما يتعدى إلى المفعول الثاني بالباء، فالفصحى أن يقال: أخذه بذنبه، ومع ذلك تمّ تصحيح الاستعمال المرفوض بإجازة اللغويين نيابة حروف الجر بعضها عن بعض كما أجازوا تضمين فعل معنى فعل آخر فيتعدى تعديته، جاء في المصباح: "الفعل إذا تضمّن معنى فعل جاز أن يعمل عمله"⁴³، وقد أقرّ مجمع اللغة المصري هذا وذاك⁴⁴.

- "أجاب على السؤال"، مرفوضة عند بعضهم؛ لأنّ الفعل "أجاب" لا يتعدى بـ"على" وإنما بـ"عن"، فالأفصح أن يقال: "أجاب عن السؤال"، وتمّ قبول وتصحيح الاستعمال المرفوض باعتماد التضمين⁴⁵.

- "أثر به كثيرا موثُ صديقه"، مرفوضة عند بعضهم لتعدية الفعل بالباء، وهو يتعدى بـ"في"، الفصحى أن يقال: أثر فيه كثيرا موثُ صديقه، وأجاز جمع الاستعمال المرفوض بالاستناد إلى قاعدة التضمين⁴⁶، ودلّ القرآن على هذا، في مثل قوله تعالى: "ولقد نصركم الله ببدر"⁴⁷؛ أي في بدر، وقوله تعالى: "إنّ أول بيتٍ وضع للناس للذي ببكة"⁴⁸؛ أي في بكة.

- "أخلّ في عمله"، مرفوضة عند جماعة؛ لاستعمال حرف الجر "في" بدلا من حرف الجر "الباء"، الفصحى: أخلّ بعمله وتمّ تصحيح الاستعمال المرفوض بالاحتجاج بالتضمين⁴⁹.

- "لا أبالي له" ، مرفوضة عند بعضهم ؛ لأنّ الفعل "بالي" لا يتعدّى باللام ، وإثما بنفسه "لا أباليه" ، أو بحرف الباء نحو: "لا أبالي به" ، وقد صحّح أحمد مختار الاستعمال المرفوض استنادا إلى إجازة اللغويين نيابة حروف الجر بعضها عن بعض⁵⁰ ، وهذا ما أقرّه مجمع اللغة العربية بالقاهرة من قبل .

- "أحال الأمر إلى فلان" ، مرفوضة عند بعضهم ؛ لأنّ الفعل "أحال" لا يتعدّى بـ "إلى" ، وإثما بـ "على" ، الفصيح: أحال الأمر على فلان ، وصحح جماعة الاستعمال المرفوض بإجازة نيابة الحروف بعضها عن بعض⁵¹ .

- تصحيح الاستعمال بتضمين الفعل:

- "آمل في النجاح" ، مرفوضة عند بعضهم لتعدية الفعل بحرف الجر "في" ، وهو يتعدّى بنفسه الفصيح: آمل النجاح ويمكن تصحيح الاستعمال المرفوض بتضمين "آمل" معنى الفعل "أطمع" أو "أرغب" فيتعدّى مثلهما بحرف الجرّ "في"⁵² .

- "حرق الخشب فأحاله رمادا" ، مرفوضة عند البعض ؛ لتعدّي الفعل إلى المفعول الثاني بنفسه ، وهو يتعدّى بحرف الجر الفصيح: حرق الخشب فأحاله إلى رماد وصحّح الاستعمال المرفوض بتضمين الفعل "أحال" معنى الفعل "صير" فيكون متعدّيا إلى مفعولين بنفسه⁵³ .

- "أخلف صديقي بوعده" ، مرفوضة عند بعضهم ؛ لتعدّي الفعل "أخلف" بحرف الجرّ "الباء" ، وهو متعد بنفسه الفصيح: أخلف صديقي وعده ، أخلفني صديقي الوعد ، ودليل الأوّل من القرآن: "فأخلفتم موعدي"⁵⁴ ، ودليل الثاني: "أخلفوا الله ما وعده"⁵⁵ ويمكن تصحيح الاستعمال المرفوض بتضمين "أخلف" معنى "لم يبر" ، فيُعدّى بالباء⁵⁶ .

- "شئوا حربا أدّت بهم إلى الهلاك" ، مرفوضة عند البعض ؛ لأنّ الفعل قد تعدّى إلى كلّ من المفعولين بحرف جر والمعروف تعدية الفعل "أدّى" إلى مفعول واحد بنفسه وإلى ثان بحرف الجر ، الفصيح: شئوا حربا أدّت الهلاك إليهم ، وصحّح بعضهم العبارة المرفوضة بتضمين الفعل "أدّى" معنى "أفضى"⁵⁷ .

- "أبى عن ذلك" ، رفضها بعضهم ؛ لتعدية الفعل بـ "عن" ، وهو يتعدّى بنفسه الفصيح: أبى ذلك قال تعالى: "ويأبى الله إلا أن يُنمّ نوره"⁵⁸ ، وصحّحها بعضهم على أساس تضمين الفعل "أبى" معنى الفعل "ترقّع" أو "امتنع" اللذين يتعديان بحرف الجر "عن"⁵⁹ .

- 1 Arsène Darmester ,la vie des mots ,paris ,delagrave.1932.pp 3-27.
- 2 ينظر: حسن ظاظا، اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة، دار القلم دمشق- الدار الشامية بيروت، ط2 ، 1990، ص95-96.
- 3 ينظر: المرجع السابق، ص96.
- 4 ينظر: المرجع السابق، ص96.
- 5 ينظر: محمد تقي الدين الهلالي، تقويم اللسانيين، مكتبة المعارف، ط2، 1984، الرباط، ص140.
- 6 ينظر: المرجع نفسه، ص141.
- 7 ينظر: حسن ظاظا، اللسان والإنسان، ص109.
- 8 ينظر: إبراهيم السامرائي، النحو العربي في مواجهة العصر، دار الجيل، ط1، 1995، بيروت، ص112.
- 9 سورة يوسف، الآية: 32.
- 10 ابن هشام، مغني اللبيب، ط دار الكتاب العربي، ص372.
- 11 المصدر نفسه، ص371.
- 12 جرير، الديوان، شرح مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ص226.
- 13 أبو الطيب المتنبي، الديوان، شرح أبي البقاء العكبري، ضبط نصه كمال طالب، دار الكتب العلمية، ط1 1997، بيروت، ص382/3.
- 14 إبراهيم السامرائي، النحو العربي في مواجهة العصر، ص113.
- 15 ينظر: إبراهيم السامرائي، النحو العربي في مواجهة العصر، ص116-172.
- 16 سورة مريم، الآية: 69.
- 17 ابن هشام، مغني اللبيب، ص78-409.
- 18 سيبويه، الكتاب، 3/113.
- 19 السيوطي، همع الهوامع، 1/112.
- 20 الخطيئة، الديوان، ص397.
- 21 ابن جني، الخصائص تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، 7/2-8.
- 22 ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، لبنان، ص603.
- 23 التهانوي محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون، تح: علي دحروج، مكتبة لبنان، ط1، سنة 1996، لبنان، 1/469.
- 24 سورة النساء، الآية: 02.
- 25 سورة القصص، الآية: 15.
- 26 ابن عقييل، شرحه على الألفية، دار التراث، ط20، يوليو 1980، القاهرة، 3/23.
- 27 المصدر نفسه، 3/25.
- 28 الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، 3/338.
- 29 سورة الأعراف، الآية: 105.

- 30 الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، دار الطلائع، ط2005، القاهرة، 47./2.
- 31 ينظر نور الهدى لوشن، حروف الجر في العربية بين المصطلح والوظيفة، المكتب الجامعي الحديث، ط2006، ص94.
- 32 سورة طه، الآية: 71.
- 33 ينظر ابن هشام، مغني اللبيب، تح: بركات يوسف هبّود، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1، 1999، لبنان، 266/1-267.
- 34 ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، تح: صاحب أبو جناح، دار الكتب للطباعة، ط1980، العراق، 511./1.
- 35 ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، علّق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، 2002، بيروت، ص298.
- 36 ابن قتيبة، أدب الكاتب، شرحه علي فاعور، دار الكتب العلمية، ط3، 2003، بيروت، ص329.
- 37 الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تح: املين نسيب، دار الجيل، ط1، 1998، بيروت، ص428.
- 38 ابن السراج، الأصول في النحو، تح: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2009، القاهرة، 369./1.
- 39 البطلوسي، الاقتضاب، دار الجيل، بيروت، 338/1-339.
- 40 نور الهدى لوشن، حروف الجر في العربية بين المصطلح والوظيفة، ص97.
- 41 ينظر المرجع نفسه، ص95.
- 42 أحمد مختار عمر، العربية الصحيحة، عالم الكتب، ط2، سنة1998، ص165.
- 43 أحمد بن محمد بن علي الفيومي، قاموس اللغة-المصباح المنير، طبعة نوبليس، القاهرة، 4./505.
- 44 أحمد مختار عمر، معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي، ص1.
- 45 ينظر المرجع نفسه، ص11.
- 46 ينظر المرجع نفسه، ص9.
- 47 سورة آل عمران، الآية: 123.
- 48 سورة آل عمران، الآية: 96.
- 49 ينظر المرجع نفسه، ص11.
- 50 أحمد مختار عمر، معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي، ص4.
- 51 ينظر المرجع نفسه، ص16.
- 52 المرجع نفسه، ص3.
- 53 ينظر المرجع نفسه، ص16.
- 54 سورة طه، الآية: 86.
- 55 سورة التوبة، الآية: 77.
- 56 ينظر المرجع نفسه، ص25.
- 57 ينظر المرجع نفسه، ص27. 58 سورة التوبة، الآية: 32. 59 ينظر المرجع نفسه، ص7.

التمركز الجغرافي للقبائل النوميديّة من حدود قرطاجة حتى نهر الملوية

أ/ بعبطيش عبد الحميد

/ جامعة باتنة

الملخص:

كانت الممالك في بلاد المغرب القديم عبارة عن اتحاد قبلي أو كونفدرالي باعتباره أول صورة للنظام الاجتماعي الدائم، فقد سجل هيرودوتس في تاريخه عددا كبيرا من القبائل الليبية القديمة وأشار إلى تقاليدها وأعرافها، وقدم لنا جوانب هامة من الواقع الحياة الاجتماعية. يكون بلاد المغرب القديم قد وصل إلى هذا الشكل من التنظيم على امتداد مراحل تاريخية طويلة، وذلك نتيجة لتراكمات اجتماعية في السلم والحرب، وتلك التراكمات من الوقائع التي ستعزز روح التضامن بين أفراد القبائل لتشكيل التحالف القبلي وقوة سياسية انبثقت منها الدولة في شكلها الملكي.

Résumé:

L'augmentation des populations avec leurs besoins de vivre dans les petites tribus, exige une sorte d'alliance avec d'autres plus grandes, afin de se protéger, ensuite l'intégration de ces tribus grâce aux relations d'intermariage conduit a une évolution prestigieuse et économique cela promettait la construction des pays.

Dans cette étude, on va traiter les différents facteurs de formation des unités politiques dans l'ancien Maghreb, tout en prenant comme exemple la Numidie, qui apparaît au Nord de l'Afrique pendant le 3^{ème} Siècle avant J.C.

الكلمات الدالة: - النوميدي - الماصيل - المازصيل - المغرب القديم - بربر

- تمهيد:

تجتمع آراء أغلب المفكرين والباحثين، على أنّ الوحدات السياسية تطورت بالشكل التالي: الفرد، الأسرة فالقبيلة، ونظرا لزيادة عدد أفراد القبائل وزيادة حاجياتها المعيشية، اضطرت هذه القبائل للتحالف مع قبائل أخرى أكبر وأقوى منها من أجل حماية نفسها، وعليها قامت الأحلاف، وتقاربت القبائل وتصاهرت فيما بينها، وأدى اندماجها هذا إلى ازدياد هيبتها وتضاعف قوتها الاقتصادية، مما دفع بها لأن تحمي أرضها وخيراتها فنشأة الدولة.

وستتناول بموجب هذه الدراسة، أشهر القبائل النوميديّة التي سكنت بلاد المغرب القديم، واستطاعت أن تكون لنفسها كيانا سياسيا مكتمل الشروط في حدود القرن الثالث قبل الميلاد وأوائل القرن الثاني قبل الميلاد.

- مشكلة الدراسة:

هناك دلائل كثيرة تشير إلى وجود شكل من أشكال التنظيم السياسي في بلاد المغرب القديم، حيث أشار هيرودوت إلى أن المجموعات السكانية التي تقيم على امتداد الشمال الإفريقي تنتمي إلى أرومة واحدة، وهي موزعة على مجموعات من القبائل عدا الأجزاء التي أقام بها المستوطنون الإغريق والفينيقيين، وقد تصل هذه المجموعات البشرية التي ذكرها هيرودوت إلى مرتبة ممالك أو إمارات، وبذلك يمكن أن نسمي حكامها ملوكا أو أمراء، وقد أشار شارل أندري جوليان إلى وجود شكل من أشكال الدولة في بلاد المغرب القديم حيث قال، أن القبائل النوميديّة تكوّنت على شكل اتحادات قبائل قبل أن تتشكل الدولة.

ولهذا فإن دراسة التكتلات والتجمعات القبلية في الجزائر القديمة مسألة يصعب أن نتبعها بدرجة ملحوظة لأسباب عديدة، فالأبحاث الأثرية والأثرية وغيرها التي أنشأت عن شعوب شمال إفريقيا قليلة جدا، أما التي أنجزها الأجانب فهي لا تخلو من النزعة الاستعمارية، وهي غير سليمة إذا ما تمعّن فيها الباحث بدقة وموضوعية عن هذه الفترة، وبالرغم من هذا فإننا لازلنا نعتمد عليها بالدرجة الأولى، كما أن المغاربة المعاصرون لم يولّوا اهتماما كبيرا للحقبة التي نناقش أخبارها، حيث رأوا المستعمرين يمجّدون روما فأنحازوا تلقائيا إلى جانب قرطاجة، معتبرين أن الشمال الإفريقي منطقة يتحاذبها باستمرار الشرق والغرب عبر التاريخ.

- هدف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف المعرفية الأساسية التالية:

- 1- تحديد التمرکز الجغرافي لأشهر القبائل في بلاد المغرب القديم - من حدود قرطاجة حتى نهر الملوية.
 - 2- إبراز طبيعة التكتلات القبلية في بلاد المغرب القديم والضوابط العرفية والقانونية التي كانوا يحتكمون بها.
 - 3- دراسة وتحليل ما ذكره المؤرخون الكلاسيكيون من معلومات ومعطيات تاريخية حول مجتمعات شمال إفريقيا.
- أهمية الدراسة:

لدينا أكثر من سبب للاعتقاد في أن نشوء الممالك المحلية بشمال إفريقيا القديم ارتبط ارتباطا وثيقا بالمجال الجغرافي والبيئة، فمن جهة نلاحظ أن القبائل الأمازيغية المعروفة تاريخيا بالنوميد والمور والجيتول بالإضافة أيضا إلى قرطاجة قد ارتبطت بالمجال المتوسطي.

فقد كان لأهمية الموقع الممتد بين حدود قرطاجة الغربية إلى نهر الملوية دور في المكانة السياسية والاقتصادية التي احتلتها الممالك الأمازيغية، فقد وفرت المنطقة مجالا مناسباً لتركز سكاني استقر فوق الأراضي الخصبة وحول مجاري الأنهار والأودية وبجانب البحيرات، وقد ساهم هذا التركيز في نشوء كيانات سياسية انتظمت على شكل مملكات استقلت عن بعضها البعض ورسمت الحدود السياسية فيما بينها وتصارعت أحيانا على امتلاك المجال.

- الأصول التاريخية والتّمرکز الجغرافي لقبائل التّوميّد:

القبيلة هي مجموعة أُسر متحدة بوشائج القرابة، وهي أول صورة للنظام الاجتماعي الدائم، ويكون الشّمال الإفريقي القديم قد وصل إلى هذا الشكل من التنظيم على امتداد مراحل تاريخية طويلة، ويكون ذلك نتيجة لتراكمات اجتماعية عزّزت التضامن بين أفراد القبيلة، فتكونت الأعراف التي تنظم الحياة الاجتماعية.¹ ويوضّح المفكّر والباحث عبد الله العروي أن مصطلح القبيلة يطلق على تنظيم الرحل الجمالة، أي نظام اجتماعي يلاءم وحده المحيط الصحراوي الصرف، كما يُطلق أيضا على سكان الجبال والسهول بهدف ضمان التوازن بين الأُسُر، ويعتبر بذلك أن القبيلة هي التنظيم الملائم لذلك.²

ليس لدينا من المصادر التاريخية الكافية، التي تثبت بالضبط دخول بلاد المغرب في التاريخ عن وجود كيان سياسي مكتمل الشروط قبل ظهور قرطاجة، ولكن هناك مصادر كتابية وأثرية وُردت فيها أسماء عدد من المجموعات القبلية في تعداد شعوب الشمال الإفريقي القديم ما قبل الاحتلال الروماني، وتدلُّ هذه الأسماء على مجموعة قبائل محكومة بروابط التقاليد والعادات، وأبرز هذه القبائل التّوميّد.

إن الدولة التّوميّدية قد تشكلت في صورتها التاريخية من قبائل الماصيل والمازصيل، وقد عُرف هذا الاتّحاد في المصادر التاريخية بالاتّحاد الكونفدرالي للتّوميّديين، ولم تكن لتلك القبيلتين حدود معلومة فيما بينها، بل كانت تتراوح بين المد والجزر، وقد اتخذت هذه القبائل مُدناً وقرى وأحاطوها بأسوار من حجارة ضخمة غير منحوتة إلا قليلا، وكانت مساكنهم داخل المدينة أو القرية في أول عهدهم مركّبة بكيفيّة وقتيّة ليسهل عليهم نقلها حيث ساروا، حيث يذكر ستيفان قزال (Gsell, st) أن هناك قبائل لم ترح أوطانها، وسكان الصحراء أبعد القبائل وأكثرهم انتقالا لجذب الأرض وقلّة العشب.³ وتجدر الإشارة إلى أن القبائل الرّحل كانت كثيرا ما تقوم بغارات على القرى والمدن القريبة من مضاربها وتقوم بسلب المحاصيل الزراعية، الأمر الذي دفع المستقرين إلى تحصين قراهم ومدنهم، وتخزين محاصيلهم الزراعية في قرى جماعية وقلاع وفي أماكن وعرة.⁴

لقد تباينت المصادر القديمة في حديثها عن مجال شمال إفريقيا خلال العصر القديم بين المصادر التي ركزت على قساوة المناخ وضعف التساقطات وسيادة الرمال والجفاف الرهيب،⁵ وبين المصادر التي أعجبت بخصوبة الأرض والبلاد.⁶

1- محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص 166.

2- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج1، المركز الثقافي العربي، ط 5، المغرب 1996، ص 100.

3 -Gsell (st), Histoire ancienne de l'Afrique du nord, T.V, Librairie Hachette, Paris 1927, p 68 .

4 -Gsell (st), H.A.A.N, T. V, p 255.

5-Strabon, Géographie de Strabon, trad nouvelle par. Amedée Tarieu. Librairie Hachette. Paris, 1867, II, 5, 33; Diodore de Sicile, Bibliothèque historique, XXIV, 10, 2, trad. Par A.F.Miot, Paris 1934. , III, 50.

6 -Polybe, Histoire, Trad. Roussel, coll., la pleide, 1970, XII, 1,2.

إن نمط السكن المستقر لا يتلاءم مع حياة الرعاة الذين تبدوا منازلهم متنقلة (Mapallia)¹ تتكون من مواد نباتية مثل البروق (Asphodele) والأسل (Jonc) والقصب والحشفة (Chaume) يمكن تركيبها وفكها بسهولة وبسرعة، أما المستقرون فكانوا يسكنون أكواخا من الحجارة والطين المجفف أو من أغصان الأشجار، وإلى جانب مساكن العامة البسيطة نجد القلاع والحصون التي يلجأ إليها الأهالي عند تعرضهم إلى هجمات الأعداء.

- قبائل النوميدي (Numidie):

عُرفت نوميديا في كتابات المؤرخين القدماء بأسماء عديدة ، اختلفت في تسميتها المصادر الإغريقية واللاتينية، ففي المصادر الإغريقية مثلا ، كان اسم نوميديا اسماً وصفياً يعني نمط حياة ينطبق على البدو والرحل ، ثم تطورت التسمية وأصبحت تدل على شعوب كانت تعيش في شمال إفريقيا.

على أنه يبدو أن في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد قد شهد نوع من الأنظمة السياسية المغربية المجاورة لقرطاجنة، بدليل ما ذكره المؤرخ ديودور الصقلي (90-21 ق.م) (Diodore de Sicile) ، من أن ملكاً نوميدياً يدعى أيليماس (Ailimace) حالف أغاتوكليس (Agathocles) الإغريقي الذي غزا السواحل القرطاجية عام 310 ق.م ، إلا أنه يصعب اعتماد هذه الإشارة كدليل عن وجود مملكة مغربية مكتملة الشروط ، ولكنها إشارة إلى النضج السياسي والوعي الوطني، من أجل الحد من توسعات القرطاجيين وطردهم من المنطقة.²

وقد بدأت النصوص القديمة تذكر النوميدي بهذا الاسم منذ القرن الثاني قبل الميلاد، كشعب وقوة سياسية تبسط سيادتها على منطقة واسعة، تمتد من حدود قرطاجنة شرقاً إلى وادي ملوية غرباً³ ، كما أننا نجد أن الجغرافي سترابون (58 ق.م- 24م) (Strabon) يذكرهم في عدة فقرات، غير أنه لا يفرق بين مصطلحي نوميدي (Numidi) ونوماداس (Nomadas)، ويعتقد أن التسمية نمطية ، وقدم لنا وصفاً لهذه المنطقة وسكانها على الشكل التالي:

"... إنها تحد من قرطاجنة إلى أعمدة هركل ، المنطقة على العموم ثرية وخصبة ولكنها مليئة بالحيوانات المتوحشة، مثلها في ذلك مثل بقية مناطق ليبو الداخلية، ويطلق اسم نوماداس (Numadas) على جزء من سكان المنطقة الذين كانوا قد استمدوا اسمهم من الحياة التي كانوا عليها، من صراعهم مع الحيوانات المتوحشة التي يستحيل معها الاهتمام بزراعة الأرض."⁴

1 -Pline L'ancien, histoire natutelle, trad. J,Beaujeu, édit., les belles lettres. Paris, 1950, v,22.

2- محمد البشير شنيقي، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة. 146 ق.م-40م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، الجزائر، 1985، ص 18.

3- محمد الصغير غانم، المملكة النوميديّة والحضارة البونية، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1998، ص 53.

4 -Strabon, Géographie, II, 5, 33.

ويضيف نفس المؤرخ في نص آخر متحاملا على النوميديين: "إن النوميديين كانوا يفضلون السطو واللصوصية دون توقف، ويتزكون الأرض للزواحف والحيوانات المفترسة".¹

كما أورد سالوستيوس (86-35 ق.م) (Sallustius) نصا حول وجود صنف أجنبي وهم الميديين (Medi) والفرس (Persae) والأرمن (Armenii) تفرقوا بعد وفاة زعيمهم هرقل في إسبانيا وعبروا إفريقيا بزوارقهم وامتزجوا بالجيوتول ولذلك سمو أنفسهم نوماداس (Nomadas).²

كما أورد بعض الشعراء اللاتين الاسم الإغريقي (Nomade) ونذكر في ذلك فيرجيل (19-70 ق.م) (Virgilius) في مؤلفه الإنيادة (L'Eneide) التي تناول فيها أسطورة تأسيس مدينة قرطاجنة من طرف الملكة الفينيقية عليسا ديدون، وتعاملها مع السكان الأصليين - النوميديين.³

أما بوليبيوس (203-120 ق.م) (Polybius) الإغريقي، فقد استعمل كلمة نوميديا (Nomidia) على كيان سياسي وعلى شعب معين،⁴ والظاهر أنه استقى هذا المفهوم من الوثائق الرومانية الرسمية، أين ظهر فيها مدلول نوميديا ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد أثناء الحروب البونية.

لا جرم أن حياة النوميديين كانت شبيهة بحياة بقية الأمم والشعوب في المسكن والملبس والمكسب، ولكنهم ترقوا وفق طبيعة النشوء والارتقاء، وتأثروا بمجاورة الإغريق ثم بمعايشة الفينيقيين ثم فيما بعد بالرومان.⁵

فلا نستطيع أن نتخيل الكيان السياسي فيما يخص المملكة النوميديية في بداياتها الأولى، إلا في شكل تتقاسمه الصراعات بين تكتلات قبلية، وكانت أشهر هذه التكتلات قبائل المازسيل والماسيل، حيث كانت قبائل المازسيل تتوضع في الغرب الجزائري الحالي، أما قبائل الماسيل فكانت مضاربا تشمل الشرق الجزائري وشمال تونس فيما عدا أراضي الدولة القرطاجية.⁶ وكان النظام السائد فيها هو النظام الملكي الوراثي الذي انتقل عبر مرحلتين:

المرحلة الأولى تمتد من القرن الثالث قبل الميلاد إلى غاية وفاة ماسينيسا، وكانت فيه المملكيية في يد العائلة الواحدة، منتمية إلى جد مشترك، بحيث ينتقل الملك إلى الشخص الأكبر سناً في العائلة،⁷ وقد قدم لنا المؤرخ اللاتيني تيتوس ليفيوس صورة واضحة عن نظام الحكم في نوميديا، فبعد وفاة الملك غايا (Gaia) حوالي سنة 206 ق.م لم يخلفه ابنه ماسينيسا لصغر سنه (كان حوالي 32 سنة) فانتقل العرش إلى عم ماسينيسا إيزالسيس (Aezalces) وبعد وفاة هذا الأخير خلفه ابنه كابوسا (Capussa) الأكبر سناً من ماسينيسا، وبعد وفاة

1 -Ibid, XVII, 3, 15.

2- غايوس كريسيوس سالوستيوس، حرب يوغرطة، تر، العربي عقون، دار الهدى، الجزائر، 2006، الفقرة 17.

3 -Virgile, L'Eneide, Trad. Maurice Rat, éd- garnier frères. Paris, 1965, XII, 26, 6.

4 -Polybe, Histoire, III, 23, 2.

5- محمد بن المبارك الملي، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 110.

6- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 50.

7- محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم (السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992، ص 104.

كابوسا كان من المفروض أن ينتقل العرش مباشرة إلى ماسينيسا، لكن مازيتول (Mazaetullus) وهو أحد الضباط الكبار تدخل ونصب لاکومازيس (Lacumazes) (أخ كابوسا) ملكاً، مما دفع بماسينيسا لاسترجاع عرشه المشروع بالقوة.¹

أما المرحلة الثانية فهي التي تلي وفاة ماسينيسا سنة 148 ق.م، حيث تغير أسلوب نظام الحكم، بحيث نجد أن حكم المملكة تقاسمه أبناء ماسينيسا، إذ أسندت السلطة الإدارية إلى ماسيسيسا (Macipssa)، والسلطة العسكرية إلى غولوسا (Gulussa)، والسلطة القضائية إلى مستنبل (Mastanbal).²

وحتى تكون دراستنا أشمل عن هذه الدولة النوميديّة التي تم توحيدها فيما بعد فإننا سنجزئها إلى شطريها الغربي والشرقي، أي نتناول قبائل المازصيل و الماصيل كل على حدة، ثم نبرز دور الملك ماسينيسا في توحيد هذه القبائل وإرساء أسس وقواعد الدولة من مختلف نظمها الإدارية، العسكرية والاقتصادية.

- مملكة نوميديا الغربية أو (المازصيل Masaesyle):

تعود أولى الأخبار التي وصلتنا عن مملكة المازصيل إلى حوالي 213 ق.م حيث، يذكر بوليبيوس بأن القرطاجيين كانت تربطهم صداقة متينة مع ملكهم سيفاكس (Syphax)، وأن المازصيليين كانوا يكوّنون جزءاً كبيراً من الجيش القرطاجي في إسبانيا وبلاد المغرب القديم.³

ووفقاً لما يذكره المؤرخ والباحث الفرنسي كامبس (G. Camps) عن هذه القبائل، أنها كانت من حيث الامتداد الجغرافي تتوضع في المنطقة الممتدة ما بين قبائل الماصيل شرقاً والقبائل المورية غرباً، بحيث تغطي مساحتها كامل الوسط الجزائري، وتبقى حدودها الشرقية والغربية غير واضحة.⁴

يذكر كل من سترابون وتيتوس ليفيوس (59 ق.م-17 م) (Titus Livius) أن أراضي هذه المملكة كانت تمتد من على رقعة واسعة من ملوشة (وادي ملوية حالياً) غرباً إلى راس تريتون شرقاً،⁵ والذي يتوافق مع رأس بوقرعون في القل، واغلب الظن أن اتساع حدود هذه المملكة جاء نتيجة الغزوات التي شنّها سيفاكس في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد على أراضي الماصيل.

وتجدر الإشارة إلى أن شخصية الملك سيفاكس الذي حكم نوميديا الغربية، أنه كان يتصف بالرزانة وتغليب العقل على العاطفة في كثير من الأحيان، وقد ورد اسمه في النصوص القديمة عند كل من تيتوس ليفيوس

1 -Tite-Live, Histoire romine, traduit par Verger, éd. Panckoucke, Paris 1930 XXXIX, 29, 6-11.

2- محمد الهادي حارش، المرجع السابق، ص 105.

3 -Polybe, III, 33,15.

4 -Camps (G),Aux origines de la Berberie, Massinissa ou les débuts de L'histoire, ed. Imp. Officielle, Alger, 1961, p 179.

5 -Strabon, II, 5, 33; XVII, 3, 6.

وبوليبيوس¹، كما سعى هذا الملك إلى تقليد المؤسسات الدستورية القرطاجية لتطبيقه في مملكته، إضافة إلى إضفاء الطابع الهلينيستي من حيث المظهر على أمور الحياة اليومية.²

كما قام الملك صيفاكس بتطبيق نظام اللامركزية من حيث التنظيم الإداري في مملكته بعد توحيد النوميديتين وطرده ماسينيسا لفترة زمنية، حيث جعل العاصمة سيقا وسيرتا تسيران من قبل موظفين ساميين محليين يعينهم الملك، بالإضافة إلى مجالس شبه قبلية ورجال دين، ثم جباة ضرائب وضباط في الجيش ويشترط فيهم أن يكونوا موالين للملك.³

- مملكة نوميديا الشرقية (أو الماصيل (Massyle):

كانت أولى الأخبار التي وصلتنا عن هذه المملكة هو ما نقله إينا المؤرخ الإغريقي ديودور الصقلي، وذلك عندما غزا ملك سيراكوزة أجاثوكليس (Agathocles) لبلاد المغرب القديم ومحاولته تدمير قرطاج، كان قد تحالف في بداية الأمر مع ملك لوبي يدعى إيليماس (Ailymas) الذي كانت عاصمته دوقة.⁴

ومن هنا نجد أن من بين المؤرخين المحدثين وعلى رأسهم قزال وكامبس يميلون إلى الفرضية التي مفادها أن إيليماس يكون من بين أقدم الملوك الذين عرفتهم نوميديا الشرقية.

ويفهم أيضا من بعض النصوص التي أوردها بوليبيوس، بأن أحد أجداد الملك ماسينيسا (Massinissa) كان أول من اعتلى عرش نوميديا الشرقية، ويقدم بذلك صورة عن العائلة الحاكمة في نوميديا، وقد خص بذكر: غايا، زيلالسان و أيليماس.⁵

أما فيما يخص الامتداد الجغرافي لمملكة الماصيل، فإنه يصعب تحديد أراضيها هي الأخرى، ذلك أن الإشارة إليها في الكتابات القديمة قليلة، كما أن النقوش والعملية لم تتناول المجال الجغرافي الذي كانت تتردد عليه تلك القبائل، كما أن أول ذكر لهذه المملكة لا يتجاوز نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد.⁶

غير أنه يبدو أن بلاد الماصيل كانت تشمل شمال شرقي الجزائر وشمال تونس باستثناء أملاك الدولة القرطاجية، وأن الحدود الأولى بالنسبة إليهم لم تضبط أو تصبح مراقبة، إلا بعد تكوين النواة الأولى للدولة النوميديا (الماسيلية) التي مرت بالدور القبلي ثم انتقلت بعد ذلك إلى التنظيم السياسي في شكله الملكي.⁷

1 - Tite-Live, XXXVIII, 18, 7 ; Polybe, XI, 24.

2 - GSELL, (St), H A A N, T.IV, ed. Hachette, (Paris 1913-1928), p 186.

3 - Tite-Live, XXVIII, 17.

4 - Diodore de Sicile, XX, 17, 1.

5 - Camps, (G), Op cit, p 159.

6 - Diodore de Sicile, XX 58.

7 - Decret(F), Fantar(M), Histoire d'Afrique du nord dans l'antiquité des origines aux 5^{eme} S. apr J.C, éd. Payot, (Paris 1981), p 99.

كما نجد المؤرخ الطبيعي بلينيوس الأكبر (23-79 م) (Pline l'ancien) ، ينزل القبائل الماصيلية داخل منطقة سيرتا وإفريقيا ، وذلك فيما بين نهر لمساقا (Lamsaga) أو الوادي الكبير غربا وخليج السّرت شرقا، ثم يشير بأن القبائل الماصيلية تلك كانت تستقر فيما بين قبائل السّبربر (Les Sabarbare).
- دور ماسينييسا في توحيد القبائل النوميدية وتكريس نظام الدولة:

لقد انقسم النوميديون فيما بينهم منذ الوهلة الأولى للدخول الروماني إلى شمال إفريقيا، فقد ناصر البعض منهم الرومان وكانوا يرون بأن الحكم لا يستقر في المنطقة إلا بالموالاة لهم ومخاطبة ودهم ، بينما على العكس من ذلك يرى الفريق الثاني بأن نظام الحكم يجب أن يكون بيد النوميديين ولا بد من المحافظة عليه، فقد احتفظ لنا التاريخ بعض ما سجله عن هاتين المملكتين، خاصة فيما يتعلق بالصّراع الذي نشب بين (الإخوة الأعداء) الذي كان من ورائه الصّراع الروماني القرطاجي، حيث ترجع هذه الخلافات السياسية بين النوميديين والتي نشبت بين خلفاء غايا (Gaia) على التدخلات القرطاجية والرومانية خدمة لأهدافهم في المنطقة، ومهما كان من هذه الأحداث، فإن ماسينييسا كان يسعى بالدرجة الأولى لاسترجاع عرشه المسلوب، واستطاع بالتعاون مع الرومان على تدمير قرطاجة والقضاء على سيفاكس (Syphax) في معركة سيرتا (Cirta) عام 203 ق.م ، واعتراف روما بماسينييسا ملكا على نوميديا، ويذكر المؤرخ الروماني تيتوس ليفيوس، بأن قائد الجيوش الرومانية سيبون (Scipio) كان قد أسند مسؤولية مدينة سيرتا وبقية المدن النوميدية الأخرى القديمة منها والتي كان يشرف عليها قبل ذلك سيفاكس إلى ماسينييسا.¹

وبعد هزيمة قرطاجة في معركة زاما (Zama) الشهيرة عام 202 ق.م جاءت معاهدة عام 201 ق.م لتثبت حق ماسينييسا لوراثة العرش النوميدي، وقد كان من شأن اعتراف الرومان بماسينييسا ملكاً على نوميديا، أن أصبح سيد كامل نوميديا الموحدة من واد الملوية غربا إلى السّرت الكبير شرقا.² حيث ذكر بوليبي الذي عاصر تلك الاحداث وراى بعينه تدمير قرطاجة (... وذلك ان مسينييسا كما سبق ان ذكرت ... ذهب بقواته مصطحبا معه عشرة فصائل رومانية من الفرسان والمشاة وكان ذلك لا ليسترد مملكته فحسب بل ليتمكن بمعونة الرومان من ضم مملكة سيفاك ساليه الامر الذي وفق فيه...)³.

وفي هذا السياق أورد ليفيوس فقرة من خطبه نسبها إلى أومينيوس (Euméne) أحد أعضاء السيناتو قالها عام 189 ق.م جاء فيها: " إن ماسينييسا قبل أن يكون حليفا لكم كان عدوكم ، إنه عندما التجأ إلى معسكركم لم يصحب معه بشيء تابع لمملكة قائمة ، ولكنه أقبل عليكم كرجل حكم عليه بالنفي والإبعاد ... فلم يكفكم أنه انتصب على مملكة أبائه ، ولكنه أضاف إلى هذه المملكة القسم الأكثر غنى من مملكة سيفاكس،

1 - محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 118.

2 - Tite-Live, XXXI, XI.

3- Polybe, XV, 4.

لقد جعلتم منه الملك الأكثر قوة بين ملوك إفريقيا".¹ وبذلك تمكن ماسينيسا من توحيد القبائل البربرية من نوميديا، ووضع بذلك أسس الدولة النوميديّة الموحدة، ومنه عيّنت عاصمة لحكمه وهي سيرتا، وأصدر عملة وقام ببناء مجموعة من المرافق في المدن ذات الصبغة الدينية والإدارية.²

ومن جهة أخرى فإن المؤكد أن ماسينيسا قابلته معارضة شديدة قام بها بعض زعماء القبائل الأقوياء شرقا وغربا، فأما في ناحية الشرق فقد قاومه الزعيم أفقير (Aphter) الذي يظهر من سياق حديث بوليبيوس أنه كان ذا نفوذ قوي بناحية سدرّة الصغرى (خليج قابس) ويصفه بأنه كان ثائرا وأن ماسينيسا حشد جيوشه وقصده بها،³ وكذلك الأمر بالنسبة لزعيم آخر يظهر أنه كان على رأس إحدى القبائل النوميديّة الغربية، فيذكر بوليبيوس أن اسمه تيخايوس (Tychaïos) وأنه كان قريبا لسيفاكس، وكان له أحسن الفرسان وقد ناصر القرطاجيين ومعه ألفان من الفرسان.⁴

- توزيع القبائل النوميديّة:

تركّزت التجمعات النوميديّة على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط، وأغلبيتها كانت مستوطنات فينيقية قرطاجية، بما مصارف تجارية وتحتكرتها جاليات بونّية وتربطها علاقات اقتصادية مع القرى النوميديّة الأخرى،⁵ وأحيانا ما يقعون في صراعات، حيث أشارت المصادر في هذا السياق إلى أن الملك ماسينيسا قام باسترجاع من قرطاجنة سنة (150 ق.م) خمسون (50) ما بين قرية ومدينة في منطقة الكروميري، لأنها كانت أهلة بالعنصر النوميدي.⁶

وكثيرا ما ذكرت المصادر أن النازحين من روما أثناء الاحتلال الروماني كانوا قليلين، وأن النوميدي كانوا يشكّلون الأغلبية الساحقة من سكان المدن وأعضاء الجيش، ثم يشار إلى دور الأفارقة المتميز في السياسة والإدارة والثقافة كدليل قاطع على تقدّم حركة الإدماج الثقافي، وتذكر الدراسات الأثرية الحديثة أن إفريقيا الشمالية كانت تحتضن أثناء الاحتلال الروماني 500 مدينة، وكان معظمها يعود إلى ما قبل التواجد الروماني.⁷

كما تمتعت بعض المدن النوميديّة باستقلال ذاتي اقتصادي وإداري لتسيير شؤونها مكنها من إصدار عملتها الخاصة وانتخاب مجالس البلدية، والحال أن الوضع القانوني للمدن النوميديّة التي استحوذ عليها التجار القرطاجيون ظل محل نقاش بين الباحثين، ومن هذه الجهة يقول محمد العربي عقون أن الفينيقيين والقرطاجيين من

1 -Ibid, XXXVII, 59, 22.

2 -Flatters (p), " L'Afrique septentrionale", Revue Africaine, Vol. 21, 1877, pp, 358-360.

3 -Polybe , XXXI, 21.

4 -Ibid , XV, 3.

5- محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 40.

6 -Tite-Live, XLII, 23.

7- عبد الله العروي، المرجع السابق، ص ص 76، 77.

بعدهم ليس لهم إلا الاحتكار التجاري، ولا يملكون السيادة الإدارية، فالسيادة كانت للشعب النوميدي وللملوك ولأعيان القبائل.¹

وقد كانت حركة القبائل أداة للدمج الاجتماعي منذ البدايات الأولى لتكون مجتمع الشمال الإفريقي ، فكان للنوميدي والجيتول والمور وغيرهم من القبائل الصغرى امتدادات في مختلف جهات الشمال الإفريقي القديم، وكانت الحدود بين هذه القبائل حدود سياسية ولم تكن حدودا ثقافية أو اجتماعية أو دينية وكانت أشهر هذه القبائل:

- المور (Mauri):

استعمل الجغرافيون الإغريق هذا الاسم للدلالة على سكان أقصى الشمال الإفريقي غربا ما بين وادي ملوشة (ملوية) والمحيط الأطلسي وقد أخذه عنهم الرومان واستعملوه للدلالة على مملكة بوكوس وأبنائه.²

- البوار (Bavares):

أو البابار في بعض النصوص وصفتهم النصوص القديمة بالشعب الكبير (Gentis) (multus) ، وظهر هؤلاء البوار على مسرح الأحداث خلال القرن الرابع الميلادي وينقسمون إلى البوار الغربيين (ناحية ميسيردا شمالي تلمسان) والبوار الشرقيين في منطقة البابور إلى مشارف كويكول وميلة (القبائل الشرقية) وفيهم الجبليون المستقرون والبدو الرحل.³

- الجيتول (Gaetuli):

ظهر اسم الجيتول منذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد للدلالة على مجموعة قبيلة كبيرة ولكنها لا تمثل عرقا مميزا، فالجيتول نوميدي في منطقة الصحراء الشرقية ومور في الجنوب الوهراني يعيشون حياة التنقل والترحال، ولعل حياة البداوة هي التي جعلتهم لا يقيمون دولة.⁴

- الموسولامي (Musulamae):

وكان مركزها الرئيسي بالأوراس، ثم امتدت حتى نهر المثل (Muthul) وتبسة، وقد اقترن اسمها بالمقاومة ضد التوسع الروماني في عهد الامبراطور تيبيريوس (Tiberius) نحو نوميديا الداخلية، وضد نزع الملكية بقيادة احد أبنائها وهو تاكفاريناس (Tacfarinass) ، ويمتد إقليمها في منطقة الأوراس من سوق أهراس إلى وراء النمامشة جنوبا، ولكن فقدت قسما هاما من أراضيها بعد حرب دامت أكثر من سبع سنوات 17 - 24 ميلادي.⁵

1- محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص ص 41، 42.

2- نفسه، ص 155.

3- نفسه، ص 155.

4- نفسه، ص 160.

5- نفسه، ص 177.

- قبائل السّبربر (Gens Sebarbar):

وحول قبائل السّبربر هذه يذكر بعض المؤرخين أنهم كانوا يستقرون في المنطقة الواقعة إلى الغرب من سيرتا والممتدة إلى سطيف، وتتوضّع قبائل النّسيف بدورها في المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي من سيرتا ، ووفقا لهذا المنظور فإن مملكة الماسيل كانت تتوزع على كامل المنطقة الممتدة حول مدينة سيرتا وإلى الشرق منه حتى مدينة لبدّة¹ (Leptis Magna).

قبائل الاسفودالوس (Asphodelos): كانت تحتل الركن الشمالي الشرقي من الجزائر وشمال غربي تونس.

قبائل النتابوتاس (Nattabutas): التي كانت تستقر بالشرق الجزائري في الحدود مع تونس.

قبائل السوبوربوراس (Suburbures) : في الجنوب الغربي من سيرتا وسهول سطيف.²

قبائل الهالياردي (Haliardi): تقطن بالقرب من سهول سطيف.

قبائل الكابريينساس (Caprarienses): في مرتفعات الحضنة، وقد أشارت إليها المصادر عام 348 ميلادي.

قبائل الاكوتامي (Ucutami) أو الاكوتاماني (Ucutumani): والتي أشار إليها نقشا يعود إلى العصر البيزنطي عثر عليه جنوب مدينة جيجل، وهم أجداد قبائل كوتوما التي أشار إليها ابن خلدون كذلك.

قبائل الماكورابي (Macurebi): أشار إليها بليبي بين نهر الاوسار (Usar) ونبار فلومان (Nabar Flumen).³

قبائل الاكمانساس (Icompenses): تقطن بمنطقة الوادي الأسفل لنهر الاوسر⁴

قبائل الماكوراي (Makkourae): وتقطن بالمنطقة المجاورة لجمال الوارسنيس⁵ Ouarsenis

قبائل الموكيني (Mukeni): وتقطن نواحي الشلف شرقا حتى تلمسان غربا.⁶

قبائل الماكواس (Gens Macues): ذكرهم نقش عثر عليه في شرشال كما ذكرهم بوليبيوس.⁷

- حلف القبائل الخمس (Quinguegentiani):

كما ذكرتها المصادر اللاتينية هي كونفدرالية قبائل متمركزة في المنطقة الجبلية ما بين دلس وبجاية وتتكون

من القبائل التالية:

1- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 54.

2- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 161.

3 -Pline l'ancien, His. Nat, V 21.

4-Cat (E), Essai sur la province romaine de Mauritanie Césarienne, Paris 1891, p74.

5 -Ptolomee, Geog, IV, 2, 5.

6- فتحة فرحاني، نومديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213 ق.م- 46 ق.م، مطبعة متيجة 2007، ص 210.

7 -Polybe, III, 33, 15.

- ماسينيسن (Masinissenses) وهي القبيلة مسينا او إمسينسن المتمركزة في الضفة اليمنى لوادي الساحل.

- تيندن (Tyndenses) الذين كانوا يتمركزون في إقليم قبيلة فناية الحالية (بني وغليس وآيت عامر).

- ايسفلن (Isaflenses) وهم فيلسة اليوم.

- نيوبلن (Jubaleni) وهم زاوة الحالية.

- ييسالن (Iesalenses) وكانوا متمركزين غربي زاوة.

تحول حلف القبائل الخمس والباوار إلى قوة ضاربة في المنطقة أثناء الاحتلال الروماني أسندت قيادتها إلى رئيس إحدى قبائل الحلف اسمه فاراكسن (Faraxen) الذي قام بالإعداد الحربي، فاكسحوا المقاطعة النوميدية مخترقين حوض وادي النجا الذي كان الاستعمار الروماني قد أقام فيه عددا هاما من المزارع الكبرى "اللاتيفونديا"، مما جعل الرومان يوجهون حملة من لومبازيس (Lombasis) مركز الجيش الاوغسطيني الثالث يقودها الليغاتوس ماكرينيوس دكيانوس (Macrinus Decianus)، وقد تمكن الثوار من الاستيلاء على غنائم كبيرة ثم انسحبوا إلى جبالهم.¹

- تنظيم القبيلة:

إن النظام القبلي في إفريقيا الشمالية قديم جدا، ففي النصوص اللاتينية والإغريقية إشارات إلى الجماعات القبلية القديمة في هذه المنطقة، ويكون الشمال الإفريقي قد وصل إلى هذا الشكل من التنظيم على امتداد مراحل تاريخيه طويلة نتيجة لتراكمات اجتماعية في السلم والتضامن بين أفراد القبيلة فتكونت الأعراف التي تنظم الحياة الاجتماعية بحيث تحولت القبيلة إلى قوة سياسية انبثقت منها الدولة في شكلها الملكي على يد كونفدراليات قبائل كبرى.²

كانت الحياة القروية أول شكل من أشكال التجمع السكاني حيث كان السكان يتمركزون في مواقع تجمع بين وفرة الماء والحصانة الطبيعية، وهي الشروط الأساسية لتخطيط القرى والمدن في عموم الشمال الإفريقي، وقد لاحظ بلينوس أن القرية في إفريقيا الشمالية لا تختلف عن مثيلاتها في باقي بلدان البحر المتوسط³، وهذه القرى هي التي أشارت إليها المصادر اللاتينية بعبارة كاستيله (Castella) (القلاع) وهي نواة أغلب مدن إفريقيا الرومانية مثل: تيفست، تالة، تاكاباس، تيجيس، تيبيليس، تيديس، الخ، وفي هذه المدن ظهرت أشكال التمدين الأمازيغي الأول وتطورت الحياة الحضرية بالاحتكاك بالقرطاجيين ثم الرومان، ووجدت في المدن الإفريقية جاليات تجارية بونية ورومانية خلال العهد النوميدي.

1- محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 155.

2- محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 166.

3- Pline L'ancien, His. Nat, V,I.

فكانت القبيلة تبدو فوق العائلات والجمهوريات القروية، والقبيلة الامازيغية رابطة دفاعية أو هجومية وكان اللاتينيون يشيرون إلى هذه القبائل بتعابير (nationes) و (populi) أو (gentes)، فهي مرتبطة بأرض واسعة كانت أو ضيقة وتجمع بالقوة الناس الذين لهم نفس أسلوب المعيشة، وفي هذا السياق يذكر تيتوس ليفيوس أن الملك سيفاكس قام بتعيين ولاية له في مملكته بعدما استولى على نوميديا الشرقية،¹ كما تحدث سالوستيوس (Sallustius) (86-35 ق.م) عن ولاية الملك يوغرطة الذين استقبلو ميتيلوس عند اجتياحه الأراضي النوميديّة.² مما يوحي بوجود حكام أقاليم يخضعون لأوامر السلطة المركزية، بل ذهب بعض المؤرخين أمثال ديكرت وفنتر إلى افتراض تقسيم المملكة النوميديّة إلى إمارات مستقلة، خاصة في المناطق الداخلية.³

وفي نظر قزال أن النوميدي لم يعرفوا تمدُّنا بل أنشأوا فقط قرى وبقوا ينتقلون بقطعانهم وخاصة الغنم والماعز والبقر والحياد، ويضيف أنه حتى لما تعرف النوميدي على الزراعة بقي نشاط الرعي مهيمنا على الحياة الاقتصادية⁴، ولكنن نستنتج من خلال المصادر الاختلافات بين الفلاحين المستقرين ومربي الماشية الرحل، فالأوائل يعيشون على خدمة الأرض والتجارة ويسكنون أكواخا من الحجارة والطين المجفف أو من أغصان الأشجار، إلى جانب مساكن العامة البسيطة نجد القلاع والحصون التي يلجأ إليها الأهالي عند تعرضهم إلى هجمات الأعداء، أما الرعاة فكانوا يعتمدون على منتجات حيواناتهم⁵ ويعيشون في مغارات ومنازل متنقلة من صنعمهم يطلق عليها اسم (Mapallia)، وتتكوّن من مواد نباتية مثل البروق (Asphodele) والأسل (Jonc) والقصب والحشفة (Chaume)، ويمكن تركيبها وفكّها بسهولة وبسرعة.

إضافة إلى ذلك فإن ما كشفت عنه الحفريات والنقوش الصخرية من أبنية وأسلحة وأثاث ولباس وطقوس، يشير إلى حياة مزارعين مستقرين أكثر مما يشير إلى حياة بدو رعاة، وعثر بالعكس ما ذكرته بعض المصادر الكتابية على أوان الأكل، وعلى مقابر كبيرة تدل على تجمعات سكانية ضخمة.⁶ وهذا ما أشار إليه بعض المؤرخين الكلاسيكيين إلى أن أغلبية النوميدي قد تجمعوا في قرى أشير إليها في المصادر الكلاسيكية باسم (Castellum).

كما نستخلص من بعض النقوش التي تطرقت إلى التنظيم البلدي، بأن المدن النوميديّة تأثرت إلى حد كبير بما كان مطبقا في المدن القرطاجية دون إهمال التقاليد النوميديّة والحكم القبلي (حكم الجماعة).⁷

1 -Tite-Live, XXX, 11,2; 12,22.

2- غايوس كريسيوس سالوستيوس المصدر السابق، VI, XL.

3- Decret(F), Fantar(M), op.cit, p86.

4 -Gsell,(St), H.A.A.N, T V, p 63.

5 -Ibid, T VI, p 7.

6- عبد الله العروي، المرجع السابق، ص 95.

7- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 144.

وكانت نقيشة دوقة قد أشارت إلى مجلس المواطنين (بعل دوقة)، أي سادة دوقة الذين شيدوا ضريحاً لتخليد الملك مسينيسا، ثم ذكرت بعد ذلك رئيس المائة وحكام الخمسين، ومما لا شك فيه أن مثل هذا التنظيم الإداري كان معمولاً به في باقي المدن النوميديّة.¹ كما أن هناك فقرات مهمة ذكرها المؤرخ تيتوس ليفيوس على أن أشفاطا (Suffètes) كانوا يديرون العديد من المدن النوميديّة، منها مدينة سيرتا وتيفست وذلك منذ القرن الثالث قبل الميلاد،² ويضيف أيضاً أن الملك كان يعين نواباً له في بعض المدن يطلق عليه اسم بريفيكتي (Praefecti)، وكانت وظيفة هؤلاء إلى جانب قيادة الجيش جباية الضرائب أيضاً.³

وكان على رأس البلدية رئيس يحمل اسم "إغليد" (Aguellid)، وهو نفس اللقب الذي يحمله ملك النوميديين، يُنتخب لمدة سنة واحدة، كما يمكن إعادة انتخابه.

كما أشار ديودور الصقلي (Diodore de Sicile) (90-21 ق.م) إلى وجود مجمع الشيوخ أو الكبراء (Presbyteroi) الذي كان يحكم مدينة تبسة، ولا يستبعد أن ينطبق ذلك على مجلس الأعيان، كانت تستقر فيها مجموعة قبلية كبيرة، وقد غزاها القائد العسكري القرطاجي حنون (Hannon) سنة 247 ق.م. وأخذ منها 3000 رهينة قادرة على حمل السلاح.⁴

فباحتكاك النوميديين بالمراكز التجارية والمدن القرطاجية كانوا قد اندمجوا في حياة الاستقرار والتمدن، وبالتالي عملوا شيئاً فشيئاً على نقل تلك اللّمسات الحضارية إلى داخل نوميديا، مما ترتب عنه تسارع عملية الاستقرار والتحضّر في مراكز وقرى داخلية، فقامت هي الأخرى ونمت حتى أصبحت حواضر كبرى للملوك النوميديين.⁵

- التغيّرات الاجتماعية التي طرأت على القبائل النوميديّة:

كانت نوميديا أثناء فترة الملوك النوميديين الأوائل ملتقى ثقافات متعددة ومتنوعة، وكان الملك ماسينيسا يدرك جيداً أهمية الانفتاح الثقافي، ومد جسور التعاون مع الدول المجاورة، لذلك عمل على تقوية الروابط الاجتماعية من خلال العادات والتقاليد التي تحولت تدريجياً إلى أعراف، ونشأت التقاليد والعادات من الاحتكاك اليومي بالبيئة الطبيعية والاجتماعية، وكانت الأعراف أحد الأركان الأساسية التي يتأسس عليها المجتمع، وتنشأ عنه النظم الاجتماعية، فالتشكيلة الاجتماعية للأسرة كانت أساس ظهور الدولة.⁶

1- نفسه، ص 159.

2 -Tite-Live, XXX, 12,8.

3 -Ibid, XXX, 11,2.

4 -Diodore de Sicile, XXIV,10,2.

5- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 143.

6- نفسه، ص 156.

ولا شك أن ماسينيسا قد اصطدم في هذه النقطة بطبيعة التنظيم الاجتماعي والاقتصادي الذي كان سائدا في نوميديا، وهو نظام ثنائي في الغالب، يتمثل في وجود الحياة الزراعية القائمة على الاستقرار إلى جانب الحياة الرعوية التي تتطلب التنقل المستمر، فيكمن دور ماسينيسا في تطوير الزراعة إلى ما يلي:

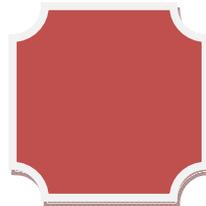
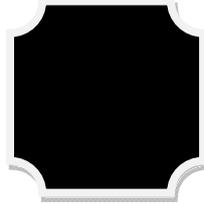
أولا: تعويد النوميديين على النظام نظرا لارتباط الإنتاج الزراعي بمواعيد معين من السنة.

ثانيا: تعويد سكان النوميديين على حياة الاستقرار، لأن الزراعة تفرض على من يعتني بها أن يستقر في انتظار المحصول، ومع طول الوقت يزداد التعلق بالأرض الذي يكون هو أولى مراحل التعلق بالوطن.

ثالثا: تحويل الفرد النوميدي من شخص يصعب اللحاق به جبائيا إلى مصدر منتظم من مصادر الخزينة.

- خلاصة:

هذا ومن خلال ما سبق نستنتج أن المجتمع النوميدي ظلت حياته كغيره من مجتمعات الشعوب الأخرى يعتني بتقاليده وعاداته وأعرافه وبنائه الاجتماعية لضمان الانسجام والاستقرار على المستوى الاجتماعي عموما، وكانت الجماعة هي الهيئة الاجتماعية والسياسية الأولى التي أفرزتها الأعراف ومنها انبثقت القيادة السياسية، وكانت النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في نوميديا تنمو تدريجيا لتشكّل كيانا سياسيا كبيرا، ولكن ما كادت تكتمل حتى حل الاستعمار الروماني لينهي هذه الزعامة ويحدث تأثيرا على كل الأصعدة.¹



¹ - محمد إبراهيم الميلي، الجزائر في ضوء التاريخ، مطبعة البعث، قسنطينة، 1980.

الحراك السياسي في ليبيا 1939-1945

د. المدني سعيد عمر المدني ، كلية الآداب - غريان

جامعة الجبل الغربي - ليبيا

المقدمة :

نحاول تسليط الضوء على الحراك السياسي في ليبيا خلال الفترة من 1939-1951 أي منذ قيام الحرب العالمية الثانية حتى استقلال ليبيا 1951، وسنعطي لمحة موجزة خلال هذه المقدمة من خلال الغزو الإيطالي المتمثلة في عقد المؤتمرات التي حاول فيه قادة حركة الجهاد الإصلاح فيما بين المجاهدين وخاصة المرحلة الأولى من حركة الجهاد ، حيث عقد مؤتمر العزيزية 1912 واختلاف وجهات النظر في استقلال البلاد والوقوف ضد الغزو الإيطالي ، منهم من رأى حمل السلاح في وجه العدو ، ومنهم من رأى العمل الدبلوماسي هو الحل ، وبعد ذلك شهدت البلاد العديد من المؤتمرات وخاصة المنطقة العربية حيث انعقد مؤتمر غريان 1920 الإصلاح ، بالإضافة إلى مؤتمر مسلاته المنعقد في جامع المجاورة للعمل على سد الفراغ السياسي الذي حدث وتمثل في إعلان الجمهورية الطرابلسية 1918 ، إلا أنه لم يكتب له النجاح ، وعقد الاتفاقيات في المنطقة الشرقية واتفاق الزويتينه وعكرمة ، وغيرها إلا أن هذا خارج نطاق فترة الدراسة، إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر 1939 وهذا ما نحاول التطرق له في سياقنا لهذا البحث، شهدت البلاد العديد من الأحزاب السياسية كانت أهدافها تصب نحو الوطن ، لم يكن لها أي فكر أيديولوجي أو عقائدي وإنما كان الوطن هو فكرها من أجل التحرير والاستقلال والوحدة ، كما كانت السيطرة على أفكار النوايا الحسنة ، عدم التقسيم أو التجزئة.

ظلت ليبيا بأقاليمها الثلاثة برقه . طرابلس . **فزان** ، جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية منذ أواسط القرن السادس عشر إلى أوائل القرن العشرين عندما **احتلت** إيطاليا ليبيا 1911 ، فدخلت منذ ذلك التاريخ مستعمرة إيطالية بعد التوقيع على معاهدة أوشي لوزان في 1912/11/18¹ التي تم فيها تنازل الدولة العثمانية عن ليبيا وانسحبت منها نهائياً حيث ظل الإيطاليون يحكمون ليبيا إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية في 3 سبتمبر 1939 وهي الحرب التي دخلت فيها إيطاليا إلى جانب ألمانيا في يونيو 1940. يونيو 1940 أي أقل من سنة من اندلاعها.¹

* الحلفاء : تكتل سياسي يضم كل من بريطانيا ، فرنسا ، الولايات المتحدة ، والوقوف في وجه المحور.

المحور: اصطلاح استحدثه موسوليني لأول مرة بمدينة ميلانو 1938/11/1 ، خليفة الأحول ، مجلة الوثائق التاريخية

يقصد بها كل من مصر والشام وتونس والجزائر أي البلدان المقيمين بها المرجع السابق

1 هيئة تحرير ليبيا هيئة تكشف من الحقائق فيما تزعمه ايطاليا من إصلاح في ليبيا ، القاهرة 1948 ص 4.
* هناك اختلاف في تحديد التاريخ منهم من يرى 1 سبتمبر ومنهم يذكر 3 سبتمبر 1939.

وأصبحت ليبيا ميداناً هاماً من ميادينها ، حتى ألحقت بايطاليا الهزيمة في أواخر 1942 في شمال أفريقيا ومن ثم انتهى الاحتلال الايطالي عام 1943 واحتلت القوات البريطانية برقة وطرابلس على حين زحفت القوات الفرنسية من بحيرة تشاد واحتلت فزان ، هذا تهيأت الظروف الدولية للمهاجرين الليبيين في مصر الأمر الذي مكنتهم من تنشيط العمل السياسي قبل الحرب العالمية الثانية هو انتشار الوعي القوي واليقظة العربية والحركات السياسية والتيارات الوطنية في الشرق كدمشق ، بيروت ، القاهرة، التي وفد اليها الكثير من دعاة الإصلاح وأصحاب الاتجاهات الوحدوية ، مما حفز الليبيين الاهتمام بقضيتهم الوطنية بالإضافة إلى توفر فرص التعليم وانتقال شخصيات قوية كبشير السعداوي إلى مصر وعمر شنيب التي كان لهم تجربة في النضال السياسي وعند الإعلان عن الحرب العالمية الثانية في اليوم الأول من شهر سبتمبر 1939 على اثر دخول القوات الألمانية بجانب ايطاليا عقد الليبيون العديد من المؤتمرات في مصر كمؤتمر فيكتوريا برومل بالإسكندرية في 20-23 أكتوبر 1939 عندما بدأ نذر الحرب العالمية الثانية حيث نتج عن هذا المؤتمر هو تفويض إدريس السنوسي في التمثيل السياسي ، جاء بعد ذلك انعقاد مؤتمر جاردن سيتي بالقاهرة 7-9 أغسطس 1940.¹

1 عز الدين مختار العالم ، النشاط السياسي للمهاجرين العرب الليبيين في مصر وإبعاده خلال الفترة 1922-1948 ، جامعة الفاتح ، 1997 ، ص 133 - 144

جاء كنتيجة مباشرة لدخول ألمانيا إلى جانب ايطاليا ضد الحلفاء، حيث انقسمت وجهات النظر في هذا المؤتمر منهم من يرى الدخول الحرب مع الحلفاء وبين رافض لهذا الرأي الغير مشروط في نهاية المطاف اتفق على أن يكلف إدريس السنوسي بالاتصال بالسلطات البريطانية حيث شرع إدريس السنوسي إلى مكاتبة العقيد بروفلو في 23/8/1940 مقترحا له منح بريطانيا لليبيين باستغلال بلادهم داخليا وأن يتولى شؤون الحكومة الليبية أمير مسلم تقبله الحكومة البريطانية. كما أسس البريطانيون في كل من برقه وطرابلس إدارة عسكرية مؤقتة منفصلة احدهما عن الأخرى انفصالياً تاماً وأنشأ الفرنسيون إدارة عسكرية في فزان ، وبتاريخ 8/5/1945 انتهت الحرب العالمية الثانية في أوروبا وعقدت مؤتمر في بوتسدام الذي قرر مجلس الوزراء الخارجية يمثل كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والصين وفرنسا على ان يتم تكليف هذا المجلس بإعداد وتحضير مشروع معاهدة الصلح مع ايطاليا . **ورومانيا** . بلغاريا . والمجر وفنلندا المشتركة في الحرب العالمية الثانية لعرضها على الأمم المتحدة.

* بوتسدام : احد ضواحي برلين حيث عقد بها مؤتمر الصلح بين من الدول الاستعمارية في الحرب العالمية الثانية.

1 عز الدين العالم ، مرجع سابق ، ص 133-144

وفي 10/2/1947 عقد الحلفاء المنتصرون في الحرب العالمية الثانية بين كل من : بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية معاهدة صلح مع ايطاليا، وصدر من الدول الأربع تصريح في اليوم نفسه الحق بالمعاهدة تحت رقم 11 وقد نصت المادة 23 من معاهدة الصلح مع ايطاليا على ما يلي "1" :-

1. تتنازل ايطاليا عن كل حق أو سند في الممتلكات الايطالية الإقليمية في أفريقيا وهي ليبيا . الصومال . اريتريا ، إلى أن يتم تقرير مصيرها نهائياً ، وتستمر هذه الممتلكات تحت الإدارة الحالية .
2. تقوم حكومات كل روسيا . بريطانيا . أمريكا . فرنسا بالاشتراك فيما بينها بتقرير مصير هذه المستعمرات نهائياً خلال عام من تنفيذ هذه المعاهدة والمبينة في التصريح المشترك الصادر من تلك الحكومات 10/2/1947 رقم 11 ونصه الآتي "2" :

1. اتفقت حكومات كل من روسيا بريطانيا . أمريكا . فرنسا على أن يثبت نهائياً بالاشتراك فيما بينها في مصير الممتلكات الإقليمية لايطاليا في أفريقيا والتي تنازلت عنها في معاهدة الصلح طبقاً للمادة 23 من المعاهدة المذكورة .

2. تقوم الدول الأربعة بتقرير مصير الأقاليم المنوه عنها في التقرير نهائياً وتعديل حدودها التعديل المناسب ، على ضوء رغبات الأهالي.

3. إذا لم تتمكن الدول الأربعة من تنفيذ الاتفاق خلال سنة من المعاهدة ، رفع الأمر الى الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة لتصدر توجيه بشأنه ، وتتعهد الدول الأربعة بأن تقبل التوصية وتتخذ الإجراءات المناسبة .

1 رجب حراز، الأحزاب الليبية وقضايا الاستقلال ، الإمارة ، الوحدة ، مجلة البحوث والدراسات العربية ،

العدد 6 ، يونيو 1965 – ص 45.

2 محمد فؤاد شكري ، ميلاد الدولة الليبية ، ليبيا الحديثة، وثائق تحررها واستقلالها ، ج1، 1945-1947 ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة 1957 ص 42.

2 محمد فاضل الجمال، كيف حققت ليبيا استقلالها ، من ذكريات محمد فاضل الجمال، المجلة التاريخية العدد 1، تونس 1947.

4. يقوم نواب وزراء الخارجية بموالة النظر في مسألة تقرير المصير للمستعمرات وتزويد وزراء الخارجية بالمعلومات اللازمة حيال الموضوع.

وعندما تولت الإدارات العسكرية في مباشرة مهامها ، قد حظرت النشاط السياسي في برقه وطرابلس ، حيث لجأ بعض الشباب من برقه المتواجدين في مصر 1942 بإنشاء جمعية وطنية ثقافية أطلقوا عليها اسم جمعية عمر المختار وأعلن لها فرع في بنغازي 1943/4/4 وبذلك تكون أول جمعية ليبية وأصدرت مجلة ثقافية أسمتها "مجلة عمر المختار" تخليد لشيخ الشهداء الراحل وكان من أهداف هذه الجمعية لتؤدي واجبها نحو وطنها وأيدها إدريس محمد السنوسي* كما أداه عمر المختار على الوجه الأكمل .

ضمت هذه الجمعية عدد من الشباب المتحمس لقضية استقلال ليبيا ، ووحدها الوطنية ، ويشير أحد الباحثين الذين نصت دراستهم بأن اسعد بن عمران هو أول من فكر بإنشاء هذه الجمعية خلال وجوده في مصر⁽¹⁾ وجعل للجمعية مهمة أخرى هي التشجيع على ممارسة الرياضة بين الأسرى الليبيين في مرسى مطروح 1942 سميت جمعية مرسى مطروح الخيرية ، إلا أنه توفي بعد وصوله إلى القاهرة فلم تخرج الفكرة الى حيز الوجود إلا انه تشكلت من بعده.

تألفت هذه الجمعية في يناير 1940 وهي جمعية أدبية اجتماعية عرفت باسم جمعية المهاجرين الليبية الخيرية بمرسى مطروح كما حددت أهدافها كما يلي:-

- 1) تحقيق التكافل الاجتماعي من المهاجرين الليبيين.
- 2) ترقية مستوى المهاجرين العلمي والأدبي.

(*) محمد إدريس السنوسي ولد عام (1890) وهو ابن السيد محمد علي السنوسي الذي كون في منتصف القرن الماضي مذهباً دينياً يعرف بالسنوسية ، وقد وجد هذا المذهب أنصار عديدين في برقه ، فانضوى تحت لوائه حوالي 90% من أهالي برقه وما يقرب 20 % من أهالي طرابلس وتطورت زعامة نفس هذا المذهب أولاده من بعد الى زعامة سياسية دينية اعترفت بها الإدارة العثمانية الى حد ما ، وقد عمل السنوسيون بجانب الأتراك أثناء الاحتلال الإيطالي لليبيا والحرب العالمية الأولى ، واعترفت الحكومة الإيطالية في 1920 بإدريس السنوسي أمير على الجزر الجنوبي من البلاد ومنحته لقب صاحب السمو ، في 1923 غادر البلاد الى القصر بعد مفاوضات طويلة غير موفقة ، وما لبث أن عقد عام 1940 اتفاق بين السيد إدريس والسلطات البريطانية في مصر على إنشاء قوة إضافية تسمى قوة العرب الليبية من بين الليبيين المقيمين بالخارج في مصر بمساعدة الأمير ، وكان الأمير وبعض أعضاء السنوسية يتقاضون مرتبات من الإدارة العسكرية البريطانية سنوياً ، وزار الأمير برقه ثلاثة مناسبات عديدة ، محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة ، القاهرة 1948 ، ص 394-395 .

(1) سائلة عبد العال ، الجماعات السياسية ، 1943-1951 ، مواقفها السياسية، رسالة ماجستير، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة قارونوس (بنغازي حاليا) 2000 م، ص 36

3) توفير الرعاية الاجتماعية لذوي العاهات والفقراء الذين لا يستطيعون العمل لتحقيق كسب معيشتهم. إلا انه من المفيد قوله بأن هذه الجمعية قد استبعدت العمل السياسي من برامجها وطمح على مهامها المهام الاجتماعية وربط الصلات الاجتماعية فيما بين المهاجرين ، محافظة الصحراء الغربية المتاخمة للحدود الليبية من الغرب¹ وهي تعد من التنظيمات الاجتماعية في الخارج كما وضع من الذي تصدت دراسته في هذا الجانب. بالإضافة إلى ظهور حراك سياسي في برقه ، وهو تجمع لرؤساء القبائل والعشائر والسياسيين تمثل في الجمعية الوطنية ورابطة الشباب والجبهة الوطنية المتحدة لبرقه ، وعندما كان نادي عمر المختار قد تأسس في ابريل 1943 برئاسة مصطفى بن عامر كانت تناصره وحدة ليبيا قد تطورت سياسياً في الفترة 1946 – 1947 ضارباً عرض الحائط برغبة الأمير في **اقتصار** نشاطه على الرياضة والثقافة فقط الأمر الذي أدى إتقانه لفترة وجيزة وسرعان ما سمح له 1948 بإعادة نشاطه من جديد³.

- 1 سلمة عبد العال ، مرجع سابق ص 36.
- 2 نقلا عن المرجع السابق، مقابلة أجراها الباحث مع احد المعاصرين لجمعية عمر المختار بنغازي
- 3 المرجع السابق ، ص 50.

علاوة على ذلك أعلن الأمير عن تأسيس المؤتمر البرقاوي ، الذي أصبح الهيئة السياسية الوحيدة في البلاد ، ولو أنه لم يكن **حزب سياسياً** وكان يضم حوالي 67 عضو من جميع مناطق برقه ، وتم أزداد العدد في سنة 1949 إلى 140 عضو معظمهم من المشايخ والأعيان والبعض منهم كان يشغل وظائف مهمة في الإدارة العسكرية البريطانية وفي العهد الايطالي ولتحقيق نتائجه المعدلة في وجوب الاستقلال لبرقه وقيام حكومة دستورية برئاسة الأمير وورثته من بعده أي الحكم يكون فيها وراثياً ورفض التعاون مع ايطاليا بأي شكل من الأشكال، وتضمن في هذا المؤتمر البرقاوي التمسك بالإمارة وحصرها في البيت السنوسي والتمسك بوحدة البلاد ، والتصميم على إعلان الاستقلال ، ورفض أي تعاون مع ايطاليا ، وان تكون ليبيا ملكية وراثية تحت التاج السنوسي.¹

وكان من أهم المبادئ التي تقوم عليها اللجنة الطرابلسية اعتبار القطر الطرابلسي وحدة واحدة لا تتجزأ من حدود مصر إلى حدود تونس ومن البحر الأبيض المتوسط الى جنوب الصحراء ومناهضة السياسة الاستعمارية والعمل على جعل المشاكل الليبية جزء من سياسة الجامعة العربية ، والمطالبة بالاستقلال التام. كما تم تشكيل لجنة الدفاع الطرابلسية البرقاوية والتي كانت تسمى جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي وتوسيع اتصالاتها مع الهيئات العربية الأخرى والتنديد بالإعمال التي يقوم بها الايطاليين اللانسانية داخل القطر الليبي¹ وكانت تسعى لكسب الرأي العام لنصرة قضيتهم وإبرازها في الوجود.

- 1 سلمة عبد العال ، مرجع سابق
- 2 ارويعي قناوي ، الكفاح الوطني للمهاجرين الليبيين ضد الغزو الايطالي 1911-1945 ، رسالة

ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة قاريس ، 1993 ص 50.

التي أسست بدمشق برئاسة السيد بشير السعداوي ، وكل هذه الأحزاب واللجان جعلت من مبادئها المطالبة بالاستقلال لليبيا ووحدها ، وبحقها في تقرير مصيرها ، وأن اختلفت في الطرق عن كيفية تحقيق المبدأ ، لان هذا الخلاف لا يشكل خطرا لان الهدف واحد ، سعى حزب الاتحاد العربي الطرابلسي بأنه يرى توحيد ليبيا مع مصر تحت التاج المصري، واختلفت الآراء في شكل الإمارة منهم من يدعو إلى الإمارة السنوسية بلا قيد وشرط ، ومنهم من يدعو إليها بشروط تتفق عليها، ومنها من يرى حرية الانتخاب والدعوة إليها ، فالشعب له الحرية في أن ينتخب السنوسية او غيرهم ، ومن أنصار هذا الرأي اللجنة الطرابلسية .¹

ومما تجدر الإشارة إليه أن كل هذه الأحزاب واللجان بذلت جهود في قضية استقلال ليبيا ، وإظهارها إلى حيز الوجود وأمام المحيط الدولي مظهر القضايا التي يجب ان تكون لها العناية وإظهارها أمام الرأي العالمي لنصرتها ، حيث كان للجامعة العربية فضل السبق بمناصرة القضية الليبية بواسطة أمينها عبد الرحمن عزام الذي كان له مواقف عند تعرضها للغزو الايطالي 1911-1943، كما توالى المناصرة من قبل الشعوب العربية كلها مثله في سلوكها وحكوماتها وزعمائها وفي مقدمتهم مصر العربية² ، ومنذ أن أنشئت الجامعة العربية في مصر 1945/3 وهي توالي جهودها للقضية الليبية، سواء داخل الاقطار العربية او في أوروبا في عواصمها ومؤتمراتها، أوفي جمعية هيئة الأمم المتحدة .

1 الطاهر الزاوي ، مرجع سابق ص 37

2 المرجع السابق نفسه " رسالة مستقلة جمعت فيها الجامعة العربية كل ما بذلته من جهود للقضية الليبية والتي تشمل على 54 صفحة وضعتها في مارس 1950 ووزعتها بالبحان - نقلا عن الطاهر احمد الزاوي ، مرجع سابق.

وذلك من خلال المذكرات والقرارات التي قدمتها الجامعة العربية إلى وزارة الخارجية والجهات التي تعد مسئولة عما يتخذ بشأن شمال افريقيا ، العمل بكل الوسائل لتحقيق مطالب أهالي برقة وطرابلس ، باعتبار إن الجامعة العربية هي المسئولة عن السلم والأمن في الوطن العربي ، كما جاء في مذكرتها المؤرخة في 15/4/1946 إلى مؤتمر وزارة الخارجية المنعقد في هيئة الأمم المتحدة ، المطالبة بتحرير البلدان العربية من يد الاستعمار.

أما فيما يخص المنطقة الغربية مجرد تحررها من الايطاليين دعا زعمائها إلى الاجتماع الذي عقد 1943/1/25 وناقشوا فيه الموقف الذي **تعرض** له البلاد وطالبوا سلطات الإدارة البريطانية السماح لهم بتشكيل

أحزاب سياسية ، حيث تم رفض هذا الطلب مبرراً بأن ممارسة الأحزاب يتوقف على ضم البلاد في معاهدة الصلح ، كما قدمت التماسات أخرى جاء فيها بأن عرب طرابلس قد رحبوا بالمخطط البريطاني لمنحهم الحرية ، وأن الأحوال الداخلية في طرابلس ليست أقل ملائمة للنشاطات الوطنية عن تلك السائد في برقه ، حيث سمح لإخوانهم في برقه تأسيس جمعية أو نادي ثقافي وأنهم في بلد واحد ، وبانتهاء الحرب العالمية الثانية سنة 1943 على الساحة الليبية وعودة المهاجرين إلى ديارهم **وانتشار** الوعي القومي بين الشعب الليبي سمحت الإدارة العسكرية البريطانية بممارسة النشاط السياسي ، فظهرت في طرابلس عدة أحزاب ومنظمات سياسية فكانت على النحو التالي .

- 1 سالمة عبد العال ، مرجع سابق ، ص 52
- 2 لن يريد الايطالي ينظر ، ملف الاحزاب واللجان ، وثيقة رقم 50 بعنوان مذكرة الحزب الوطني الى مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى المنعقد بباريس ، طرابلس ، مكتبة مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات ، الوثائق، ص 2-3 ، نقلا عن سالمة عبد العال ، المرجع السابق نفسه.

كان هدف هذه الأطراف هو تحرير البلاد ولم يكن فيها أي مصلحة إلا مصلحة الوطن:
وقد تضمنه فئة من الطرابلسيين وهم عبد الرحمن دقدق ، ومصطفى ميزران و عبد الرزاق البشتي،وعون سوف ،ومحمد العربي، ويوسف السعدية والهادي المشيرقي ، وعبد السلام الريفي، توفيق أبو رخيص ، سالم المنتصر، هذا وتشير الباحثة "1" إلى تكونه في البداية من شخصيات الهادي المشيرقي ، عبد الرحمن زيده ، ومصطفى حسن بي ، علي رجب ، محمود العربي، عبد الرزاق البشتي ومحمود العربي "2".

1. الحزب الوطني : في بادئ الأمر كان سرياً ، وقد شكله الوطنيين بتاريخ 10/5/1946 واعترفت به الإدارة العسكرية البريطانية في 8/4/1944 حيث نشب خلاف بين مؤسسي الحزب حول مستقبل ليبيا ، **ومصيرها وقد آلت رئاسته** لمصطفى ميزران ، ويهدف إلى استقلال ليبيا ووحدها وانضمامه إلى الجامعة العربية والنهوض بها في كل المجالات إلا إن هذا الخلاف لم يكن ذات أجددة خارجية كما هو حاصل في الأحزاب السياسية في الوقت الحالي.

كما ذكر لجنة التحقيق الرباعية التي زارت ليبيا في 6 مارس-20 مايو 1948 والتقت قبل هذا الحزب ، أن لهذا الحزب فروعاً في 15 منطقة ويضم ألف عضو ، وأبلغت الإدارة البريطانية لجنة التحقيق الرباعية إن للحزب بعض ممثلي القبائل ومعظم من الشباب المثقف ، وأنه لم يعترض سنة 1946 على إمارة إدريس السنوسي وطالبة بتعريب الإدارة، وأن يكون كافة المراسلات باللغة العربية، دلا من اللغة الانجليزية التي تستعملها الإدارة العسكرية البريطانية، أي إحلال اللغة العربية لكي تصبح اللغة الرسمية في التعاملات الإدارية لجميع مؤسسات الدولة.

2. الجبهة الوطنية المتحدة : برزت في 1946/5/10 برئاسة سالم المنتصر "1" وكان كرد فعل لما أشيع من وزراء الدول الكبرى المجتمعون في باريس إنزال اليخوت في سيشل المستعمرة الايطالية وطرحوا فكرة الوصاية أنه ليس كحزب سياسي ولكنه كهيئة تمثل طرابلس ، وبتأييد من الأعيان والشيوخ وبعض من التجار ذوي **النقود** وبعض من اليهود ، وفي 1946/6/8 رفعت مذكرة كانت مطبوعة باللغة الفرنسية والعربية والانجليزية إلى رؤساء دول أمريكا وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي عن مطالب الشعب الليبي حيث وقعت من قبل رئيس الجبهة سالم المنتصر ونائبه محمد عون وآخرون⁽¹⁾.

ومفاد هذه المذكرة سياسة ايطاليا في ليبيا ومحاولاتها للقضاء على الروح العربية في البلاد وكانت المطالب تمثل في النقاط التالية :

1. المحافظة على وحدة ليبيا بما فيها فزان .
 2. الاستقلال تحت حكم ديمقراطي دستوري تحت إمارة السيد إدريس السنوسي .
 3. قبول البلاد في عضوية الجامعة العربية⁽²⁾.
- ومن الواضح بأن هذه الجبهة لم تكن ترغب في التجزئة بل كانت تريد الإمارة السنوسية في برقه .
3. الكتلة الوطنية الحرة : انبثقت عن الحزب الوطني بعد الخلاف الذي دار بين الزعماء وتشكلت رسمياً 1946/5/30 وانضمت إليها عناصر موالية للانجليز وكان برنامج عملها هو انعقادها كل شهرين وقامت بتوزيع منشور تطالب فيها بالاستقلال التام ووحدة ليبيا وانضمامها إلى الجامعة العربية ، والمطالبة بتعريب دواوين الإدارة ، وتشكو من كثرة عدد الايطاليين الذين يشغلون مناصب رفيعة في الإدارة البريطانية ، ونظمت وقفات احتجاجية وإضرابات على هجرة الايطاليين وتسلمهم مناصب رفيعة في الإدارة البريطانية في طرابلس ، إلا إنها عارضت وجهة نظر الجبهة الوطنية على **استعدادها** لقبول إدريس السنوسي رئيساً للبلاد ، كما قامت بمراسلة الجامعة العربية بمذكرة جاء في مضمونها بأنها تريد ليبيا مستقلة ولن تحيد عن المبادئ الآتية :
- حزب الاتحاد المصري الطرابلسي :

تم تشكيله من قبل أعضاء الكتلة الوطنية الحرة والتي أشرنا لها ومتمثلة في علي رجب ، ويوسف المشرق ، حيث اعترفت الإدارة البريطانية **بهم** وتأسس في 16 ديسمبر 1946 وكان من ضمن مطالب هذا الحزب توحيد ليبيا تحت التاج العربي ، ونشر الحزب عدة إعلانات ومن أهمها اتحاد طرابلس ومصر ، بشرط أن تحتفظ طرابلس باستقلالها الداخلي ضد عودة الإدارة الايطالية الاستعمارية **الى البلاد** ، وكما أصدر **أيضاً** في شهر ديسمبر من العام 1947 نداء للدفاع عن فلسطين ، يقدر عدد أعضاء الحزب بثلاثين ألف إلا أن **تقدير** الإدارة العسكرية البريطانية بحوالي ثلاثمائة فقط.

(1) لمن أراد الاطلاع أنظر المرجع السابق نفسه ، ص 54 .

(2) الجبهة الوطنية المتحدة ، متكرة عن الحكم الايطالي في ليبيا ، وطلبات المستقبل ، طرابلس ، 1946 ، ص 1-20 .

* أثر توقيع معاهدة الصلح مع إيطاليا ، في 15/9/1947 ، أخذ وكلاء وزارة خارجية الدول الكبرى ، على عاتقهم أمر تنفيذ الشروط المتعلقة بوضع المستعمرات الإيطالية ... وهي مؤلفة من ممثل واحد لكل دولة والتعرف على مايطمح اليه السكان ووضع تقرير عن نشاط هذه اللجنة، لمزيد من الايضاح ، ينظر كامل مسعود الوبيه ، الصحافة الليبية، مواقفها السياسية واتجاهاتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، 1943-1952 ، رسالة دكتوراه ، قسم التاريخ ، جامعة قاروننس ، 2005 . ص 145

عندما كانت دعوات حزب الاتحاد العربي الطرابلسي لم نجد تأييد لدى الرأي العام في مصر وليبيا ، فغير اتجاه الدعوة للإمارة السنوسية إلا أنه لم يغير أفكاره بل احتفظ بها وباسمه ، حيث يؤكد محمد فؤاد شكري^(*) مستشار هيئة تحرير ليبيا في أحد مذكراته الغير منشورة وهي كما وردت "أخبروني بأن الصادق بن زراع وعلي رجب خطبا اليوم 1948/4/30 في صلاة الجمعة في جامع أحمد باشا يوضحان ضرورة قبول الإمارة السنوسية محافظة على وحدة البلاد، كما أخبرني محمد الزقلي بأن لديه النية في عقد مؤتمراً غداً صباحاً بين كل من صادق بن زراع وعلي رجب في مكان يدعى الزاوية الكبيرة بطرابلس ، وجهت الدعوة إلى أربعين شخصاً وقد وافق عليها بعض من الأعيان لمحمد الزقلي ، وأحمد زرام وكان الغرض من هذه الاجتماعات هو اختيار وقت الذهاب الى بنغازي ليطمئن الأمير على المحافظة على وحدة الوطن وتماسك البلاد خوفاً من الفتنة أو الانشقاقات التي تحدث نتيجة للفراغ السياسي الحاصل في تلك الفترة ، كما كانت من أهم مطالبه اعتبار كل من فزان وطرابلس وبرقة قطراً واحدا لا يقبل القسمة أو التجزئة ، كما توصي جميع الحقائق والاعتبارات التاريخية والجغرافية والعمرائية وهذا ما يتناهي مع نظرية لتقسيم المقسم وتجزئة الجزأ²" ومقاومة كل فكرة أو مجهود يروا أنه فصل جزء من أجزاء القطر من جسم الأمة.

(*) محمد فؤاد شكري : مع هيئة تحرير ليبيا في طرابلس الغرب بزعمامة البشير السعداوي وهذه المذكرات تقع في كراسات كبيرة الحجم ومسجل بها الاحداث اليومية يوم بيوم بخط صاحبها ، وذلك من 1964/3/6 حتى يوم 14

1951/5 حين أبعدته الانجليز عن ليبيا .

2)مقابلة اجرتها سائلة عبد العال ، مع سالم بن محمد بوخشيم، وثيقة رقم 22 طرابلس ، مكتبة المركز الوطني للبحوث

حزب العمال :

أنشئ هذا الحزب في 1947/9/1 وقد جمع الحزب عددا من عمال الميناء والمواصلات والمصانع والشركات العامة ، ورفع شعار ان جميع الليبيين على اختلاف عناصرتهم ومعتقداتهم سواسية إزاء الحقوق الوطنية ماداموا عاملين مخلصين ، في العمل كقضية الوطن والصالح العام¹

كان هدف هذا الحزب هو المطالبة بوحدة البلاد ، والثقة الكاملة في بشير بن حمزة السكرتير السابق للكتلة الوطنية الحرة بعد انفصاله عنها واعترفت به الإدارة وكان برئاسة الشيخ بشير المقريني ابن حمزة ، وكان لهذا الحزب العديد من النشاطات السياسية للمطالبة بوحدة واستقلال ليبيا وقدر عدد أعضائه من قبل الإدارة البريطانية بحوالي خمسون عضواً ، وكان يضم عدد من العمال بميناء طرابلس البحري وبعض عمال المواصلات وكذلك عمال المصانع الايطالية والمنشأة العامة ، إلا أن هذا الحزب واجه العديد من الإجراءات القانونية والمتمثلة في أن الإدارة العسكرية البريطانية وريثة قوانين الإدارة الايطالية الأمر الذي جعل الإدارة البريطانية تتمسك بها لأنه يحرم إنشاء النقابات العمالية ، مما جعل بعض الانتهازيون **تولي** قيادة هذا الحزب وتوجيهه لخدمة مصالحه الشخصية ورغباتهم الحزبية¹ . ولم يؤيد الإدارة السنوسية لأنه كان يرى في إرادة الشعب فوق ارادة الفرد.²

- 1 عقيل البربار ، حركة التحرر الليبية في القرن العشرين ، مجلة الشهيد العدد 31-2011 ص 67
- 2 الحارب ، حقائق الكفاح الوطني في ليبيا ، ص 49 ، نقلا عن رجب الحراز ، مرجع سابق ص 57
- 3 عقيل البربار ، المرجع السابق 110 ص 67

حزب الأحرار :

أسسه الصادق بن زراع أحد وكلاء الحزب الوطني السابقين ، واعترفت به الادارة العسكرية البريطانية وكان في 1948/3/11 وقدر عدد أعضائه حوالي تسعين ، إلا أنه لم يعقد اجتماعات وكان من أهم نشاطاته السياسية هو تنصيب السيد محمد إدريس السنوسي أميراً على ليبيا موحدة¹ . وكانت مساعي كل الحركات السياسية سلمية وهي المناداة بالاستقلال والوحدة أو الوحدة والاستقلال ، والخلاف بينهما كان على نظام الحكم او الزعامات وأسلوب العمل.²

حزب المؤتمر الوطني الطرابلسي

أدى إعلان بينفن* - سفورزاء* إلى قيام حركة عصيان داخل البلاد وكانت موجهة الى ايطاليا لرغبتها في العودة إلى طرابلس متخفية في ثوب الوصاية الجديد وفرنسا تأييدها لايطاليا وبريطانيا وذلك نظراً لإعلانه عن عودة الايطاليون إلى طرابلس ، بالرغم من العهود التي قطعتها بريطانيا ممثلة في وزير خارجيتها الى عدم عودة الايطاليون إلى برقه ، وهذا يعد خيانة لفرنسا وبريطانيا ، لآمال الوطنية للشعب الليبي، إزاء ذلك التحركات السياسية من جانب الحلفاء ، الأمر الذي أدى إلى قيام الأهالي بإضرابات ومظاهرات عامة في أنحاء البلاد ودعوا

للاجتماع بداية 1949/5/11 لتنسيق الجهود ضد المخطط الاستعماري الذي يهدف إلى عودة المستعمر الايطالي إلى البلاد ،

* ارنست بيفن (1881-1951): رجل دولة بريطاني ، ولد في وتسفورد بانجلترا ، وعمل بالتجارة وأصبح عام 1921 ، منظماً لاتحاد عمال النقل ثم أصبح السكرتير العام للمنظمة المذكورة واستمر في عمله حتى 1940 ، وفي العام نفسه أصبح وزيراً للعمل في وزارة ونستون تشرشل وفي 1945 أصبح وزيراً للخارجية وكان من أشهر الداعمين للولايات المتحدة في الحرب الباردة، كامل مسعود الوبية، مرجع سابق ، ص 150

* كارلوا اسفورزاء (1873-1952): رجل دولة ايطالي ، سليل أسرة مشهورة في ميلانو عمل في السلك الدبلوماسي عام 1896 وأصبح وزيراً لخارجية ايطاليا عام 1920 ، وسفيراً في فرنسا 1922، واستقال نتيجة لمعاداته للفاشية وسياسة موسوليني ، واستمر في موقفة السياسي من الفاشية وغادر ايطاليا 1927 ، وعاد إليها 1943 ، ثم أصبح وزيراً لخارجية ايطاليا 1947-1951 ، المرجع السابق نفسه.

1 محمد فؤاد شكري ، مرجع سابق ، ص 383 . الطاهر الزاوي، مرجع سابق ، ص 36

2 مصطفى السراج، مصدر سابق . ص 398

3 لمزيد من الإيضاح ينظر ، طرابلس الغرب ، السنة السابعة ، العدد 1798 ، 12 مايو 1944 ، ص 2 .

وأقدموا برفع دعوة إلى السلطات الانجليزية ، أعربوا فيها عن تنظيم حركة عصيان مدني مستمر إلى أن يتم إلغاء هذا المشروع الاستعماري من البلاد² هيئة تحرير ليبيا ونشاطها السياسي :

تأسست هذه الهيئة في القاهرة بتاريخ شهر مارس 1947 ، بزعامة البشير السعداوي¹ ، وعضوية كل من أحمد السويحلي وجواد زكري ، ومنصور بن قدارة وطاهر المريض ، ومحمود المنتصر كل من وجهاء وزعامات البلاد وبعضهم من أعضاء الجبهة الوطنية المتحدة الطرابلسية ، وكان تواجدهم في مصر هو الفرار من الاستعمار الايطالي ، **وعندما** وقعت ليبيا تحته في 1911م ، وكان أهم جهودها هو إخفاق الجهود التي بذلت سواء في القاهرة أو بنغازي لحسم أسباب الخلاف بين البرقاويين والطرابلسيين ولجمع الكلمة الواحدة حول مصير ليبيا ووحدها واستقلالها تحت إمارة إدريس السنوسي¹ ويعني تثبيت الحدود الليبية من الحدود المصرية شرقاً إلى الحدود التونسية الجزائرية غرباً ، وجنوباً إلى الصحراء الكبرى ، والتعاون مع الجامعة العربية والتفاهم في كل مسعى يحقق الاستقلال ويصونه ، ومن المفيد قوله بأن هيئة تحرير ليبيا لم يكن حزباً سياسياً يسعى للوصول إلى السلطة ، إلا انه كان يلقي تأييداً من الأحزاب السياسية سالفة الذكر والتي أشرنا إليها سابقاً .

ارويحي قناو ، بشير السعداوي ، ودورة في الحركة الوطنية الليبية 1884-1952 ، اطروحة دكتوراه مقدمة ، قسم التاريخ ، كلية الاداب ، جامعة عين شمس ، 2011، ص 129.

* بشير السعداوي كان مستشار الملك عبد العزيز آل سعود، وهو من أصل مصري ، ولد بمدينة الخمس، 1884 ، ونشأ بها عاصر فترة الكفاح ضد الايطاليين ، وفي مختلف مراحلها ، ثم واصل كفاحه في الخارج بالامكانيات المتاحة ، وطني قوي الشخصية ، له تأثير على الجمهور ... لمزيد من الايضاح ، انظر فوزي

السراج ، مرجع سابق ، ص 350 ، وله توضيح في الصفحات المقبلة. كذلك رويحي قناو ، مرجع سابق ومن المعروف ان بشير السعداوي اسس في 1928 جمعية وطنية ذات نشاط علي من الجالية الليبية في بلاد الشام ، لمزيد الايضاح ينظر محمد عبد الفتاح عبد المجيد ابو الاسعاد، مصروالمسألة الليبية 1911-1931 ، رسالة دكتوراه ، كلية الاداب ، جامعة عين شمس ، 1990 ص282.

المرجع السابق، ص383

1

ومن المواقف السياسة التي اتخذتها هيئة تحرير ليبيا فوجهها نقدا عنيفا إلى سياسات الإدارة الإيطالية ، وكذلك إلى الإدارة العسكرية البريطانية المسيطر على كل من برقة وطرابلس، عقب الإعلان عنها مباشرة وجه عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية عبر أثر إذاعة القاهرة .
الهيئات الأجنبية :

وجدت في طرابلس هيئتان سياسيتان ايطاليتان هي اللجنة المنحلة الإيطالية ، The Italian

Representative commute

وهيئة التقدم الليبية The Association for the progress of Libya

وقد سمحت الإدارة العسكرية البريطانية بتشكيل الهيئة الأولى في 13/2/1948 وكانت الهيئة تزعم أنها تلقى تأييد من 15.000 شخص ويمثل 90% من أعضائها من الجالية الإيطالية¹ أما هيئة التقدم الليبية فكانت تتألف من 56 عضو وتؤيد وجود القطر الليبي مستقل يضم كل من الأقاليم الثلاثة طرابلس . برقة . فزان ، وتتضمن هيئة الأمم المتحدة كاستتباب الأمن والنظام في القطر ولو لوقت معين وإذا لم يتحقق ذلك فإنها تمنح البلاد استقلالها وتعيين ايطاليا حاكم عليها ، إلى جانب الجالية الإيطالية ، وكما توجد في طرابلس جاليات أخرى كالجالية المالطية واليونانية ، وفي شهر مارس من العام 1946 شكل أبناء هذه الجالية هيئة اتجه نشاطها نحو تحسين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لأبنائها ، وكان من رأي الجالية المالطية ، إذا لم يتحقق الاستقلال لطرابلس الغرب فإنها يجب وضعها تحت الوصاية البريطانية ، لتمكنها بعد ذلك من الحصول على الحكم الذاتي ، في أقصر وقت ممكن ، وكانت الجالية اليونانية تعطف على مطالب الشعب الليبي لتحقيق رغباتهم في الحصول على استقلال البلاد².

أما في منطقة فزان ، التي كانت خاضعة للإدارة العسكرية الفرنسية نجد أن هذا الإقليم قد حرم من ممارسة نشاطه السياسي لعدم وجود أحزاب سياسية أو هيئات ثقافية أو اجتماعية ، إلا أنه ولو وجدت به هيئات الإخوة الدينية ، ومما تجدر الإشارة بأنه تقرر على الإدارة العسكرية الفرنسية بأنها لم تمنع الأحزاب في تكوينها ومبرراً

1 رجب حراز ، مرجع سابق ص 60

1

2 رجب حراز ، مرجع سابق ص 66

2

الحاكم العسكري قوله بأن هذا الموقف راجع إلى الأحوال الاقتصادية وفق السكان في تلك الأقاليم وعدم وجود وقت لديهم لممارسة نشاطاتهم السياسية ، إلا إن هذا كان مردود وعلى المحاكم العسكرية لذا لم تسمح لفروع بعض الأحزاب السياسية فتح فروع لها في الجنوب الليبي ، وهذا يتضح من الشكوى المقدمة من قبل الحزب الوطني في أواخر عام 1946 ، وهذا يفسر لنا بأن فرنسا كانت تسعى لفصل فزان عن ليبيا والاستحواذ عليها وضمها إلى مملكتها في إفريقيا ، ومنذ احتلالها لهذا الإقليم ، أصبحت فرنسا تتبع كل الأساليب الوحشية للفتك بالأهالي وهتك أعراضهم ومصادرة ممتلكاتهم وتسخير الرجال في الأعمال الشاقة ، وقد كانت سياسة الإدارة الفرنسية هو غلق فزان عن العالم الخارجي وعدم اتصال أي أخبار من طرابلس أو برقه.

إلا أن كل الإجراءات التي تمت بعدم السماح لحراك سياسي ، ونظرا لوقوع فزان تحت الإدارة العسكرية الفرنسية، فقد كانت هنالك جمعية سرية واحدة أنشئت في عام 1949 فكان رئيسها عبد الرحمن الركوبي ومحمد عثمان الصيد وتم تعيين مثلث من المناطق الآتية ، الهادي رمضان الزائدي عن تمسه ، محمد النهيم في ادري ، عمر علي احمد المبروك المدني والمهدي عثمان عن ونزريك ، واحمد فريش الحطماي ، وحمد الازهري برقن ، وأقسم هؤلاء على أن تبقى الجمعية سرية وكان ذلك في منتصف 1946 ، وإعداد الأهالي لما هو مطلوب منهم والادلازية أمام اللجنة الرباعية ، التي علم بقدمومها ، وهكذا تم تأسيس هذه الجمعية التي أخذت تسمى في بعض المصادر باسم الجمعية السرية او الجمعية الفزانية ، ونظرا لسمعة رئيسها فإن الأمر لم يستغرق طويلا في تكوين قاعدة عريضة من الأعيان في جميع مناطق الجنوب وبالرغم من تشديد الامن من قبل السلطات الفرنسية إلا أنه كان تحركها السياسي بطيء وبسرية تامة، ومن المفيد قوله بأن هذه الجمعية لم يقتصر عملها على الجنوب بل كان هدفها هو الوحدة والاستقلال ، وعندما التقت اللجنة الرباعية مع بعض من الأهالي في أكثر من عشرين قرية جاء في تقريرها أن السكان لم يتفقوا ، فالبعض يريد حكومة إسلامية والبعض الآخر يريد الإبقاء على الإدارة الفرنسية كالطوارق وأن ما يهم أهالي فزان هو الأمن من خلال حكومة مستقرة. وتعمل في الخفاء خوفا من اكتشافها من قبل السلطات الفرنسية."1

1 رجب حراز ، مرجع سابق ص 66

2 مصطفى السراج ، ذكريات وحواطر ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية 2005 ، كتاب يحتوي على قصة حياته ، ولد 1916/11/16.

حزب الاستقلال:-

تأسس هذا الحزب في 1949/9/6 وترأسه سالم المنتصر الذي كان رئيساً لحزب الجبهة الوطنية المتحدة ، وهو الحزب الذي يكتنفه الغموض منذ تأسيسه وهناك من يرى بأن سبب تكوينه هو الخلاف الذي نشأ بين بشير السعداوي ، وسالم المنتصر فعلى الرغم من اتفاق الرجلين على قبول محمد ادريس السنوسي أميراً على البلاد ، إلا أن سالم المنتصر كان يرغب أن يكون الداعي لفترة الزعامة السنوسية على البلاد ، فطلب من مصر أن تستشير

على محمد ادريس السنوسي ما يراه مناسباً ، ولكن بشر السعداوي ، تجاهل الطرق المألوفة وفاوض رئيس الوزراء المصري دون أن يتشاور مع سالم المنتصر ، ودعا سكرتير الجبهة الوطنية عبد الرحمن الفلهود للاجتماع مقررأ فيه المسألة إلى جانب السعداوي ، فاعتبر سالم المنتصر القرار اهانة له وعلى أثره قدم استقالته من الجبهة الوطنية مكوناً حزباً جديداً "1" .

ومن يرى بأنه بعد فشل مشروع بيفن . سفوراء ، قبل سالم المنتصر التفاوض مع الايطاليين ، فطرد من الجبهة الوطنية المتحدة ، وعين مكانه الطاهر المريض ، وكون سالم المنتصر حزب الاستقلال ، وتضمنت هيئته التنفيذية كل من سالم المنتصر رئيساً ، وعلي بن شعبان . وراسم كعبار ، وكامل الهمالي ، وعبدالله الشريف واحمد كرزة ، وغيرهم "2" .

1 سلمه عبد العال ، مرجع سابق ص 63

* بشير السعداوي : ولد بشير بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم السعداوي في مدينة الخمس في اواسط 1310 هـ الموافق 1884 ، وتوفي والده وعمره آنذاك بين الستين 1902 التحق بالمدرسة الرشيدية بالخمس وقد اشرف عليها معلم تركي يدعى ضعي شيتاص وأتقن اللغة التركية والعربية والفرنسية والالمانية والانجليزية وله اهتمامات واسعة بالتاريخ والجغرافيا والرياضيات والمعارف العامة، وكان شغله الشاغل هو تنشئه أكبر عدد من التلاميذ الذين يستطيعون حداثه الدولة ، واعجب بشير السعداوي باستاذة خفي شيتاص ، لمزيد من الايضاح انظر الرويعي محمد قناوي ، بشير السعداوي ودوره في الحركة الوطنية (1884-1952) اطروحة دكتوراه ، قسم التاريخ ، جامعة عين شمس ، 2011م ص 4-7

وكان من أهم أهدافه هو استقلال البلاد موحدة ، تحت زعامة ادريس السنوسي ، دون أن نسير إلى الجامعة العربية .

إلا انه عندما انشغلت الدولة فكانت الأحزاب تعد خصم للدولة لان سلاحها هو إثارة الشعب ، فقد قوبلت بجلها من قبل سلطات البلاد لأنها اعتبرها بان هذه المرحلة لا تحتاج إلى من يجتمع لان يعرف ، إلا أن الأحزاب كان هدفها هو الاستقلال وتحقق ذلك ولا داعي لوجودها. "1" وهذا ينطبق بما يحدث الآن ، من تشكل للأحزاب بالرغم من عدم صدور دستور للدولة ينظم الحياة السياسية.

الخاتمة

ومن هذا المنطلق كان نشاط الحراك السياسي في ليبيا أعقاب الحرب العالمية الثانية **قد تركز على الأهداف**

الثلاثة وهي :-

1. الاستقلال التام مع ضمان عدم عودة الإدارة الايطالية تحت أي شكل من الأشكال.
2. الامارة السنوسية هل تقبل بدون قيد أو شرط أم تقيد مسبقاً بدستور ديمقراطي .

3. وحدة البلاد وهذا يطرح عدة تساؤلات هل تستقل ليبيا موحدة ، أم تمضي كل اقليم من أقاليمها الثلاثة برقه . طرابلس . فزان في طريق نحو الاستقلال المنفرد ، وما يترتب عليه من تجزئة البلاد وتقطيع أوصالها كل هذه الإشكاليات قد تحدثنا عنها في سياقنا عن الحراك السياسي في ليبيا .
4. لقد كان الحراك السياسي يسوده النوايا الحسنة والهدف واحد كما أشدنا ذلك ، لأنه لم يكن مدفوعا بأجندة خارجية، تسعى لتقسيم البلاد حتى وأن ظهرت قد تصدى لها الليبيون بموقف موحد ، وشكل الليبيون وحدة وطنية لم يكن احد يميل إلى قبيلته أو عشيرته وإنما كان يرى كل المصير واحد والمستقبل واحد إلى إن وصلت ليبيا باستقلالها عام 1951 ووضع دستور للبلاد والذي يعد من أفضل دساتير العالم.

ثبتت المصادر والمراجع

أولا المصادر :

- 1) جريدة طرابلس الغرب ، الصادرة في مارس 1948 .
- 2) طرابلس الغرب ، السنة السابعة 98 . 12 مايو 1944
- 3) الطاهر احمد الزاوي ، جهاد الليبيين في ديار الهجرة 1924 – 1962 ، دارف المحدودة لندن ، 1945
- 4) محمد فؤاد شكري ، مع هيئة تحرير ليبيا في طرابلس الغرب ، وزعامة بشير السعداوي ، 6 ابريل 1948 .
- 5) محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة ، القاهرة ، 1948.
- 6) محمد فؤاد شكري ، ميلاد الدولة الليبية الحديث ، وثائق تحريرها واستقلالها ، ج 1 ، 1945-1947 ، مطبعة الاعتماد، القاهرة ، 1957 .
- 7) الجبهة الوطنية المتحدة ، مذكرة عن الحكم الايطالي في ليبيا ، وطلبات المستقبل، طرابلس ، 1946 .
- 8) سامي حكيم ، هذه ليبيا ، مكتبة الانجلو العربية ، 1970
- 9) مصطفى فوزي السراج، ذكريات وخواطر ، مصطفى السراج، منشورات مركز جهاد الليبيين ..

ثانيا : المراجع:

- 1) ارويعي محمد علي قناو ، الكفاح الوطني للمهاجرين الليبيين ضد الغزو الايطالي 1911-1945 ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب والتربية ، جامعة قاربيوس ، 1993م.
- 2) ارويعي محمد قناو ، بشير السعداوي ودوره في الحركة الوطنية الليبية 1884-1952 رسالة دكتوراه ، قسم التاريخ ، جامعة عين شمس ، 2011م.

- (3) حنان سالم منصور ، الاحتلال الفرنسي لـفزان ، وأثره على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الزاوية ، 2003 م.
- (4) سائلة عبد العال ، الجماعات السياسية الليبية 1943 – 1951 مواقفها السياسية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة قارونس 2000.
- (5) عز الدين عبد السلام مختار العالم ، النشاط السياسي للمهاجرين العرب الليبيين في مصر وإبعاده خلال 1922-1948 ، جامعة الفاتح ، رسالة ماجستير، 1997
- (6) نقولا زيادة ، ليبيا في العصور الحديثة ، القاهرة 1966 ، ص 138.
- (7) كامل مسعود الويبة ، الصحافة الليبية ، مواقفها السياسية واتجاهاتها لاقتصادية والاجتماعية والثقافية (1943-1951) دراسة تاريخية ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة قارونس ، 2005م.
- (8) محمد عبد الفتاح ابو الاسعار، مصر والمسألة الليبية 1911-1931 ، رسالة دكتوراه ، قسم التاريخ ، كلية الآداب / جامعة عين شمس 1990.

ثالثا الدوريات:

- (1) رجب حراز ، الاحزاب الليبية وقضايا الاستقلال ، - الامارة - الوحدة . مجلة البحوث والدراسات العربية ، العدد 6 ، يونيو 1975 .
- (2) عقيل البربار ، حركة التحرر الليبية في القرن العشرين ، مجلة الشهيد ، العدد 31 ، 2011.
- (3) محمد فاضل الجمالي ، كيف حققت ليبيا استقلالها ، من ذكريات محمد فاضل الجمالي، المجلة المغاربية ، العدد 1 ، تونس 1947 .



إدمان الأطفال على الانترنت جريمة رقمية

الدكتورة نعيمة رحماني

جامعة تلمسان

أسهم دخول التكنولوجيا الحديثة الى مجتمعنا في السنوات الأخيرة بخلق جيل جديد من الأطفال المدمنين على استخدامها سيما "الانترنت" وعلى الرغم من الفوائد العديدة التي توفرها الشبكة العنكبوتية لملايين الناس حول العالم إلا أنها تمثل خطرا حقيقيا فيما لو تم استخدامها بإفراط خاصة من قبل الأطفال وصغار السن، إذ أن حياة المدمنين من الأطفال على الانترنت تنهار عادة بشكل مأساوي كما هو الحال مع المدمنين على المخدرات والكحول، فالإدمان على الانترنت يمثل أحد مظاهر إشكالات الشخصية وذلك قد يمثل مرحلة تمهيدية للانتقال إلى عالم الأمراض والاضطرابات النفسية والتعقيدات.

(1) تعريف الإدمان على الأنترنت:

الإدمان كلمة تشير إلى شكل من أشكال فقدان السيطرة على السلوك ، مما يعجز أمامه المرء عن إيقاف هذا السلوك غير المرغوب. هناك أشكال متنوعة من الإدمان (غير الخطرة) نجد منها : إدمان العمل ، إدمان التسوق وهوس الشراء ، إدمان حب المخاطرة سواء بالرياضة الخطرة كالتزلج على الجليد في الأماكن الخطرة، وإدمان الطعام ، إدمان المضاربة في الأوراق المالية.

يعاني أصحاب هذا النوع من الإدمان من المعاناة الشديدة والقاسية ، ولكن نظرا لان المخدر الذي يتعاطاه أصحاب تلك الأشكال من الإدمان يعد مقبولا من الناحية الاجتماعية ، فإن الأمر لا يشكل ضغوطا ملحة على أولئك المدمنين تستوجب مساعدتهم. (1)

سنحاول الآن استعراض شكل من أشكال السلوك الإدماني الذي ينتشر حاليا كظاهرة خطيرة في مجتمعاتنا وهو إدمان الأطفال على الأنترنت. ففي البداية يصاحب ذلك الشعور المتعة والغبطة ومع تكرار محاولات الاستعمال واكتشاف المواقع المختلفة والمتنوعة والانفتاح على العالم الخارجي بأسره واكتشاف ما يدور به والاطلاع على ثقافات وأجناس مختلفة يبدأ التحول من حب الاستطلاع والفضول إلى تولد شعور ملح بالحاجة إلى المزيد وفقد القدرة على السيطرة وعدم التحكم في التوقف على حب الاستطلاع والفضول أملا في الوصول إلى نفس المتعة السابقة والشعور بالراحة والحالة المزاجية المنبسطة التي كان يحققها في بداية تعامله مع الانترنت..

(2) أنواعه:

هناك 4 أنواع وهي: (2)

1) إدمان الفضاء الجنسي Cybersexual addiction أي مواقع الجنس الإباحية .

2) إدمان العلاقات السيبرية Cyber-Relationship addiction أي التي تتم عبر الفضاء المعلوماتي

- (Cyber Space ،) مثل علاقات قاعات الدردشة. (Chat Room).
- (3) إدمان الإنترنت Net-compulsion مثل المقامرة أو الشراء عبر الإنترنت.
- (4) الإفراط المعلوماتي Information overload مثل البحث عن المعلومات الزائدة عن الحد عبر الإنترنت.

(3) أعراض إدمان الأطفال على الانترنت:

يعاني الطفل المصاب بهذا المرض من عدة عوارض هي: (3)

(1) الاحتمالية:

- بمعنى الحاجة إلى قضاء المزيد من الوقت أمام الانترنت بالتدرج للوصول لنفس الدرجة من الرضا التي تم اختبارها عند البداية. بالإضافة للتناقص المستمر للتأثير الممتع لهذا السلوك باستمرار ممارسته.

(2) ظهور أعراض الانسحاب:

- ظهور بعض الأعراض على الطفل عند توقفه عن الدخول إلى الانترنت لدرجة أن التوقف يحدث نوعاً من الإعاقة لأنشطته التعليمية والاجتماعية.

- وجود رعشة في الأيدي وقلق وتوتر وانشغال فكري شديد بالانترنت وما يحدث فيه. قد يكون هناك أيضاً أحلام أو خيالات عن الانترنت. في بعض الأحيان يمارس الطفل بعض الحركات بأصابعهم تشابه النقر على أزرار لوحة المفاتيح.

- ظهور آلام في الظهر والرقبة، والتهاب العينين مع وجود الإثارة الجنسية والكبت الجنسي.

- التعرض لمخاطر الإشعاعات الصادرة عن شاشات أجهزة الاتصال الحديثة، وأيضاً تأثير المجالات المغناطيسية الصادرة عن الدوائر الالكترونية.

(3) استخدام الانترنت لفترات أطول من المخطط:

- على سبيل المثال أول ما يفعله الطفل المدمن في الصباح هو الدخول على الانترنت بغرض اللعب بالألعاب الإلكترونية، فيخصص لذلك نحو نصف ساعة، ثم ينسى نفسه ليفيق بعد قضاؤه خمس ساعات مثلاً.

- عدم الإشباع من استخدام الإنترنت وقضاء أوقات طويلة مع الشبكة.

- الشعور بالرغبة في الدخول إليها عند تركها.

- إدمان ألعاب الكمبيوتر الزائد عن الحد. Computer addiction.

4) التضحية بأنشطة هامة: تكون هذه الأنشطة تعليمية اجتماعية وترفيهية بسبب ضياع الوقت في الانترنت.

- تدني المستوى الدراسي.

- انخفاض الاهتمام بممارسة الهوايات.

- الابتعاد عن الأصدقاء.

4) أسباب إدمان الأطفال على الأنترنت:

إذا استعرضنا الأسباب التي تدفع بالطفل إلى الوقوع في براثن الإدمان على الانترنت سنجد بعضا منها

يتمثل في: (4)

* الفراغ العاطفي؛ فالطفل لا يجد الأبوين بجانبه كثيرا، فكأنهما عوضاه ذلك بشبكة الإنترنت والأجهزة الإلكترونية الحديثة.

• المشاكل الأسرية التي تحدث في وسط البيت، لا يملك الطفل إزاءها إلا الانزواء في عالم الشبكة لاعبا ومتسليا.
• المشاكل الصحية والنفسية؛ فكثير من الأطفال لا تسعفهم ظروفهم الصحية في الانخراط مع زملائهم في اللعب والجرى في الهواء الطلق فيعوضون ذلك بعالم الإنترنت.

2- الشبكة والوقت: لا شك أن التعامل مع شبكة الإنترنت يمتص الوقت كله، إلى درجة أن الإحساس بالوقت ينعدم لدى الطفل، فلا يدري متى انتهت الساعة الأولى ودخلت الثانية، بل لا يدري في بعض الأحيان متى انتهى النهار ودخل في الليل، وساعة حصة الرياضيات تصبح أثقل عليه من أربع ساعات أمام الإنترنت. ومع نسبة الزمان يذوب وقت الطفل ويموت تماما.

3- الإنترنت والمشاهد الإباحية: في الطفل حواس موجودة فيه بالفطرة، وتفعل فعلها فيه بسعيها نحو القيام بما لأجله وجدت، فالعين يجب أن ترى، والأذن يجب أن تسمع، واليد يجب أن تلمس، والرجل يجب أن تمشي وهكذا... فلا مجال للشك إذن، في أن وعي الأطفال يتشكل من المشاهد والرؤى والمسموعات والملموسات...
4- الإنترنت والمعرفة: تؤكد مجمل الدراسات على إيجابية التعامل مع شبكة الإنترنت من الناحية المعرفية، لكن الأهم هو تحديد مفهوم المعرفة المراد جنيها والتي تخص الطفل.

توفر الشبكة كمية هائلة من المعلومات، وهذا وإن كان إيجابيا من وجه، فهو مزعج بالنسبة للاستعدادات العقلية للأطفال... فعقل الطفل لا يمكنه أن يستوعب هذا الكم الهائل من المعلومات. ومعلوم تربويا أن تحديد سنّ التمدرس مع انتقال الطفل من مستوى إلى آخر، هو بحسب القدرات العقلية والمعلومات التي تليق بذلك المستوى. لذلك مال بعض الباحثين إلى الكلام عن المراحل العمرية للطفل، حين يكون له استعداد للتعامل مع الشبكة ومع المعلومات المتدفقة، ثم هل يستقيم تعليميا وتربويا أن نجعل من معلومات الشبكة بديلا للمعلومات العلمية والمعرفية التي يأخذها في المدرسة؟ أو أن يأخذ حريته كاملة في التعامل مع هاته وتلك؟

5) نظريات حول إدمان الطفل على الأنترنت:

تختلف النظريات حول طريقة تعامل الأطفال إلى ثلاثة اتجاهات: (5)

*الاتجاه الأول: يرى أن تعامل الأطفال مع الشبكة يجب أن يكون مفتوحاً ولا يتقيد في ذلك بسنّ معين، لأنه لا وجود لسن قانوني أو أخلاقي أو ديني يمنع الطفل أو يحد من إقباله على الشبكة.

*الاتجاه الثاني: يطالب بتحديد سنّ معين لذلك، ووضع حد زمني صارم لتعامل الطفل مع الشبكة حتى لا يكون على حساب واجباته المدرسية، وعلى حساب صحته وتربيته. ويتم كل ذلك تحت مراقبة الآباء.

*الاتجاه الثالث: يذهب إلى حد منع الطفل مطلقاً من التعامل مع شبكة الإنترنت، وهو توجه يمارس أسلوبين كلاهما مرّ؛ الأول يتمثل في إبعاد الطفل ومحاوله شحن دماغه بسلبيات الإنترنت، والثاني يتمثل في إبعاد الإنترنت عنه، والمبرر في ذلك هو الأخذ بالقاعدة الأصولية "سد الذريعة"، غير أنه إن استهدى إلى غلقها فيما لا ينفع، فإنه سدها فيما ينفع.

1) دراسة الباحثة يونغ: (6)

قامت الباحثة يونغ في التسعينات بأول دراسة موثقة عن إدمان الإنترنت، شملت حوالي 500 مستخدم للإنترنت، تركزت حول سلوكهم أثناء تصفحهم شبكة الإنترنت، حيث أجاب المشاركون في الدراسة بنعم على السؤال الذي وجه لهم وهو: عندما تتوقف عن استخدام الإنترنت، هل تعاني من أعراض الانقطاع كالاكتئاب والقلق وسوء المزاج؟

وقد جاء في نتائج هذه الدراسة أن المشمولين في الدراسة قضوا على الأقل 38 ساعة أسبوعياً على الإنترنت، مقارنة بحوالي خمس ساعات فقط أسبوعياً لغير المدمنين. كما أشارت الدراسة أن من يمكن وصفهم بمدمني الإنترنت، لم يتصفحوا في الإنترنت من أجل الحصول على معلومات مفيدة لهم في أعمالهم أو دراساتهم، وإنما من أجل الاتصال مع الآخرين والدرشة معهم عبر الإنترنت.

2) دراسة منظمة «أنقذوا الأطفال»: (7)

في دراسة أجرتها منظمة «أنقذوا الأطفال» العالمية Save the Children، على معلمي المرحلة الابتدائية في بريطانيا، تبين أن تكنولوجيا الاتصال الحديثة خلقت جيلاً من الأطفال يعاني من الوحدة وعدم القدرة على تكوين صداقات.

وجاءت النتائج بعد استطلاع أجراه الباحثون على عينة من 100 معلم، حيث أكد 70 بالمائة منهم أن قضاء أوقات طويلة تصل لدرجة الإدمان بشكل منفرد مع التكنولوجيا وبخاصة شبكة الإنترنت قد أثر سلباً على مهارات الأطفال الاجتماعية.

كما أظهر البحث أن استخدام قاعات الدردشة على الإنترنت وألعاب الكمبيوتر والهواتف الجواله وغيرها من

أنواع تكنولوجيا الاتصال الحديثة، قد جعل من الصعب جداً على الأطفال التفاعل مع بعضهم البعض، وبالتالي تدهورت مهاراتهم الاجتماعية، الأمر الذي جعل البعض منهم يقومون بسلوكيات سيئة وغير اجتماعية، بينما يلجأ البعض الآخر لاستخدام أسلوب الترهيب واستعراض القوة في التعامل مع أقرانهم بدلاً من التعايش معهم بشكل صحيح .

كما أشارت الدراسة الى أن تدهور قدرة الأطفال على اللعب وخلق صداقات مع أقرانهم في السنوات الأولى من عمرهم سيجعل من الصعب عليهم تكوين علاقات طويلة المدى مع زملاء العمل في المستقبل .

(3) دراسة حول الألعاب الإلكترونية وتأثيرها على الأطفال في اليابان: (8)

في عام 1997 تم رصد أكبر عدد من الحالات المرضية التي سببتها هذه الألعاب في اليابان ، فقد أصيب ما يقرب من 700 من الأطفال ، وهرع بهم أهليهم إلى المستشفيات وهم يعانون من نوع من الصرع الذي يحدث نتيجة لمنبه بصري، بسبب تعرضهم للفلاشات المتلاحقة من الضوء عند ممارستهم للعبة " البوكيمان " في ألعاب الفيديو ، والتي نزلت إلى الأسواق آنذاك .

وكانت نوبات الصرع وبعض المضاعفات الجانبية الأخرى حافزا لان يصاحب كل لعبة جديدة من " العاب الفيديو" تحذير بالأعلى يجلس أمامها المستخدم لمدة طويلة.

وقد اشتكى بعض الآباء من أن جلوس أبنائهم أمام هذه الألعاب لمدة 15- 30 دقيقة ، يحدث لهم نوعا من الدوار والغثيان نتيجة للحركة السريعة على الشاشة التي تؤثر على التوازن البصري.

هذه دراسات علمية حول إدمان الطفل على الانترنت، غير أن هذه العينات تنتمي إلى غير بيئتنا، فتطبق الدراسة على أطفال من بلجيكا أو فرنسا أو أمريكا أو اليابان، ثم تؤخذ نتائجها ويزج بها في ثقافة عالمنا الإسلامي .

والواقع أن مثل هذه الأبحاث يسترشد بها، ويجب -في المقابل- أن نقيم دراسات علمية محلية تعنى بشؤون أطفالنا في العالم الإسلامي، وهي وضعية مختلفة عن وضعيته في الغرب. ثم إن وضعية الطفل في جهة من العالم الإسلامي ليست نفسها في جهة أخرى؛ فالعينات التي تختار للدراسة، يجب أن تكون من المجتمع المراد تطبيق الدراسة عليه، ثم يجب أن تمثل كل شرائح المجتمع.

تبقى نسبة الأحكام في هذا الموضوع مطروحة، فحالات الأطفال مع الإنترنت تختلف من طفل لآخر، ومن أسرة لأخرى، لذلك يتوجب النظر في كل حالة على حدة.

• هناك حالات يؤثر عليها الإنترنت صحياً وأخرى لا يؤثر عليها.

• هناك حالات تبدو أكثر نجاعة وأكثر اجتهاداً ومردودية حين تتعامل مع الشبكة، وهي بخلاف الحالات التي يزيد بها التعامل تكاسلا وتقهقراً.

• حالات يسبب لها الإنترنت مشكلاً أخلاقياً وعائلياً، وأخرى هي تحت السيطرة والتوجيه.

(6) جرائم الأنترنت ضدّ الطفل: (9)

قد يتعرض الأطفال عند استخدام الانترنت إلى عدد من المشاكل لا يمكن حصرها، إما بالدخول إلى مواقع لا تناسب عمرهم أو تتصف بالعنف أو تحمل الكثير من ألوان الاستغلال الجنسي، أو الاستغلال من قبل شخص غريب بأخذ معلومات مهمة تخص الآباء وربما الجوانب المالية مما قد يعرضهم للسرقة. تختلف جرائم الانترنت بحسب الأهمية، والنوع والثقافة الفكرية المحيطة بالمجتمع. فقد عرفت الاتفاقية الأوروبية حول جرائم الانترنت، التي صادق عليها المجلس الأوروبي في بودبست في 23 نوفمبر 2001 والتي تعتبر من أكثر التشريعات تطورا، حيث قامت بوضع أربعة أنواع هي:

* الجرائم التي تمس سرية وأمن وسلامة الكمبيوتر ومنظوماته.

* إساءة استخدام الأجهزة (جريمة التزوير المتعلقة بالكمبيوتر، جريمة النصب والاحتيال).

* الجرائم المتعلقة بالانتهاكات الخاصة بحقوق الطبع والنشر.

* الجريمة المتعلقة بالرغبة الجنسية (الجرائم المتعلقة بالأعمال الإباحية للأطفال.

إحصائيات جرائم الانترنت:

ارتفعت حالات استغلال الأطفال جنسيا عبر شبكة الانترنت حول العالم بشكل كبير. بحيث تزايد عدد المواقع الإباحية لاستغلال الأطفال بنسبة 400 بين سنة 2004 وسنة 2005. فوصل إلى 3433 موقعا سنة 2004. كما بلغ دخل تجارة الجنس عبر الانترنت سنة 2006، 97.06 مليار دولار منها 3 مليارات خاصة بالاستغلال الجنسي للأطفال.

لما عدد القوائم العربية الإباحية في موقع ياهو فقد بلغ 171 قائمة، بلغ عدد أعضاء أقل تلك القوائم 3 في حين وصل عدد أكثرها إلى 8683. أما موقع قلوب لست فقد احتوى على 6 قوائم إباحية عربية، في حين وجد عدد 5 قوائم عربية إباحية على موقع تويكا.

(7) تأثير الأنترنت على الطفل: (10)

يمكن الجزم بأن نظرة مجمل الأطفال إلى الإنترنت إيجابية للأسباب الآتية:

- العالم كله أمامه من دون حدود ولا قيود.
 - يجاور أطفالاً من مختلف الأجناس والأعمار ذكورا وإناثا.
 - إرسال رسائل سريعة وتلقي أجوبة سريعة أيضاً.
 - سيادة طابع التكنم والسرية في التعامل.
 - السماع إلى كل اللغات والأصوات بما فيها الموسيقى والألحان.
 - التسلية بألعاب وأفلام وقصص كثيرة من مختلف الأنواع.
 - الاعتماد على الذات في الإقبال على الإنترنت وعالمه.
 - الاستعانة به في الدروس والفروض المنزلية.
- هكذا يرى الأطفال أن الإنترنت ضروري في حياتهم ، أما الكبار فلا يرون غضاضة من تلبية حاجات أولادهم،

ويرجعون سبب ذلك إلى ما يلي:

- أ- إرضاء الأطفال ومجتمع البيت، فأمام الإلحاح والطلبات يسعى الآباء إلى الاقتناء.
- ب- ولوج عالم المعرفة وهي فرصة يمنحها الإنترنت.
- ج- طابع المنافسة الجارية بين الأسر والجيران.

أما الآثار السلبية فتشمل في: (11)

* أن انشغال الطفل واندماجه مع الإنترنت وإهدار الكثير من الوقت يأتي دائماً على حساب علاقاته الاجتماعية والأسرية، ومع الوقت ينسى الطفل هذه العلاقة بين والديه وإخوانه ومن ثمَّ يكون هناك انفصال وتفكك في العلاقات يترتب عليها شعور الطفل بالأنانية والفردية والبعد عن المشاركة الاجتماعية، وهذا يخلق جيلاً فاقداً لمهارات التواصل الاجتماعي، إلى جانب التشتت وعدم الانتباه وتلفظ الأطفال بألفاظ بذيئة وانخفاض مستواه التحصيلي والدراسي.

* أن إقبال الأطفال بهذه الشراهة على الإنترنت سيؤدي حتماً إلى تهديد الأطفال بالإصابة بالعديد من الأمراض الصحية والنفسية الناتجة عن انفصاله التام عن حياته الواقعية، وقطع علاقاته بالمحيط الخارجي من حوله، كما أن تعرض الطفل لفترات طويلة للكمبيوتر قد يصيبه بالاكتئاب؛ خاصة وأن إدمان الأطفال للإنترنت من أكثر الأشياء التي تفسر انتشار الاكتئاب بين الأطفال بصورة ملحوظة.

كذلك ظهور بعض المشكلات النفسية التي اقترنت باستخدام الكمبيوتر مثل "انطوائية الكمبيوتر" التي تصيب المدمنين الذين يرغبون في الهروب من واقعهم، وكذلك الذين يتوحدون مع الجهاز ويستعصمون به عن الأنشطة الاجتماعية الأخرى؛ ما يؤدي إلى انخفاض مهارات التواصل الاجتماعي مع الآخرين.

(8) أبعاد الهجمات الأنترنتية على الأطفال: (12)

من بينها ما يلي:

- (أ) البعد الاقتصادي: فمحمل الأفلام والمسلسلات هي للتسويق والريح، لا يهتمها المحتوى مما يشكل ضرراً على الأطفال. وقد انخرط الآباء في هذه المضاربة حين داوموا على إرضاء رغبات أولادهم دون النظر في أبعاد هذه الآفة.
- (ب) البعد السياسي: حيث تسيطر نماذج فكرية معينة وشخصيات وطقوس، بما مضامين غير بريئة تضعف من شخصية الطفل وتراثه ودينه، ناهيك أن البعض منها لا يخفي عداوته للخصوصية الإسلامية.
- (ج) البعد الحضاري والثقافي: حيث تطل الحضارة الغربية ببريق مدينتها لتدغدغ أحلام طفولتنا البريئة، وتمارس ضرباً من التربية غير المباشرة للطفل وهو بين أحضان والديه.

(د) البعد الديني: حيث تأخذ بعض الأفلام والألعاب والمسرحيات والقصص الموجهة للأطفال بُعدًا دينيًا، فهي توجه الأطفال نحو المسيحية أو اللائكية، وحتى الإلحاد والزندقة. وما ذكرناه في هذا البعد، لا يهم طفلنا في العالم الإسلامي وحده، بل يهم كل أطفال العالم. فلا بد من احترام خصوصية الطفل أينما كان.

9) التربية ودورها في مكافحة الظاهرة: (13)

حينما يثار الإشكال لا نحدد من المسؤول، إما أن نقول إنها مسؤولية الشبكة فهي وحدها تتحمل الوزر والتبعات، أو نقول إنها مسؤولية الطفل بفعل رغباته وارتباطه المدمن بالشبكة، والبعض يقول إنها مسؤولية الجميع. الواقع إنها قضية تربوية بالأساس. ويحصر البعض التربية في الاعتناء بالطفل من جهة الأكل والشرب واللباس والتداوي والت مدرس ومجمل الحاجيات المادية فقط، لكن المفهوم الصحيح للتربية يبقى ناقصًا ما لم نأخذ بعين الاعتبار المحيط العام للطفل، ومنه الشارع والمدرسة وعالم الإنترنت.

التربية هي أساس التوجيه والتقويم والتهذيب والتكوين، وباختصار هي أساس "التنمية البشرية". إذا كانت التربية بهذه المواصفات الإيجابية، كيف نساهم بها في حل هذه المعضلة؟

الكبار مكون أساس في المعادلة، والمبرر في ذلك ما يلي

- أ- الشبكة هي آلة، تستخدمها ما شئت وتتركها ما شئت، الإنسان هو الذي يتحكم فيها.
- ب- الطفل هو إنسان صغير ليس مسؤولاً عن نفسه، إنه رهن التكوين والتشكل بفعل التربية. وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة وأخرجه البخاري: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه."

من هذا المنطلق نحدد ما يجب القيام به تربويًا لمعالجة هذه الظاهرة فيما يلي:

التربية بالقدوة: لا يميل كثير من الآباء إلى الاعتراف بتقصيرهم تجاه الطفل -من هذا الجانب- حين يحملون الدولة أو الشارع أو المجتمع المسؤولية عن هذا الموضوع، وإذا كانت المسؤولية الأولى ترجع للآباء فهي ترجع إليهم من جهة الأسوة والقدوة. والسؤال المطروح هنا: كيف يتعامل الكبار مع الشبكة؟

مراعاة المقاصد والأهداف: يربى الطفل لأهداف ومقاصد معينة، من هنا فإن الإقبال على الإنترنت لا يجب أن يكون مجرد الإقبال، إلا إذا كان دروسًا تطبيقية تلقن الطفل مبادئ التعامل مع الإنترنت، وهي خطوة أولى نحو توظيف شبكة الإنترنت في تنمية المدارك الروحية والتربوية والعلمية والمعرفية للطفل.

المراقبة العامة: مراقبة الأطفال جزء من العملية التربوية التي تقتضي متابعة الطفل زمانًا ومكانًا وموضوعًا، وهو ما يطلق عليه "التربية العامة".

نعني بـ"الزمن" متابعته في كل أطوار نموه، وعبر الأدوار التي يقطعها في حياته، لأن الانحراف لا سنّ له.

نعني بـ"المكان" متابعتة في كل الأمكنة التي يسلكها، مثلما يجب توجيهه إلى المكان المناسب يجب تحذيره من المكان غير المناسب.

ونعني بـ"الموضوع" إثارة الموضوعات الضرورية في حياته ليهتم بها ويدركها، مثل المحافظة على علمه ودينه وصحته مع ضبط علاقته مع الله والإنسان والمحيط.

الحصانة الذاتية: التربية العامة من شأنها أن توصل إلى نوع مهم في التربية: الحصانة الذاتية.

صحيح أن مصاحبة الأطفال ومراقبتهم يجب أن تكون دائمة ومسترسلة، لكن هذا يتعذر على البعض؛ إذ لا يمكنهم مصاحبة أبنائهم أينما حلوا وارتحلوا، وهذا النوع من التربية يجعل الطفل يراقب نفسه بنفسه، ويسعى جاهداً إلى مراقبة نفسه وتوجيهها، حتى إذا رأى شيئاً غير مُرضٍ عرضه على آباءه ومربيه. فعلى الآباء والمربين أن يمارسوا أسلوب التصفية - لا الحرمان - فيحرمون الطفل من مشاهدة التلفزيون والسينما والمسرح أو شبكة الإنترنت، وهذا أسلوب مدمر لرغبات الطفل. فإذا خيف على الطفل من التعامل مع هذه الوسائل - وهو صغير - أصبح مدمناً عليها وهو كبير، وقد ينحرف في كبر سنّه، فكأنه يحاول تعويض ما فاته في الصغر.

إن أسلوب التصفية والغربة يكتسب عند الطفل بفعل التوجيه، وهذا يتطلب من المربي أن يشارك الطفل في تصفح المواقع ومشاهدة مواضيعها، حتى إذا كان فيها ما لا يسرّ أعرض عنه وأصدر حكماً عليه، وهذا من شأنه أن يزرع في الطفل الثقة في النفس في الحكم على القضايا.

وبخصوص الأفلام الكارتونية التي يكثر أطفالنا من مشاهدتها، يجب بث الوعي لديهم على أنها ليست حقيقة، وكذلك السينما هي مجرد تصوير يتم بصنعة تقنية فائقة... حتى لا يختلط لديه الخيال بالواقع، وأن كل هذا - وإن تناول قضايا واقعية وعالج مسائل اجتماعية - فهو لأجل الترفيه فلا يأخذ منا كل الوقت والجهد. ثم يجب بث الوعي لديه أن وراء كل هذا أرباحاً اقتصادية مثل الإشهار. بهذا يكون الطفل حاكماً على كل المشاهد عوض أن يكون كتلة مستلبة.

10) طرق الوقاية والعلاج من إدمان الأطفال على الأنترنت:

هناك عدة طرق لعلاج إدمان الأنترنت، أول ثلاث منها تتمثل في إدارة الوقت، ولكنه -عادة- في حالة الإدمان الشديد لا تكفي إدارة الوقت؛ بل يلزم من المريض استخدام وسائل أكثر هجومية:

أ - عمل العكس :

فإذا اعتاد الطفل استخدام الأنترنت طيلة أيام الأسبوع نطلب منه الانتظار حتى يستخدمه في يوم الإجازة الأسبوعية، وإذا كان يفتح البريد الإلكتروني أول شيء حين يستيقظ من النوم نطلب منه أن ينتظر حتى يفطر، ويشاهد رسوم الصباح، وإذا كان الطفل يستخدم الكمبيوتر في حجرة النوم نطلب منه أن يضعه في حجرة الجلوس... وهكذا..

ب - إيجاد موانع خارجية: نطلب من الطفل ضبط منبه قبل بداية دخوله الإنترنت بحيث ينوي الدخول على الإنترنت ساعة واحدة قبل نزوله للعب مثلاً. حتى لا يندمج في الإنترنت بحيث يتناسى موعد لقائه مع أصدقائه.

ج- تحديد وقت الاستخدام: يطلب من الطفل تقليل وتنظيم ساعات استخدامه بحيث إذا كان -مثلاً- يدخل على الإنترنت لمدة 40 ساعة أسبوعياً نطلب منه التقليل إلى 20 ساعة أسبوعياً، وتنظيم تلك الساعات بتوزيعها على أيام الأسبوع في ساعات محددة من اليوم بحيث لا يتعدى الجدول المحدد.

د - الامتناع التام: كما ذكرنا فإن إدمان بعض الأطفال يتعلق بمجال محدد من مجالات استخدام الإنترنت. فإذا كان الطفل مدمناً على حجرات الحوارات الحية نطلب منه الامتناع عن تلك الوسيلة امتناعاً تاماً في حين نترك له حرية استخدام الوسائل الأخرى الموجودة على الإنترنت.

هـ- إعداد بطاقات من أجل التذكير: نطلب من الطفل إعداد بطاقات يكتب عليها خمساً من أهم المشاكل الناجمة عن إسرافه في استخدام الإنترنت كتقصيره في أداء واجباته مثلاً ويكتب عليها أيضاً خمساً من الفوائد التي ستنتج عن إقلاعه عن إدمانه مثل زيادة اهتمامه بدروسه، ويضع الطفل تلك البطاقات في جيبه أو محفظته حيثما يذهب بحيث إذا وجد نفسه مندجماً في استخدام الإنترنت يخرج البطاقات ليذكر نفسه بالمشاكل الناجمة عن ذلك الاندماج.

و - إعادة توزيع الوقت: نطلب من الطفل أن يفكر في الأنشطة التي كان يقوم بها قبل إدمانه للإنترنت؛ ليعرف ماذا خسر بإدمانه مثل: قراءة القرآن، والرياضة، وقضاء الوقت بالنادي مع الأسرة، والقيام بزيارات اجتماعية وهكذا.. نطلب من الطفل أن يعاود ممارسة تلك الأنشطة لعله يتذكر طعم الحياة الحقيقية وحلاوتها.

ز - الانضمام إلى مجموعات التأييد: نطلب من الطفل زيادة رقة حياته الاجتماعية الحقيقية بالانضمام إلى فريق الكرة بالنادي مثلاً أو إلى درس لتعليم الخياطة أو الذهاب إلى دروس المسجد؛ ليكون حوله مجموعة من الأصدقاء الحقيقيين.

ح- المعالجة الأسرية: في بعض الأحيان تحتاج الأسرة بأكملها إلى تلقي علاج أسري بسبب المشاكل الأسرية التي يحدثها إدمان الإنترنت بحيث يساعد الطبيب الأسرة على استعادة النقاش والحوار فيما بينها ولتقتنع الأسرة بمدى أهميتها في إعانة الطفل؛ ليقلع عن إدمانه. (14)

(11) حماية الأطفال من الإنترنت: (15)

(أ) على المستوى التقني:

-وضع برامج عالمية وظيفتها غريبة المحتوى والتنقية المنزلية.

- خلق حساب خاص بالأطفال دمن ان يكون بديلا عن وعي الأهل من مهامه:

* يغربل المواقع

* يمنع الرسائل المتبادلة عبر شبكة نقل الأخبار.

* يغربل البريد الإلكتروني مع قواعد مشددة على المضمون.

(ب) على المستوى التشريعي:

* إدخال تعديلات على النصوص القانونية المتعلقة بجرائم المعلوماتية

* تنظيم عمل مقاهي الإنترنت ومراكز الألعاب الإلكترونية ووضع شروط لتشغيلها وفرض الرقابة عليها.

(ج) على المستوى الوقائي:

* تشجيع إنشاء مراكز الإنترنت في البلديات تكون تحت رعاية ورقابة البلدية بإشراف الراشدين المدربين، مع إتاحة

استعمال الإنترنت لأكثر عدد ممكن من الأطفال.

* اقتراح إقامة برامج توعية للأهل والأطفال في المدارس وفي الجمعيات الأهلية حول قواعد ونظم حماية الأطفال

من مخاطر الإنترنت.

(د) على المستوى القانوني:

إضافة مواد في قانون المعاملات الإلكترونية يتضمن تشديد العقوبة والغرامة في حال التعرض الأطفال إلى أخطار

الإنترنت.

خاتمة:

في الأخير نستعرض ما يجب على الآباء فعله إزاء هذه الظاهرة كما نقدم بعض البرامج التي تساعد على حماية أطفالهم. بحيث يجب؛

- تعرف الآباء على جديد البرامج التي تتيح لهم رقابة على جهاز الكمبيوتر.

- العودة إلى ذاكرة الكمبيوتر وتصفح المواقع التي تمت زيارتها.

- تهيئة الطفل على أن الإنترنت هو مكان للتعلم واكتساب المعرفة لا للتواصل فحسب.

- التأكيد على الأطفال بعدم إعطاء أية معلومات كالاسم، العنوان، رقم الهاتف، اسم المدرسة، أو أية تفاصيل أخرى في حالة التواصل مع أي أحد.

- على الآباء تذكير أبنائهم بعدم الموافقة على مواعدة أي شخص تحت أي ظرف من الظروف.

أهم البرامج والمواقع لحماية الأطفال: (16)

1/ برنامج Cyber Patrol أحد أفضل البرامج للحماية من الوصول إلى المواقع غير المرغوب فيها. عنوان

الموقع: www.microsys.com

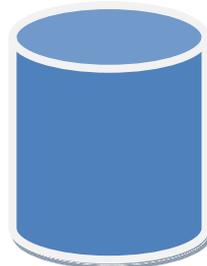
2/ برنامج Cyber sitter يحمي الأطفال من الوصول إلى المواقع غير المرغوب فيها ويمنع عرضها على

الشاشة. عنوان الموقع: www.solidoak.com

3/ موقع www.safespace.qa/CSK/ar/Home.aspx

4/ برنامج K9 لحماية الطفل من المواقع الخطيرة: www1.k9webprotection.com

- 5/ برنامج windows family safty وهو برنامج يحمي الأطفال من خطر الأنترنت من خلال مراقبة إرسال الرسائل.
- 6/ محرك البحث www.kidrex.org يقوم هذا المحرك تلقائيا بحجب المواقع الخطرة على الأطفال.
- الهوامش:
- 1) ارنولد واشنطون إرادة الإنسان في علاج الإدمان ، ترجمة : صبري محمد حسن ، المشروع القومي للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1990م. ص. 09.
 - 2) محمود عبد الهادي، إدمان الأنترنت وآثاره الجسدية والنفسية، دار الهدى للنشر، 2007م. ص. 67.
 - 3) المرجع نفسه. ص. 86.
 - 4) محمد مهدي الجميلي، علوم الإدمان على الأنترنت ميزة الحضارة الجديدة أم مرضها، جريدة الصباح ، جريده سياسية يومية عامة ، شبكة الإعلام العراقي. 2008م. ص. 09.
 - 5) محمد خروبوات ، الطفولة والإدمان الإلكتروني، دار العلم للنشر، مراكش المغرب، 2010م. ص. 102.
 - 6) محمود عبد الهادي، مرجع سابق. ص. 165.
 - 7) المرجع نفسه. ص. 168.
 - 8) أحمد فخري، الأدمان على الأنترنت، جامعة عين شمس. 2008م. ص. 199.
 - 9) روان أحمد الدوهان ، دليل السلامة لاستخدام الأنترنت، مركز التميز، ص. 22.
 - 10) محمد خروبوات، مرجع سابق. ص. 132.
 - 11) محمود عبد الهادي، مرجع سابق. ص. 179.
 - 12) محمد خروبوات، مرجع سابق. ص. 155.
 - 13) المرجع نفسه. ص. 160.
 - 14) نادية العوضي، الإدمان على الأنترنت، مؤسسة الرشد للطباعة، بيروت، 2009م. ص. 225.
 - 15) حماية الأطفال من سوء استخدام الأنترنت واستغلالهم. سناء عواضة. الجمهورية اللبنانية، وزارة الشؤون الاجتماعية، المجلس الأعلى للطفولة. ص. 10.
 - 16) روان أحمد الدوهان، مرجع سابق، ص. 29.



" المضامين الإنسانية في ديوان الشمس اليتيمة ل نزار الملحون "

أ. عامر رضا.
المركز الجامعي - ميلة.

*- الملخص:

إنّ الشعر الشعبي الجزائري نموذج من النماذج الراقية في عرض التجربة الإنسانية وإبراز مختلف انطلاقاتها، ومضامينها التي تعكس واقع الشاعر الشعبي من خلال تراثه، وما يصوره من آهات، وهو اجس إنسانية للفرد الشعبي الجزائري، فكان الشاعر الشعبي حينها هو صوت الشعب الذي يتحدث بلسانه شعرا.

*- مدخل:

إنّ الحديث عن الشعر الشعبي الجزائري، وما يحويه من موضوعات ذات مضامين إنسانية نجد قد فرضتها الحاجة الشعبية الملحة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالبحث في القيم الثقافية والاجتماعية من حبّ و كراهية و صداقة و وفاء و خيانة..، وما تعكسه من هواجس و متطلبات يعيشها الإنسان الشعبي داخل مجتمعه القبلي، والبحث في مجالها يعدّ بحثا أصيلا مرتبطا بواقع تلك القيم، وكيف يتلقها ويعيش داخلها الفرد الشعبي داخل مختلف الطبقات الاجتماعية، وفي خضم هذا التهافت الاجتماعي، فالأدب الشعبي الجزائري كغيره من آداب الأمم والشعوب، نجده يمتاز بالتعددية والتنوع من حيث أشكاله التعبيرية، لكونه مرتبطا ارتباطا عضويا بمحوم هذا الإنسان الشعبي، وآماله في حركيته الثقافية الاجتماعية السياسية والنفسية داخل فضاءه الجغرافي الذي يحده ويميزه التنوع، والتعدد مما شكل في نهاية الأمر تراكما معرفيا متعدد الأصول والمرجعيات والذي تكون منه الموروث الثقافي الشعبي الجزائري، وما يحويه من قيم وسلوكيات، عبر عنها الشاعر الشعبي في كلّ مراحل الحياة الشعبية، وداخل طبقاتها المتنوعة.

وعليه كان الشعر الشعبي الجزائري، وما زال وسيلة يفصح من خلالها الشعراء على انتماءاتهم ويقرون بالحيط الذي ولدوا وترعرعوا فيه، ويستلهمون منه أفكارهم، وهكذا شأن الشعراء منذ نشأة الشعر، فالشعراء الشعبيون الجزائريون رهنوا حياتهم وأقلامهم لتجسيد ذواتهم وأحلام الإنسانية من خلال مزج فنيات التداخل والتمازج بين حاجيات الفنية وقوة أسلوبهم في التعبير عن مكونات الذات التي تعكس مكونات (العرش) الذي يذودون عنه في الحرب والسلم، فكان حينها الشعر الشعبي الجزائري مشهدا فنيا يعكس مختلف الظواهر الاجتماعية والإنسانية التي احتفى بها الفرد الشعبي الجزائري، هذا ما جعل شعرهم الشعبي يجد الرواج والقبول من مختلف الطبقات الشعبية لأنه يذود عن تلك القيم الإنسانية النبيلة، وعليه نجد العديد من الشعراء الشعبيين القدامى والمحدثين ممن جادت قرائحهم شعرا إنسانيا راقيا يكاد يضاهي الشعر الرسمي، ونذكر من أمثال هؤلاء: سعيد بن عبد الله المنداسي، الشيخ عبد القادر بطبجي، "أبو عبد الله محمد بن مسايب"، سيدي لخضر بن خلوف، "توفيق

ومان"، و"حسان درنون البسكري"، وقاسم شيخاوي الملقب بـ نزار الملحون الذي كتب مدونة شعرية شعبية بعنوان "الشمس اليتيمة"، وهي محل الدراسة.

1- المحور الأول: الشعر الشعبي الجزائري وتوظيف القيم الإنسانية

لقد كان الشعر الشعبي وما زال وسيلة يفصح من خلالها الشعراء على انتماءاتهم و يقرون بالحيط الذي ولدوا وترعرعوا فيه، ويستلهمون منه أفكارهم، وهكذا شأن الشعراء منذ نشأة الشعر، فالشعراء الشعبيون رهنوا حياتهم وأقلامهم لتجسيد ذواتهم وأحلام الإنسانية من خلال مزج فنيات التداخل والتمازج بين حاجيات الفنية وقوة أسلوبهم في التعبير عن مكونات الذات/القبيلة التي يزودون عنها في الحرب والسلم، فكان حينها الشعر الشعبي الجزائري مشهدا فنيا يعكس مختلف الظواهر الاجتماعية والسياسية الثورية التي احتفى بها الفرد الشعبي الجزائري، هذا ماجعل شعرهم الشعبي والذي مازال أغلبه شفهيًا صعب التوثيق من قبل العديد من الباحثين، طبعًا الشعر الشعبي الجزائري مليء بمختلف المضامين الإنسانية التي تستند في فحواها إلى الذاكرة الفردية والجماعية في نقل الموروث لذلك غالبًا ما يأتي هذا الشعر تعبيرًا عن لاشعور جمعي ووعي جماعي مشترك، وإذا كان التدوين للشعر الشعبي الجزائري قد حفظ تلك المضامين عرف طريقه عند شعراء البادية، والمناطق الجبلية منذ القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فن الشعر الريفي لم يعرف التدوين إلا منذ عقد السبعينيات من القرن الماضي، ويعني هذا أن الشعر الريفي ظل شفويًا رهين الذاكرة والحفظ الذي طبعه بالزيادة والنقصان والتغيير من راو إلى آخر.

ولم يبدأ الشعر الشعبي الجزائري في تحريك ذاكرته إلا مع مطلع القرن العشرين مع الغزو الفرنسي للمناطق الجبلية والصحراوية بشكل كامل، حيث ارتبط بكل الأحداث التي عرفت كل ربوع الجزائر في تلك الحقبة الإستعمارية حتى مرحلة التدوين والكتابة، إذ يعرفه "عبد الحميد محمد" في كتابه "روح الأدب" على أنه «رباط وثيق بكل أمة يولد معها ويتزعرع بجوارها ويتربى في تربتها ويرضع من ثديها، ويجتر كل الحياة حلوها ومرها بلا تباطؤ، فإذا هو بعد ذلك أدب شعبي لصيق بهذه الأمة، مكين في روحانيتها متشبث في قاعدتها، فيصير ترجمة لها وعنوانا»⁽¹⁾.

إنّ هذه التعريفات المختلفة تتمحور على محور ثابت، وهو أنا الأدب الشعبي هو ذلك الأدب الذي أنتجه فرد داخل المجتمع ليعطي قالب شعبي يصور هموم وآلام تلك الجماعة لأنه مرتبط بالحياة الإنسانية داخل المجتمع ومرتبطة بقضايا الشعب والواقع الذي يعيش فيه، وللأدب الشعبي أهمية إذ يقول "محمد الجوهري" «لعل من أيسر الأمور على الباحث أن يدعي انتماء الأدب الشعبي إلى التراث الشعبي، ليس كميدان عادي، وإنما كواحد من أبرز موضوعاته وأكثرها عراقية»⁽²⁾.

1.1. مفهوم الشعر الشعبي الجزائري

لقد ارتبط مفهوم الشعر الشعبي الجزائري بالغناء والرقص و الموسيقى والاحتفال علاوة على ارتباطه بالأعياد الدينية كالمولد النبوي الشريف وأيام الصيف والحصاد وليالي السهرات وأيام الأفراح والأقراح وأثناء عودة الحجاج والحفلات الطقوسية مثل: "شارح ماجاح" عند الأمازيغ، وهذا الشعر يشارك في الاحتفال به الفلاح والراعي

والعامل البسيط والشارع ويسمى بـ"أمدياز" عند الأمازيغ، و"أردس" أو الرحابة لدى الشاوية (منطقة خنشلة) والمرأة والشابة والمجدد والشيخة والعجوز، وكانت تردد الأشعار في البيوت وفناء الدار "رمراح" والأضرحة والزوايا والمساجد وساحات القتال والأرض وأماكن الاحتفال وبلاد الغربية، وغالبا ما كان الليل هو وقت الإيزري والإنشاد وخاصة في ليالي الصيف بعد انقضاء الهجرة، واستراحة الناس وتجمعهم حول مائدة الشاي أو الطعام أو العشاء.

ويلاحظ أن الشفوية معيار لتقسيم الشعر الشعبي في الريف إلى شعر قديم "شعر شفوي بدوي" وشعر حديث "شعر مدون حضري"، كما أن هذا الشعر تغلب عليه وظيفتان أساسيتان وهما: الوظيفة الانفعالية التعبيرية عندما يبوح الشاعر بعواطفه ومعاناته وآلامه واغترابه الذاتي والمكاني ويصور لواعج الشوق والهوى والحب، ووظيفة مرجعية تتمثل في نقله للواقع بصورة أمينة وصادقة واختياره للمواضيع التي يواجهها الإنسان الريفي في واقعه، أي أن الشاعر الشعبي لبن بيئته البسيطة، لذا يعبر عنها بكل تلقائية وطوعية وطبع وارتجال سليقة معتمدا في ذلك على الإيزري أو البيت المستقل المفرد على غرار الشعر العربي الفصيح الذي يركز على استقلالية البيت في نظمه وتركيبه وإيقاعه.

والقصيدة الشعبية تعد مصدرا تشبع بها الشاعر الشعبي والمغني البدوي، فالأغنية البدوية تمثل زخما شعبيا هاما» ويرافق هذا الشعر الموسيقى البدوية المناسبة ما جعل الشعراء يلحنون فيه ألحانا بسيطة على طريقة الصناعة الموسيقية، ثم يغنون به ويسمون الغناء به اسم (الحوزي) نسبة إلى حوران من أطراف الشام، وهي منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد⁽³⁾، وقد اختلف الدارسون في تاريخ نشأة القصيدة الشعرية التي تكون قد زحفت من المناطق البدوية (الصحراوية) كما أكد على ذلك "عبد الرحمن بن خلدون" عندما ذكر منطقة "حوران" التي تعد من المناطق الصحراوية، وهذا ما يشير إليه صراحة الباحث الجزائري "العربي دحو" بقوله: «يمكن تصنيف الآراء التي تناولت هذا الموضوع إلى ثلاثة أصناف الأول: ويرى أصحابه وجود قصيدة شعرية شعبية في الجزائر قبل الفتح الإسلامي معتبرين أصولها منحدره من الشعر الأوروبي، بينهما يرى فريق آخر من أصحاب الرأي نفسه وجود شعر شعبي سابق للزخرفة الهلالية، ولكنه اندثر بعد الفتح الإسلامي، لأنه لا يتماشى مع المعتقدات الجديدة والثقافة الجديدة والمجتمع الجديد الذي ينشده الإسلام، والرأي الثاني يرى أصحابه أن القصيدة الشعبية ظهرت في الجزائر مع الفتح الإسلامي، بينما أصحاب الرأي الثالث فيروا بأنها ظهرت مع الزخفة الهلالية أو هي ثمرة للحملة الهلالية على الجزائر التي أدت إلى خدمة جلييلة للعربية ولسكان شمال إفريقيا الذين عربتهم بسهولة⁽⁴⁾.

وإن الباحث المتأمل في أنطولوجيا البيئة التراثية الجزائرية خاصة، يلاحظ بأنها تشكل مفارقة حقيقية في تناول التراث الذي تحتفظ به في مرجعياتها وتراكماتها التاريخية عبر الزمن اللامتناهي، ويرجع ذلك إلى سبب ظاهري لا يمكن أن نغض الطرف عنه بسهولة فالكل يعرف بأن التركيبة الاجتماعية للإنسان الشعبي الجزائري هي في الحقيقة بنية غير قارة، تتداخل وتتمازج فيها القبائل بسبب البنية الترحالية "le nomadisme" فخلق تدريجيا حالة من الصراعات والتناحرات بين القبائل، انعكست سلبيا في أكثر الأحيان على الإنسان والحيوان والحياة من جهة، واندثار التراث الفكري، والثقافي من جهة ثانية خاصة الشعري منه، ولكي يتم تجاوز هذه الحالة المتأزمة،

كان لا بد من التفكير في بوتقة يمكن أن تنصهر فيها كل هذه الصراعات وكل هذه الاختلافات، فكان الشعر الشعبي مركز التواصل اللغوي بين مختلف القبائل التي تعيش نفس الظروف التاريخية، والاجتماعية، والسياسية. وما زالت البيئة الشعبية في الجزائر تشكل جزءاً لا يتجزأ من النسيج البشري لسكانها من الناحية الشعرية والوجدانية، فهي تمثل الفضاء الرحب الذي تتلاقى فيه جلّ إبداعاتهم ومن الناحية الثقافية تمثل الوعاء والوسيلة الناقلة للأفكار، والتقاليد، والخبرات عبر الأجيال المتعاقبة على تاريخ الأمة، ومثلت من الناحية السياسية معالم الحدود الحقيقية للرقعة الجغرافية الوطنية والقومية، أما من الناحية السيادية فهي أهم أسس الهوية ومكونات الشخصية والوحدة الوطنية لأية مجموعة بشرية، تعيش في انسجام، والصحراء الجزائرية تمثل إرثاً حضارياً وإنسانياً هاماً، وعليه كانت المضامين الإنسانية التي انتشرت في القصائد الشعبية الجزائرية تعبر عن نوع من المأموم والآمال التي يتطلع إليها المجتمع الشعبي، ومختلف طبقاته.

1-2. المضامين الإنسانية في القصيدة الشعبية:

وعندما نتحدث عن اللغة كأداة للتواصل عند مختلف القبائل البدوية أو الحضرية، فإننا يجب أن نضع في الحسبان اللهجات المتداخلة مع اللغة الرسمية التي تنافسها بشدة مما يعيق باستمرار التواصل اللغوي بين مختلف المناطق الجزائرية خاصة الذين تنوع لهجاتهم، ولا يحسنون التخاطب باللغات الرسمية لبلداتهم، والمبدع الشعبي الجزائري في نهاية المطاف نجد «مسؤول عن تقدم مجتمعه وتأخره باعتباره مشاركاً فيه متأثراً به و مؤثراً فيه»⁽⁵⁾، وهكذا تتأكد لدينا هذه المشكلة التي تجعل من المتلقين للتراث الشعبي من الأنساق الاجتماعية في حالة تشوش تام، وعدم وضوح رؤية ما ينقلونه من تراث مادي إنساني، والمسؤولية ملقاة على عاتق الباحث خاصة «فيما يزود به المتلقي من معرفة وخبرة وتوجيه»⁽⁶⁾.

وقبل الخوض في مسألة العلاقة بين العمل الإبداعي والبيئة الاجتماعية يجدر بنا الإشارة إلى أنّ المبدع الشعبي فرد يعيش وسط جماعة من الناس، ويعبر عن ذاته كفرد اجتماعي بقصدية أو غير قصدية عن جملة الذوات الاجتماعية الأخرى فهو صوت الشعب الذي يعيش فيه ويتنفس أحلامه، وأحزانه، وأفراحه ضمن كل إنسان متفاعل وسط هذه التركيبة «مبلورا أرائها واتجاهاتها، مجسما آمالها ومعبرا عن واقعها، وعمّا تصبوا إليه انطلاقاً من الواقع وفي معركة الحياة والمصير»⁽⁷⁾، وعليه كان الشاعر الشعبي الجزائري في نفس مرتبة الشاعر الفصيح الذي يزود عن (عرشه) في السلم والحرب، ولا تثني عزيمته أية معضلة فهو بمثابة الصحفي في نقل الأخبار وتنفيذها، وهذا ما يجعل «مسؤولية الأديب أعظم شأنًا وأبعدها خطراً لأن الأديب وحده من دون سائر الفنون، يقوم على مادة الألفاظ اللغوية أي على مدلولات معنوية صريحة»⁽⁸⁾، وعموماً فإنّ «الاجتماعية للأدب تتجلى في نهوضه بأعبائه المعرفية، والفكرية، والتربوية»⁽⁹⁾، التي تعكس بكلّ صراحة، ووضوح قضايا المجتمع الشعبي، ومضامينه المتعددة داخل الطبقات الشعبية.

لقد أنجبت الجزائر العديد من الشعراء الذين تركوا لنا تراثاً لا يستهان به، إذ يشكل هذا التراث المحمول الفكري والأدبي عبر مراحل التاريخ هؤلاء الشعراء، وما خلفوه من دواوين، حيث تؤكد لنا وفرة الإنتاج الشعري خلال هذه

الحقبة، نذكر على سبيل المثال: "سعيد بن عبد الله المنداسي"، الشيخ عبد القادر بطبجي"، "أبو عبد الله محمد بن مسايب"، "سيدي لخضر بن خلوف"، و"حسن درنون، قاسم شيخاوي"،... إلخ، وعلى العموم فالشعر الشعبي الجزائري حافل بظواهر بمختلف الظواهر الإنسانية التي تحفظ تاريخ الإبداع الشعبي، وقد حصرت دراستنا العديد من القصائد الشعبية الجزائرية في مختلف المضامين الإنسانية المتنوعة، حيث نجد مجموعة من القصائد الشعرية لمجموعة من الشعراء الشعبيين الذين نطقوا بما تحتلج به ذواتهم من أحلام وآمال وهموم أرقتهم ردا من الزمن، فأطلقوا العنان لقصائدهم التي كانت محطة تاريخية في كشف "الممحون/الموجوع/الدعاء/ الفروسية"، ومن تلك المشاهد التي تجسدت في كل (عرش)، وهذه الصور يمكننا استنطاقها من خلال القصائد الآتية لفحول الشعراء الشعبيين.

1- ظاهرة الفروسية:

ونجد الشاعر الشعبي "ابن العباد" يتغنى بفروسيته، والذي اختاره عنوانا لقصيدته (يا عؤدي)، وقد غناها "الشيخ المداني" والتي يقول فيها:

يا عؤدي واش بيك رآك آلا هاني ** كي بغيث تريح الزيم في عقابك
وتظن مع الوطا تسدي وقتاني ** كل يوم تفسم في ذا الأحمد وخذك⁽¹⁰⁾

2- ظاهرة الخطوبة:

فنجد الشاعر الشعبي "العيد بن بوزيد دبوسي" في حالة ثورة وغضب على تقاليد بعض لعراش في الغلاء الفاحش لتكاليف وشروط الزواج التي باتت ترهق كاهل الرجل الخاطب فيقول في قصيدة عنوانها "خطبت وبطلت":

راني جايك يا أختي ناوي نخطب ** ماذا بيك مصارفاك تكون أقلال
راني في الوحدة نفاسي وتعدب ** حاب تكوي زوجتي مكسوب خلال
رحت أديت أممي قلت أنجرب ** هجموا عني أهلها تقول عوال
ماقالوا أهلا ماقالوا قرب ** سفساوني على ذراهمي قداه نسال
جبدولي كراس مكسوب امرتب ** شرط ولي أمور ما كانت على البال
فأتلهم بطلت ماجيتش نخطب ** وأسمحولي ما نطيق على ذا الحال
مانيش نشري في بقره تحلب ** وأنتم مائلقوش لولادي أحوال
عاصتني هي كي فعدت تندب ** خفت الصدمة تزيد للخلقة هبال⁽¹¹⁾

3- ظاهرة الألم:

حيث نجد الشاعر "مسعود طيبي" من مدينة أمدوكال بمنطقة بريكة، فنجده فيلسوفا في مناخ البحر الذي يصور له همومه التي طالت وألمت به، ولم يجد من يداويها إلا الشعر فيقول في قصيدة عنوانها "حديث مع البحر":

وسع الدنيا ضاق بيّا متهول ** جيتك شاكي ليغني بيّا عاطب

أَلْفَيْتُكَ يَا بَحْرَ مِثْلِي مَتَهَيِّقُلْ ** خَامَدٌ تَحْتِ الْمَوْجِ مَنْ شَطَّكَ هَايِبٌ
 أَتَعَجَّبْتُ أُوْتَاهُ بِيَا الْفِكْرَ أَرْحَلُ ** مِثْلَ اللَّيِّ بِجُنُونٍ سَرَّحَانَهُ رَاكِبٌ
 يَا ذَا الْبَحْرِ أَعْلَاشُ أَسْكَاتِكَ طَوَّلُ ** وَأَعْوَضَفَكَ عَلَى شَطُوطِكَ تَتَكَالَبُ (12)

4- ظاهرة الغربة :

نجد الشاعر الشعبي "حسنان درنون" يعبر عن ظاهرة الغربة، ومعاناة صاحبها غريبا عن وطنه، وشوقه المستمر، وشغفه المتواصل لمن يحبهم، ويبن حقيقة تلك المرارة التي أصبحت غصة وهاجسا يعاني منه الإنسان المهاجر أو المنفي عن أرضه ووطنه، فيقول:

الشوق والغربة وكثرة أمحاني ** ويكت نرجع لبلادي وفيها نرتاح
 خفت نموت وما تشوفش أهلي عياني ** نسهر طول الليل للصباح (13)

5- ظاهرة البوح بالحب:

هذا ما نجده عند الشاعرة "سامية تلي" الملقبة "بنت كسال" في قصيدته عنوانها "عينيك يا محمد" والتي تعبر من خلالها على الهموم و الجراح التي تجرعت مرارتها أثناء حبها لرجل يدعى محمد ومتكبدته من عناء ومشاق في سبيل هذا الحب فتقول:

حَمُو مِنْ عَيْنِيكَ يَزِي بَرَكَانِي ** أَرْحَمِنِي يَزِيكَ مَنْ ذِيكَ الْخَزْرَا
 إِذَا خَزْرُوا هَوَايَا وَ خَزَانِي ** وَذِيكَ الْخَزْرَةَ دَاتْ مِنْ عَيْنِيهِ صُورَا
 مُوسْ هَوَاهُ نَبَاتٌ يَدْبَحُ عِيَانِي ** بَسْرُ عَدَابِي حَدَّ مَا عَارَفْ وَدْرَا
 ذَا مَرْسُولُ عَدَابِ لِيَا كِي جَانِي ** جَايِبُ لِي ذَا لِيَوْمِ غَلَّةَ ذَا الْهَدْرَا
 بَلَا سَبَّةَ رَاهُ عَادَانِي ** هَدَمَ كُلَّ رَسَامٍ وَعَشَاشِ الدُّكْرَا (14)

كما نجد الشاعرة "لمياء فريح" من مدينة بسكرة في قصيدتها "عشق الحبيب" التي تبين الألم والحزن الذي أصابها لفراق حبيبها الذي زادها كيا وجمرا بالهجر وعدم مد الوصل وعدم مداواة جراحها بل تركها تندب حظها التعييس فتقول:

عَمَشَقُ رَبَّانِي عَلَى يَدِ الْحَبِيبِ ** فَاتَلْنِي نَاكَرْنِي عَجَبُ بِيَا
 لُوْكَانُ ذَرِيْتِي فِي بَحْرِ نُحَيْبِ ** الْحُبُّ يَكُوِينِي يُزِيدُ هَمَّ عَلِيَا
 شَابٌ صَعْرِي وَأَسْكَنِي شَيْبِ ** وَبِيَاضُو شَعْرَاثُو مَا دَايِرُ فَيَا.
 تَنْهَدُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ** عَلَى حَالِي زَادُ شِيَانُ
 مَنْ شُوقُ الْحُبِّ الْقَلْبَ عَطِيبِ ** يَتْرَجِي فِي قُرَّةِ عَيْنِ
 مَا نَقْدَرُ انْفَارَقُوا نُغَيْبِ ** وَطَيْفُوا سَاكِنُ فَيَا (15)

كما نجد الشاعرة "عبد المولى مول الخير" من تيسمسيلت التي تبرز جرأتها في كسر جدار الصمت النسوي من خلال البوح بحبها الذي أصبح يتجسد في صورخائلة من صور اللاوعي في ذاتها المكلومة من نيران العشق فتقول:

فُولِي تَبْعِيكَ وَلَا فُولَ لَا ** أَخْيِينِي وَلَا فُتْلُنِي فِي كَلِمَةٍ
 أَكْتُبِلِي حَرْفَيْنِ حَرْزِي جُمْلَةً ** مَا نُحْلِيْنِي عَائِمَةً فِي سَطْحِ الْمَا
 عَرَفْنِي فَالْعُمُقُ طَيْرِي حَجَلَةً ** أَضْرَبْنِي بِسَهَامِ عَيْنِيكَ فِي لَمَّةٍ
 فَسَرَّ فِي عَيْنِيكَ نَظْرَةً مَجْهُولَةً ** وَلَا أَكْرَهْنِي نَحَّ مَنْ فَمَكَ بِسَمَةِ
 بِسَمَةِ فِي لَرَمَاشِ تَبْدُو مَحْمُولَةً ** كِي نَلْمَحَهَا أَتَّحَّ مَنْ قَلْبِي عَمَّةٍ (16)

6- المواعظ الدينية:

والنص الديني عند "سيدي لخضر بن خلوف" في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم و"الشيخ عبد القادر بطبجي"، الذي له ديوان شعري يضم تسعة وعشرين قصيدة يتوسل فيها بالأولياء الصالحين منهم الولي "عبد القادر الجيلاني"، حاضر بقوة في مختلف مراحل حياة شعراء هذه الفترة، فهم ينسجون لممدوحهم كالأولياء مثلا صورة أسطورية تمتزج بالمعاني الدينية، كلها موضوعات تجعل المعجم الشعري للمقدس حافلا بالألفاظ، والدلالات اللغوية، بكل أشكاله وصوره فكان مدفوعا في هذا الحماس الفياض بروح دينية إسلامية تجلت معالمه في شعر المديح النبوي والتصوف والإشادة بالأولياء الصالحين ووصف اللواتم والأعياد الدينية نموذجاً راقياً .

وهذا ما عكسته المدونة الشعرية (بسمات من الصحراء)، للشاعر "حسان درنون" التي ضمنها الشعر الاجتماعي من كل صنف ولون شعري يعكس طبيعة المجتمع الصحراوي، وما فيه من قضايا جادة بما قرحة الشاعر، والتي فحواها يصور الحياة وما فيها من "عقيدة وسلوكات" إنسانية متنوعة" ونظرة الشاعر "حسان درنون" إليه داخل هذا النظام، حيث نبده يقول:

يا مسلم نوصيك كثر الاستغفار ** وصلي على شافيعنا يوم العسر
 الإسلام نعمة من ذيك النار ** وتسعد في الدنيا ويجيك الخير (17)

7- ضياع الحياء والحشمة:

كما يتحدث الشاعر "حسان درنون" أيضا عن ظاهرة خطيرة في المجتمع الشعبي المعاصر كضياع الحشمة من بعض النساء اللواتي قلدن الغرب، إلاّ بنات الأصل، فيقول:

اسمع لكلامي إذا كنت إنسان ** ورجع لعقلك وتفهم المقال
 تغير الجو في هذا الزمان ** وجانا ريح أوروبا بدلنا لأحوال
 راحت الحشمة من كل النسوان ** حاشى بنت الأصل ما تتسام بمال (18)

8- ظاهرة تكريم العريس:

وهناك أيضا ظاهرة تكريم العريس كعادة شعبية منتشرة في العرف الشعبي الجزائري، والتي يقول فيها:

افرح بيا قلبي هذا عرس كبير ** غناء وزغاريد وقصب وبندير
 لساني نطق بهذا التعبير ** قال مبروك عليكم يمالي الدار
 نرشها روائح ونفرشها حر ** ونرحب بكل من جاء لنا وزار (19)

والمتتبع لحركية التوثيق للشعر الشعبي الجزائري يجد أنه يشكل جزء هام من الذاكرة ومقوم أساسي من مقومات الشخصية الوطنية، فهو يتميز بالروح الوطنية والدفاع عن الحرية، والكرامة، ذلك أن منطلقات الشعر الشعبي الجزائري واقعية نابعة من آلام، وجراح الشعب الجزائري ليس فيها من الخيال والتصوير إلا ما يدعم الواقع الاجتماعي ويعطي الصورة الشعرية بعدها ووقعها في نفس القارئ، ولقد تنوعت اهتمامات وموضوعات الشعر الشعبي الجزائري من الدفاع عن الدين الإسلامي وحرمة الوطن، إلى الرثاء، والغزل، والوصف فقد تعرض لكل الأغراض، وكان له في كل غرض فصل كبير، وان كانت القضايا الدينية، والوطنية من أبرز اهتمامات العديد من الشعراء، ذلك أنّ الدين بأوسع معانيه كان من أهم الأغراض التي طرقها العديد من الشعراء، وعليه فأهم ميزة للشعر الشعبي الجزائري أنه نموذج ثقافي مرتكز على محورية العادات، والتقاليد فهي كوسيط للتبادل الرمزي و الفكري للوسط الشعبي، وبالتالي بات من المؤكد أن كل هذه النصوص والقصائد قد أغنت الساحة الثقافية الاجتماعية ووسعت من مجالها، ويبقى البعد النمطي هو أهم خاصية تميز جل هذه النصوص الشعبية، إلى درجة أن الشعر الشعبي الاجتماعي كان في كثير من الأحيان مطية وفرصة لإنتاج خطاب شعري يعكس لنا نظرة " القبيلة / لعرش " للبيئة وما فيها من قيم وعادات وتقاليد وأعراف تعكس عقليتهم ونظرتهم للحياة.

2- المحور الثاني: المضامين الإنسانية في ديوان الشمس اليتيمة

ونظرا لخصوصية المجتمع الشعبي الجزائري الذي وقع تحت الاحتلال لقرون عدة، أثر كبير تنوع في مختلف مضامينه الشعبية التي تميزت تارة بالوطنية العميقة والغزيرة؛ فكان للجهد والكفاح فيها حصة الأسد، ناهيك عن المضامين الاجتماعية التي تصب في معظمها بمعانٍ سامية تخدم التمسك بالدين والوطن والعشيرة والأهل، وتحيي مكارم الأخلاق والرجولة، والتغني بالحبوبة والحنّة التي ذابت من خلالها قرائح الشعراء الشعبيين العشاق تارة أخرى، كما أنّ هناك مضامين أخرى تعكس طبيعة كل منطقة شعبية من تراب الجزائر، كالحب، والجمال، ولذة العشق، والحب العذري، والتصوف؛ فهناك قصص حب رائعة، تكشف عن نبل العواطف، وكثيراً ما جسد الشعر الشعبي أحاسيس النساء ومشاعرهن تجاه الحبيب والزوج وبعده عن محبوبته، كما في قصيدة مدونة "الشمس اليتيمة" - لقاسم شيخاوي - فالشعر الشعبي الجزائري لم يكن يتطلب ثقافة؛ بل فطرةً وأذناً موسيقية وتفاعلاً مع الآخر، وهذا ما جادت به قرائح الشعراء الشعبيين الجزائريين.

2-1. سيرة الشاعر قاسم شيخاوي الملقب ب(نزار الملحون):

الشاعر قاسم شيخاوي من مواليد عام 1969م بلرجام، ومنذ أن بدأ هذا الشاعر يتحسس عوالمه الداخلية ويلتمس لها صورا أتعبته كثيرا حيث لم يجد كما يقول لها تفسير، حيث تعلق بكل ما هو جميل وكل ما هو شاعر ينبض بالروائع حيث بدأ رحلته مع عبد القادر الخالدي ومصطفى بن إبراهيم وعبد الله بن كريب وغيرهم من الشعراء رغم اعترافه بصعوبة المسيرة في وسط يقدر كل شيء إلا الكتابة. لم يتوقف الشاعر الشعبي قاسم شيخاوي عن هذه الحواجز بل استطاع تجاوزها بلم شمل مبدعي ولاية تيسمسيلت وتحريك الراكد واختراق جدران

حيث نجد الشاعر الشعبي "قاسم شيخاوي" يعبر عن محنته في ميدان العشق والغرام حيث يصور تلك المعاناة التي جعلت من حبه للنساء عارا بات يطارده في كلّ زمان ومكان، فيقول:

جيتك من ورنسيس مَهْمُومٌ وَمَحْتَارٌ ** أٌبْشَارٌ فِي قَلْبِي.. عَيْطَةُ امْحَايْنِ مَلْمُومَةٌ
جيتك نَبْكِى اُعْرَازُ مَوْلَاتِ الحِمَارِ ** أٌبْشَارِ اللّٰي خَلِيَّتَهَا مَن حَوَالِي مَهْمُومَةٌ
أَنَا قُلْتُ.. نُؤَنِّسُ الحَاظِرَ بِأَشْعَارِ ** أٌبْشَارِ مَا شِي عَيْبِ نَقُولُ فِي الحُبِّ بِكَلِمَةٍ
هَآ سَاعَةٌ.. حُبِّ النِّسَاءِ.. وَلا لِي عَازِ ** أٌبْشَارِ وَيْخُ اللّٰي عَنِّي اَعْلَى عَشْفُوا نَعْمَةٌ (20)

أما في قصيدة "قيس" فنجد الشاعرة يسترجع ذكرى الشاعر قيس بن الملوّح وعلاقته بليلي العامرية، ويحاول تقمص شخصيته المتيمة بالعشق والهيام، فيقول:

لوما ما قيسك.. ما اتشيعي يا ليلي ** ولوما اقلاشك.. ما قولو، قيس اهل
اتقلشي.. نبغي اقلاشك، يا طفلة ** وانا ما نبغيش.. حبك كي يسهل
نبغي في عينيك.. هاذيك، الحيله ** وفي تكبارك.. خاطري ثمة، يتل
نبغي طفله.. طايره مثل الحجله ** وايدا حطت ما تطولش وترحل (21)

وفي قصيدة "الشمس اليتيمة" نجده يسترجع كل ذكريات الحب وأوجاعه وزفراته فيقول في حبيته:

اتميتك يا احبيبي.. ساعة شفتك ** واعقدت.. اعلى نيتي.. والنيه.. خير
واحلمت اتكويني، احبيبه، وانضمك ** ونبي لك.. في اخواطري عشّ اعصافير
قلبي رفر.. يا امره، طار اشوارك ** والحب ايزرو، القلوب.. ابلا تفكير
قلبي من صدري.. اهجر، واسكن عندك ** وعيني.. ملي شافتك، ماهيش بخير ابكات.. وسقسيتها..
اعني، مالك؟ ** قالتلي.. فوق طاقتي، كيفاش ندير؟
راني نبكي اشواق.. من قسمت قلبك ** جوهره.. عقّارها اعفريت.. اكبير (22)

2- ظاهرة العتاب:

الشاعر قاسم شيخاوي نجده يعاتب كل الذين أظهروا له الكره والجفاء، في قصيدة "مانا غدارين"، حيث يفصح لهم عن تلك المشاعر إنها نابعة من كراهية لاتستحق، فيقول:

مانا غدارين.. مانا، كذّابه ** وانا معذورين.. لاقتاش اكلام
زوج احباب.. امشاو يامس في رحبه ** وابلا سبّه، اجفاوني.. وانا نتلام
مظلوم.. و نتلام شوفو،، ياعجبه ** ومكّاش اللّٰي.. قالي هوما ظلام
مجروح.. وماصبت لجراحي طبه ** ارشيت انا بالصبر..، طالت ليام (23)

أما في قصيدة "رسالة عتاب" فإنه يصور لنا الألم والحرقه التي كانت تعاني منها مريم من غيابه وجفائه الطويل، فيقول:

مريم.. رسلتلي، اتعاب،، واتللوم *** وعمر الحب، ايذا احلا من دون عتاب

وتذكر.. في أيام، كذا من مرسم*** بشار.. اللي فيه،، صرنا زوج احباب
 شطر ايغازل شطر.. هاجيني يشتم*** وشرط.. ايعنق شطر، يبكي عام اعداب
 وشرط.. ايقول، كلرته منك،، ياقاسم*** وشرط.. ايومي بالعجل، ردّ اجواب
 اقصيده .. مهبوله، اهبالك يامرهم*** وعقلي دون اهبالكم.. سكران وغاب⁽²⁴⁾

و في قصيدة "عايده" التي نجدده فيها يصرخ في وجه الذي غرّوا بحبيته عايده و التي نقلوا لها صورة مزيفة عن
 حقيقته في بحر الغرام والحب، فيقول:

بكيوتوا الحبيبه.. وانايا غايب*** قولتلها اعليا.. شين وبدال
 قولتلها اعليا.. خداع،، وصاعب*** وعمرو مايدير.. احبيبه في البال
 وين امشى الخلي وحده.. اتتعاقب*** عندو اميات محنه.. تبكي واتسال
 وارويتو اعليا.. بالكذب اعجايب*** ابغيتو اتدوروها.. بصح، موحال
 عايده اثمار توقف.. في الحب اتحارب*** عمرها.. ماتعانده منهو قلقال⁽²⁵⁾

3- ظاهرة الغدر:

وتبدو ظاهرة الغدر في بحر العشق والغرام من أكثر الظواهر الإنسانية انتشارا بين المحبين، وهذا ما حاول
 الشاعر قاسم شيخاوي شرحه وتبيننا حقيقته للمتلقى الشعبي، لأن بحر الهوي يحتاج إلى سباح ماهر حاذق بحيل
 النساء وخداعهن، فيقول في قصيدة بعنوان "شاري بياع":
 قاتلتي كذاب.. قتلها نكذب*** قاتلتي
 خداع.. قتلها نخدع

قاتلتي غدار، ماتعرفش اتحب*** قتلتهل غدار.. حبي، فيه أنواع
 مرّات انحب بالصفاء.. مرّه نقلب*** وانا في سوق الهوى.. شاري بياع⁽²⁶⁾

ويواصل الشاعر حديثه عن ألم الغدر المرسوم في ذاكرته خاصة عندما يلمح تلك المشاعر المزيفة في عيون
 الحبيبة، فيصرح بذلك في قصيدة بعنوان "العيون الكاذبة"، فيقول فيها:

كنت اصحاب.. أنا وعينيك، ولباس*** اشتي بدّهم.. يا امرخ، في ذو يومين
 إذا صبتي خير مّي..، بين الناس*** أنا ماصبش.. احلا من ذيك العين
 أعشقتك يا الجافية.. وانا حسّاس*** ورجعتيني كالبحر.. قاسي وأمتين⁽²⁷⁾

4- "ظاهرة الحزن":

وتبدو ظاهرة الحزن في شعر "قاسم شيخاوي" علامة تطبع عناوين قصائده الشعبية بلون من الحرقه والألم
 الذي يحمل مرارة الحياة وقسوتها عليه، فيترجم تلك المشاعر الحزينة في قصيدة بعنوان "البسمة الحزينة"

فويّ همّ المحامين.. في الغريال** وذّراني.. في اهواه، كيما يهوالو
 سهّري.. في امحينو،، واللّيل أطوال** واحكم حكم الجور.. واشكون ايسالو
 بايت ننسج في أحيوط..م المحال** ندي وانجيب.. في الهموم اليّ صالو

شفت الدنيا.. امدلله.. واحد اتدلال ** واحد، زادتلو.. أدلال.. لتدلالو
 واحد.. شقاتو امعاها، في لطلال ** بيكي.. وايقول، في المراسم، مازالو⁽²⁸⁾
 أما في قصيدة بعنوان: المغنية الصلعاء " نجده مازال يواصل سرد أحزانه المتواصلة ليقول:
 ضاقت بيّا.. وضاقت اعليّا ** وترادف.. حزني أعلى حزني
 همّ الدنيا.. وهمّها هي ** عشقت ساعه.. وقالت اخطبني
 أنا .. نيّه.. احسبتها نيّه ** اعزفتلها.. كي كانت اتعّبي
 لختلها.. اشحال من غنيّه ** كي شيّعتها.. بطلت مّني⁽²⁹⁾

5- ظاهرة عشق المكان/ الوطن:

تشكل ظاهرة عشق المكان صورة هامة في التراث الشعري الشعبي، ومحطة هامة يستعين بها الشاعر في استحضار آهات الذات، وماتعانيه نتيجة فراق المكان الجغرافي كنوع من الأسننة التي تحاول الظهور في مدونة الشاعر الشعبي، وهذا فعلا ما نقلته لنا- مدونة الشمس اليتيمة- من خلال استحضار ذاكرة الشاعر ثلاث أماكن هامة، وأثرها العميق على حياته هي: تيسمسيلت/ وهران/ ورقلة. ففي مدينة تيسمسيلت مسقط رأس الشاعر نجده يمدحها، ويثني عليها قائلا:

اصباح الورد.. يا الغاليه، واصباح الشّعْر ** واصباحك.. هذا الصباح، اصباح الخير
 كي راكي.. يا اجنان من خوخ ادزاير ** نور.. اعلى طراف متيجه.. بالخير
 توحشتك.. وحشه، اموت ونستغفر ** توحشتك.. وحشه، اتشيب جيل اصغير
 توحشتك.. وحشه، تضيق كلّ صبر ** توحشتك.. وحشه، اتشافي كلّ اضير
 كل ادقيقه.. من افراقك عوض اشهر ** كل اعمار.. انفوتو بكى وتذكير⁽³⁰⁾

أما في قصيدة "ضباب الونشريس" التي يتغنى فيها بمدينة وهران، ويتذكر محبوبته هناك فيقول:
 وهران.. مازلتني اخليله واحبيبه ** من وحشك، يالكاويتني راسي شاب
 زرعو شوك الشوق في صدري غابه ** وافنى صبري.. احفاو، فيسان الحطّاب
 انتي ناديتي، وخاطري طاع وليّ *** والطاكسي اللّي جابني ب الشوق أنصاب
 حيثك نبكي، والجوارح معطوبه *** امدون احكاية العمر.. في سطر أكتاب
 وهران.. لانبشيش في جرحي يريّ *** ورتبيلي جلسه.. المغرب راه أغراب⁽³¹⁾
 وفي قصيدة "ورقلة" فنجده يعاني من هجران الأحبة لعله يجد فيها الأنس هدوء البال، فيقول:

ورقلة.. وجدي انخيلك، لحزاني *** ذا اليوم.. اللّي شامخه فيهم تقصار
 ورقلة.. ردّي أحزاني،، لحصابي *** خايف.. إذا انعيدهم، ن تنشق اصوار
 ورقلة.. هاذا الشقا.. واش أبغاني *** واملازمني.. كي اللّحن، أمع لوتار
 اعلي إجنازه لفراح.. يامس غتّاني *** وفي كل يوم.. أيزفني، لهموم أكبار

ماسعدشي.. سهم رسلو، واخطاني*** وفي كل يوم، أزيدني حطبه في النار⁽³²⁾

وعليه قد أدرك الشاعر الشعبي الجزائري- قاسم شيخاوي- حقيقة، وأهمية توظيف مختلف المضامين الإنسانية في مدونته "الشمس اليتيمة"، والتي جسدت بحق حركية التفاعل والإنصهار بينه، وبين بيئته الشعبية مدينة "تيسمسيلت"، ومن ثم الاستفادة منها في عملية إثراء ذاكرته الشعبية، وتجويد قريحته في قرض الشعر، كفن شعبي عميق في ذاكرة المجتمع، وفي ذاكرة التراث الشعبي الجزائري، الذي ارتقى، وجسد الشخصية الوطنية، والهوية الاجتماعية كتراث إنساني بحت.

*- خاتمة:

لقد حمل التراث الشعبي في الجزائر ومنطقة (تيسمسيلت) بشكل خاص بمختلف أنواعه وتعدّد فروعه الكثير من المضامين والدلالات التي عبّرت بعمق وصدق عن أصالته والتصاقه بالوجدان الشعبي للإنسان الجزائري، ولمست أعماق هذا الوجدان في شتى تداعياته في لحظات فرحه وقرحه، وأمله وقنوطه، حيث عبّر هذا التراث عن صدق التعاطي معه وعمقه الذي تجسد مع فئات هذا المجتمع المتعطش لمعرفة تراثه الثقافي، ولذا ظلّ تجاوب المجتمع معه خالداً ويزداد ويتجدّر ويتشكّل وفق تطور هذا المجتمع وحركة الثقافة فيه، وقدرة التعبير الشعبي على مدّ جسور العلاقة فيه ليخلق التواصل الذي فقده المتلقي له.

الهوامش والإحالات:

- (1) بو لرباح عثمان: دراسات نقدية في الأدب الشعبي، رابطة الأدب الشعبي، لاتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، 2009، ص15.
- (2) أحمد بن نعمان: نفسية الشعب الجزائري، دراسة علمية في الأنثروبولوجيا النفسية، شركة الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، د.ط، د.س، ص65.
- (3) ابن خلدون: المقدمة، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، د.س، ص758.
- (4) العربي دحو: الشّعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج1، ط1، د.س، ص23.
- (5) رضا عامر: مقارنة سيميائية في عنوان ديوان بسمات من الصحراء، مجلة الباحث، ع04، منشورات جامعة البويرة، 2008، ص107.
- (6) نبيل سليمان: أسئلة الواقعية والالتزام، دارالحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 1985، ص93.
- (7) ميشال عاصي: الأدب والفن، بحث جمالي في الأنواع والمدارس الأدبية والفنية، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1970، ص41.
- (8) المرجع نفسه، ص43.
- (9) نبيل سليمان: أسئلة الواقعية والالتزام، ص93.

- (10) الشيخ المداني: شريط غنائي مسجل ، إذاعة وهران، الجزائر.
- (11) توفيق ومان في الشعر الشعبي المعاصر، الرابطة الوطنية للشعر الشعبي، الجزائر، ط1، 2011، ص30،31.
- (12) المرجع نفسه، ص44.
- (13) حسان درنون: بسمات من الصحراء، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1986، ص110.
- (14) توفيق ومان: الأصوات النسوية في القصيدة الشعبية ، منشورات الرابطة الوطنية للشعر الشعبي، الجزائر، ط1، 2011، ص13، 14.
- (15) المرجع نفسه، ص31، 32.
- (16) المرجع نفسه، ص23.
- (17) حسان درنون: بسمات من الصحراء، ص91.
- (18) الديوان، ص121.
- (19) الديوان، ص173.
- (20) قاسم شيخاوي: الشمس اليتيمة، دار أسامة للطباعة والنشر الجزائر ط1، 2007، ص4
- (21) الديوان، ص40.
- (22) الديوان، ص56.
- (23) الديوان، ص7.
- (24) الديوان، ص10.
- (25) الديوان، ص12.
- (26) الديوان، ص14.
- (27) الديوان، ص17.
- (28) الديوان، ص21.
- (29) الديوان، ص25.
- (30) الديوان، ص54.
- (31) الديوان، ص42.
- (32) الديوان، ص48، 49.

المرأة في الاسطغرافية الاباضية

د/ نبيلة عبد الشكور

جامعة الجزائر 2

بلغت المرأة في المغرب الاوسط مكانة مرموقة في المجتمع ، وهي تقوم بدور فاعل ورئيس الى جانب الرجل في مختلف مجالات العمل من خلال إسهامها الايجابي في التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي أحرزت على أرض الواقع منذ تأسيس الامارات المستقلة بالمغرب الاسلامي ، وبفضل قيادة الحكام وأئمة بني رستم ، ورؤيتهم وجهودهم الدعوية على مختلف الأصعدة بما في ذلك الاهتمام بالمرأة وتحسين أوضاعها ورعاية شؤونها والأخذ بيدها.

لقد أقبلت المرأة الرستمية⁽¹⁾ على العلم والمعرفة خصوصا بأمور دينها فكانت تشارك في الحلقات في المساجد والكتاتيب ، وقد تزامن ذلك مع بداية انتشار المذهب الخارجي الإباضي في المغرب الأوسط من طرف علماء ومشايخ الإباضية⁽²⁾ الذين كانوا متشبهين بسيرة الخلفاء الراشدين . وقد وردت في المصادر بعض إشارات تؤكد وجود بعض عادات الأسر الأميمية أو بعض بقاياها على الأقل ، لدى هذه الإمارة ،

(1) نسبة الى الإمارة الرستمية في تأسست المغرب الأوسط سنة 160 هـ/776 م واستمرت حتى سنة 296 هـ/909 م ، وقد تأسست هذه الدولة على يد عبد الرحمان بن رستم⁽²⁾ وهو فارسي الأصل خارجي المذهب ، وتميز نظام الحكم الرستمي بالبساطة في العيش والزهد في الحياة ، انظر، بحاز إبراهيم : الدولة الرستمية ، ط1، لافوميك، 1985، الجزائر، ص،ص 15،7، جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، م، و، ك، الجزائر، 1984، ص ص 40، 23.

وذكر ابن خلدون أنه: « من ولد رستم الأمير الفارسي الذي قاد الفرس في معركة القادسية ، قدم إلى إفريقية بعد إسلامه مع طلائع الفتح الإسلامي فاستقر بها، واعتنق المذهب الإباضي بعد وصولها إلى إفريقية» العبر، ج6، ص246. ينظر أيضا بحاز إبراهيم: عبد الرحمان بن رستم، م، و، ك، 1990، الجزائر، ص ص 11، 4.

(2) حول موضوع الإباضية ينظر: أبو زكريا يحيى بن أبي بكر: سير الأئمة و أخبارهم، تحقيق، إسماعيل العربي، ط1، مطبعة أحمد زبانة ، 1979، الجزائر ، ص ص 12،2، بكلي عبد الرحمان: فتاوى البكري، المطبعة العربية،

غرداية، 1982، جزءان، علي أمعمر: الإباضية- دراسة مركزة في أصولهم و تاريخهم- المطبعة العربية، د.ت، غرداية، الجزائر، الدرجيني : طبقات المشايخ بالمغرب ، حققه وقام بطبعه إبراهيم طلاوي ، مطبعة البعث ، د.ت، قسنطينة ، ج1، ص ص40،41،47. ينظر أيضا ، بلحاج محمد: مميزات الإباضية ، نشأة و تأسيسا و تفرعا و سلوكا ، مطبعة دار البعث، 1991 ، قسنطينة ، ص ص 4،15

الأولى ، أن ستة من شيوخها عرفوا بأسماء أمهاتهم ، الأول والثاني الشيخ عروة⁽¹⁾ وأخيه الشيخ أبو بلال مرداس⁽²⁾ ابنا أدية ، الثالث والربع الشيخان أبو روح وأخيه مازن ابنا كنانة⁽³⁾ والخامس الشيخ أبو خزر يعلى بن زلتاف⁽⁴⁾، ثم السادس وهو الشيخ عمر بن دمو الحمدانية بنت درجو⁽⁵⁾ امرأة يمكن ، كذلك عرف أحد أحفاد الإمام عبد الرحمان بن رستم باسم أمه وهو الأمير المرداري الشهير بابن أروى⁽⁶⁾ بنت عبد الرحمان بن رستم .

والثانية ، كانت المرأة الإباضية تتدخل في الشؤون العامة ، كما أن تأثير الأم على أبنائها وتوجههم بدا واضحا ، إذ ترعرع مؤسس الدولة عبد الرحمان بن رستم في القيروان ، فحفظ القرآن و تعلم اللغة العربية ومبادئ الإسلام ، تحت رعاية أمه وزوجها⁽⁷⁾، كانت أمه تشجعه على التوجه إلى المشرق وبالضبط مدينة البصرة⁽⁸⁾ حيث مدرسة الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ، في سنة 135 هـ / 725 م⁽⁹⁾ التقى عند الإمام أبي عبيدة بوفد من المغرب وكم كانت هذه المنشورة مفيدة بالنسبة إليه وحازا له على التعلم ومناظرة المذهب الإباضي .

(1) أول من نادى < لا حكم إلا لله > في حفين، رفع السيف لضرب - الأشعث - الذي يدعو إلا وقف الحرب في حفين ووقع السيف على عجز بعلته. قاما في العراق على عبيد الله بن زياد أيام- يزيد بن معاوية- اشتهر بالتقوى والزهد والشجاعة، ت (678/هـ/58م) ، انظر، الدرجيني : م،س،ج1،ص7، الشماخي : كتاب السير، ط حجرية، 1301هـ/ 1883م ، قسنطينة، ص67.

(2) هو مرداس بن حدير بن عامر بن عبيد بن كعب الربيعي الحنظلي التميمي و هو أخو عروة، (ت61هـ/680م)، تابعي، عالم، وزاهد، لا يخاف لومة لائم، صاحب الكرامات و الأقوال المأثورة، عارض بالحجة و الدليل وبشجاعة المتطرفين، ثابت على مبدئه، ينظر الدرجيني: م،س،ج1، ص7، الشماخي: م،س،ص66، 67.

(3) وهي أمها وقيل جدتها، الدرجيني: م،س،ج1،ص7.

(4) وهي أمه، وهو ابن أيوب، الدرجيني: م،س،ج1،ص8.

(5) من مدينة- إيفاطمان- الواقعة بين الحراية والرحيبات من جبل نفوسة من أجل علماء الإباضية، تقي، زاهد، مجاهد وهو أول من علم القرآن بجبل نفوسة، الشماخي: م،س،ص142،143، عوض محمد: نشأة الحركة الإباضية، ط مطابع دار الشعب، 1399هـ/1978م، عمان، ص51.

(6) ابن عذاري: البيان المغرب ، ج1، ص157.

- (7) بحاز: عبد الرحمان بن رستم، ص9، ينظر أيضا، علي أمعمر: م،س،ج4،ص135.
- (8) الشاخي: م،س،ص123، محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، مطبعة دار العودة، 1396هـ/1976م، بيروت، ص108.
- (9) بحاز: الدولة الرستمية، ص95

والثالثة ، أن المرأة الإباضية لها مكانة متميزة في الاسرة والمجتمع ، كانت لا تكره على الزواج ممن لا ترضاه لنفسها وخاصة نساء بيت الإمامة ، ذلك لأن المذهب الإباضي الذي يعتنقه أهلها ، يُحتم موافقة المرأة على من يتقدم للزواج منها .

فقد قصدت دوسر بنت اليقظان الإمام يوسف وهي تشكو إلى أبي عبد الله الشيعي⁽¹⁾ غدر الإمام يقظان من أبيها ، ووعدته بالزواج إذا ما تأثر لأبيها ، فقبل أبي عبد الله الشيعي بها - وربما يبدو أنها كانت جميلة كذلك إلى جانب كونها ذكية وشجاعة لهذا القرار الذي اتخذته - فأحضر أبو عبد الله الشيعي يقظان وتمثل بين يديه ، وسأله عن اسمه فأجاب : " أنا يقظان ، فقال ، بل أنت حيران ، ما الذي دعاكم إلى قتل أميركم فسلبتم ملكه ، وأطفأتم نور الإسلام بغير سبب ، وألقيتم بأيديكم إلينا بغير قتال "⁽²⁾ ، ثم قتله أبو عبد الله الشيعي بفضاعة⁽³⁾.

ورغم ان دوسر استطاعت ان تأثر لأبيها ، إلا انها لم تنتصر على الرجل الذي أحبها وأرادها كزوجة ، وعندما طلبها ، علم أنها فرّت مع عمّها يعقوب بن الإمام خفية منه نحو مدينة وارجلان⁽⁴⁾، ففتحها بجيش " وعندما دخل المدينة ، انتهبها وانتهك حرمتها وقتل أهلها وكل بيت الإمامة من الرستميين "⁽⁵⁾ سنة

(1) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد، لقب بالمعلم، نشر دعوة العبيدين بالمغرب، أصله من اليمن، أرسله عبيد الله إلى المغرب ليجمع له الأنصار لتحقيق أهدافه، و استطاع أن يؤثر في قبيلة كتامة و يحملها على مبايعة سيده المهدي سنة (286هـ/899م)، و اتخذ من قلعة إيكجان حصنا له، قبل أن يزحف على ميله ثم القيروان و بذلك مهّد العرش لعبيد الله، و في سنة (298هـ/910م) قتله المهدي في رقادة خوفا على مستقبل ملكه، ينظر، القاضي النعمان: إقتتاح الدعوة، تحقيق فرحات البشراوي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 30،40،41،98.

(2) الدرجيني: م،س،ج1،ص94.

(3) نفسه، ج1،ص95.

(4) هي واحة كبيرة بها مدينة قديمة، و هي أهم مركز إباضي ابتداء من القرن (الثاني الهجري/الثامن الميلادي)، يجد هذه المنطقة شرقا أطراف- الصحراء الجزائرية- وجهات الزاب، و غربا منطقة وادي ميزاب، و جنوبا مدينة- إسدراتن- التي أنشأت بعدها، و شمالا صحراء و واحات و مدن مثل- توفرت- و- وادي أريغ- و- أسوف- و عرف وارجلان بعدة أسماء مثل:- واركل-،- وارقالا-،- واقلان- الإدريسي: القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس،

مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 197،43.

(5) الدرجيني: م،س،ج1،ص94.

(296 هـ/909 م) ، على أية حال فقد كان استشهاد دوسر رمزا لسيرة المرأة الإباضية الصالحة ، الثائرة لأبيها ، والرافضة لزواج لا ترضاه لنفسها ، وهي نموذج لما وصل إليه مستوى المرأة في المجتمع الرستمي من البذل و العطاء و التضحية.

أما الرابعة ، أن المرأة في المجتمع الرستمي قامت في مجال العلم بدور معتبر بالنسبة إلى عصرها كحفظ القرآن الكريم بقرائه و رواياته و رواية الحديث ، و دراسة مبادئ المذهب الإباضي والأمور الفقهية ، وتناولت البعض منهن الشعر كأم يحيى⁽¹⁾ ، والبعض الأخريات كامرأة معافرية من ذرية أبي الخطاب المعارفي ، فقد أخبرنا الدرجيني⁽²⁾ أنها : " عندما توفي قالت وهي تبكيه : " لما مات أبو الخطاب ، مات الحق ، فبقيتم يا زواغة هامة ببطون كالأخرجة ، وعائم كالأبرجة ، ونعال مبلجة ، وأحكام متعوجة " ، وأضاف الدرجيني قائلاً إنما عبرت بقولها مات الحق عن فقد من يحكم الحق من آل أبي الخطاب " .

كما اشتهرت الفقيهة أخت⁽³⁾ عمرو بن فتح النفوسي⁽⁴⁾ لا نعلم لها اسما ولا كنية بالعلم والتدين والعقل ، وقد أملت على أخيها كتاب المدونة " ، لأبي غانم الخراساني فكتبها كلها ، وكانت تحسن التصرف في المواقف الخرجية ، وهذا يدل على رجاحة عقلها و حسن تدبرها. ويقال عنها لما خرجت مع بعض نسوة قبيلة نفوسة في موقعة " .

(1) كانت أم يحيى شاعرة ، حفظت ثمانين بيتا من الشعر بسماع واحد، ينظر، الشماخي: م،س،ص، ص، 72، 73 ، 87 ، 107 ، 110 ، أبو زكريا: م،س،ص، 179.

(2) الدرجيني: م،س،ج1،ص115.

(3) الشماخي: م،س،ص106.

(4) عالم إباضي، ورع، مجتهد، قاض إمام الرستمين «عبد الوهاب» على جبل نفوسة، فهو من أهل الخمسين الثانية من المائة الثالثة، هكذا ذكره الدرجيني: م،س،ج1،ص8، ينظر صالح بن عمر اسماوي: العزابة و دورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، رسالة ماجستير، 2001، جامعة الجزائر، ق1،ص307.

مانو " أخذت أسيرة معهن من طرف جيش الأغالبة ، خشيت على شرفهن فأفتت لهن بما يصونهن ، بحيث أمرت أن تستخلف كل واحدة منهن عن نفسها من يزوجها لمن أرادها بسوء⁽¹⁾ . وهو من كمال عقلها وعلمها وفقهها في الدين

وكانت منهن مدرسات ومعلمات شغلن مقاعد التدريس ، وأهتمين بأمور التلاميذ والاعتناء بهم مثل ما كان في عهد الإمام أبي القاسم يزيد بن مخلد حيث كانت له زوجة صالحة ومجتهدة تدعى " الغاية "⁽²⁾ ، وكانت تساعده في أمور التربية والتعليم وأمور النفقة والإيواء على الطلبة ، بل كان أئمة الإباضية يستشيرون بعض العالمات في الدين والفقهاء ، وقصد العامل أبو عبيدة عبد الحميد الجناوي⁽³⁾ إلى عجوز نفوسة⁽⁴⁾ التي كانت مشهورة بالعلم والدين والصلاح فاستشارها في مسألة قبول أو عدم قبول المنصب الذي كلفه بها الإمام عبد الوهاب ، فقالت له : " هل تعلم في بلادك من أهل زمانك أقوم منك بما كلفت به وأحق بتقليدها ما تقلدت؟ قال : أما في أمور الرجال فلا ، قالت : فادخل إذا فيما قلدك الإمام ، وإلا فإني أخشى أن تهشم عظامك في نار جهنم ، فقد قامت عليك الحجة "⁽⁵⁾ ، ولما رجع إلى أهله قبل المنصب وأحسن .

كما شاركت بعض النساء في مجالس الجدل التي كانت تعتقد حلقاتها من حين لآخر ، " فأخت الإمام أفلاح " التي لا نعلم لها اسما أيضا ، برعت في علم الحساب والفلك والتنجيم⁽⁶⁾ ، وهذه امرأة أخرى تدعى " بملولة "⁽⁷⁾ اشتهرت بالعلم حتى أصبح بيتها مزارا للعلماء الذين كان من بينهم أبو ذر ابن وسيم

(1) اسموي: م،س،ق،1،ص307.

(2) الدرجيني: م،س،ج،1،صص120،121.

(3) و هو عامل جبل نفوسة في عهد الإمام الإباضي الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم، الدرجيني : م،س،ج،1،ص121.

(4) هو لقب تشريفي يطلق على المرأة المسنة ذات كلام مسموع و رأي عند جماعتها و قبيلتها، وعادة ما تكون متدينة ومتعلقة لأمر دينها الحنيف.

(5) الدرجيني : م،س،ج،1،صص70،71.

(6) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1991، ج1، ص275.

(7) الشماخي: م،س،ص217، امعمر علي يحيي : م،س،ص232.

ولم يكن أئمة الإمارة الرستمية فيما يتعلق بتعليم المرأة وتربيتها ، والعناية بتكوينها مقتصرة على الحرات فقط ، بل شمل حتى الإيماء ، وهذا ما يفهم مما ذكره البعض بأن إيماء نفوسة في ذلك العهد إذا خرجن إلى الحطب والبساتين لا يرجعن حتى يذكرن جميع مسائل " كتاب ماطوس "⁽¹⁾ .

نستنتج من هذا النص أن الأئمة الرستميين كانوا يوجهون عناية كبيرة لتربية المرأة سواء كانت حرة أو أمة لأن الاعتناء بها يؤدي لا محالة إلى إصلاح المجتمع ، لأن المرأة كما يقال نصف المجتمع فكلما صلحت المرأة صلح المجتمع.

أما الخامسة ، اسهاماتها في المجتمع الرستمي في المجالات عديدة كالدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وقيامها بنشر الدعوة السرية لصالح المذهب الإباضي في جبل نفوسة قبل قيام الإمامة الرستمية ، فقد ناضلت في هذه المسألة إلى جانب أخيها الرجل بحسب مكانتها وكفاءتها ، وكثيرا ما كان الأئمة والشيوخ يعقدون دعواتهم السرية في بيوت الشيوخ أمثال "هند" بنت المهلب و "عاتكة" و "سعيدة المهلبية" وغيرهن⁽²⁾ ، اللواتي كن يشاركن في جمع الأموال والتبرعات.

أما في المجال السياسي فقد برزت بعضهن شأن زوجة أبي يوسف حجاج بن فوتين الذي اشترك في مؤامرة دبرها "خلف بن السمح" للخروج على طاعة الدولة الرستمية ، ولما عاد بيته صاحت هذه الزوجة في وجهه قائلة له : "إليك عني

(1) عالما و فقيها و عاملا في مدينة طرابلس ، وقد رتبه الدرجيني في الطبقة الخامسة ، فهو من علماء النصف الأول من القرن الثالث الهجري / 9 م ، ينظر : الدرجيني : م،س، ج 2، ص 301 .
(2) نفسه ، ج 2، ص 301 ، 305 .

يا بائع دينك"⁽¹⁾ ، كما استطاعت زوجة أبي اليقظان أن تؤثر على زوجها وترغمه على إسناد ولاية العهد إلى ابنتها أبي حاتم كما استطاعت "دوسر" بنت أبي حاتم أن تلعب دورا واضحا في الأحداث السياسية الأخيرة التي أدت إلى سقوط الدولة الرستمية .⁽²⁾

كذلك ، أدت المرأة الرستمية دورا كبيرا في المجال الاجتماعي ، وهذا بفضل اعتراف الرجل الإباضي لمكانتها في المجتمع ، وحقها في الحياة كما نصت عليه تعاليم الإسلام . فاهتم بشأنها الأئمة وشيوخ العزابة ، وسنّوا لها بنودا في دستورهم لحماية حقوقها وكرامتها ، فكان لها حق في التملك ولها حق التصرف في مالها وما تملك ، ويجرم الوقف إذا كان سيسلبها حقها الشرعي في الميراث .

هذا كله ضمن المنظومة الاجتماعية الإباضية المعروفة باسم "العزابة" ، والتي تندرج فيها هيئة نسوية خاصة تتولى شؤون المجتمع النسوي ورعايته

و تنظيمه ضمن القوانين الشرعية ، وكل ما يخص مجالات التربية وإعداد البنات الإباضية و الزوجة الصالحة و أم المستقبل"⁽³⁾ . وانتظمت هذه الهيئة في مجلس نسوي معروف باسم "الغسلات أو الغاسلات" ، و يعرف باسم

اللغة المحلية

(الأمازيغية) " تَمْسِيرِيدِين " ⁽⁴⁾ ، بمعنى أنهن يقمن بغسل الأموات من النساء

- (1) الشاخي : م،س،ص184، علي يحيي معمر: م،س،ص321.
- (2) موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، منذ تأسيسها إلى منتصف (ق5 هـ/11م) ، مطبعة أحمد زبانه ، 1979 ، الجزائر، ص342.
- (3) سماوي : م،س،ق1،ص307.
- (4) تمسيريدين : ج (بكسر التاء و سكون الميم و كسر السين و الراء ممدودة و الدال ممدودة و سكون النون) مفرد " تامسيرت " (بفتح التاء و سكون الميم و كسر السين ممدودة و فتح الراء و سكون التاء) أنظر سماوي : م،س،ق1، هامش ص 308.

والأطفال دون البلوغ أو سن سبع سنين ، و ما زالت هذه الهيئة النسوية تزال هذا العمل بمنطقة وادي ميزاب إلى يومنا هذا .

ومنهن أيضا يتكون " المجلس الديني للنساء " ويصل عدده إلى اثنتي عشر امرأة ، ويتم انتقاء هؤلاء النسوة من مختلف عشائر البلدة من صالحات الأسر

بشروط معينة ، أي أن يكنّ متعلّقات حافظات للقرآن ومن ذوي الأخلاق الكريمة والسمعة الطيبة فضلا عن حضورهن لدروس الوعظ والإرشاد في الحلقة أو في المسجد . ⁽¹⁾

أما عن طريقة تعيين إحداهن كعضوة جديدة في الهيئة ! فبعد أن يتم اختيارها تتجه الغاسلات إلى دار شيخ العزابة ، فيناقشن معه الأمر بوساطة محارمه أو تتولى أكبرهن سنا الحديث معه من وراء حجاب ، أو يتفاوضن معه في القضية ، وفي الأخير فإن القرار يعود إلى رئيس مجلس العزابة وأن تقبل الغاسلات بذلك الحكم .

كذلك الأمر بالنسبة لاتخاذ مجلس الغاسلات للقرارات المتعلقة بالزواج والأعراس والمآتم أو أية قضايا أسرية واجتماعية أخرى ، ويبقى رئيس العزابة هو المرجعية الأساسية لمجلس الغاسلات وهن مخلصات و أمينات له .

ويعين على رأس هذا المجلس النسوي رئيسة تعرف في بعض القرى " ماما شيخة " ⁽²⁾ وفي مناطق أخرى بـ " كبيرة الغاسلات " .

(1) سماوي : م،س،ق1،ص309.

(2) أشهر " شيخات " مجاهدة مشهورة في - ميزاب - بمواقف الثورية إبان الاحتلال الفرنسي لميزاب سنة (1300 هـ/1882م) و هي "ماما بنت سليمان " ولدت في مدينة غرداية سنة (1280هـ/1863م) و نشأت في جو عائلي محافظ متدين، حفظت نصف القرآن عن ظهر القلب و تعلمت أصول الدين و اللغة و مبادئ المذهب الإباضي ، مزدوجة اللغة (العربية و البربرية و الكتابة بها)، جاهدت في سبيل إعلان الحق و الدفاع على البلاد، فتحت منزلها كمدرسة لتعليم القرآن و الحديث ، و قامت بترشيد النساء و وعظهن ، و في سنة (1324 هـ/1906م) عينت " ماما شيخة " رئيسة المجلس النسوي خلفا للمرحومة الشيخة " ماما بنت الحاج " و كانت لا تخاف لومة لائم، ينظر، اسماوي : م، س، ص310.

كان مقر المجلس فيكون في إحدى أجنحة المسجد ، وهو يُبنى خصيصا لمن بمكان مجلس التلاوة بالمسجد ويفصله عنه جدار خفيف تعلوه تحت سقف الجناح كوة صغيرة جدا ، أصبحت الآن مغطاة بقطع صغيرة من الزجاج بشكل مائل لينفذ منه الضوء والصوت من داخل المسجد دون أن يرى أي طرف آخر حيث يسمعون كل ما يدور في المسجد من صلاة وأدعية وأذكار أو من تلاوة للقرآن ، و دروس في التوجيه والوعظ والإرشاد .
وأسهمت المرأة الرستمية بقسط وافر في تطوير المجتمع اقتصاديا بالإضافة إلى القيام بالأعمال المنزلية ودورها الكبير في خدمة البيت وتربية النشء ، فهي تشارك في صناعة الأواني التقليدية الفخارية والخشبية والمنسوجات الصوفية التي كانت تشارك بها في التجارة والإنتاج المحلي ، وازدهار الأسواق بالصناعات اليدوية النسائية ، وهذه الظاهرة مازالت حاضرة إلى حد الآن في منطقة وادي ميزاب بجنوب الجزائر إذ تقوم المرأة الميزابية (حاليا) بدور هام في مجال الحفاظ على الصناعات التقليدية كنسيج الزرابي والقشاشيب وغيرها⁽¹⁾.

ان المرأة الرستمية كان لها حق اختيار الزوج ، لا تكره على الزواج ممن لا ترضاه لنفسها ، وذلك لأن المذهب الإباضي الذي يعتنقه أهلها يحتم موافقة المرأة على من يتقدم للزواج منها ، كما أنه يعطيها حقها في التملك ، فلها حق التصرف في مالها وما تملك ، ويُجرّم الوقف إذا كان سيسلبها حقها الشرعي في الميراث . ولم يكن الحجاب ليمنع المرأة في مشاركتها في الحياة العامة ، بل استطاعت تترك بصمات واضحة المجتمع الاباضي .

(1) Goichon (A.M) : op cit, pp 43,45,46.

- المصادر والمراجع :

1 / . أبو زكريا ، يحيى بن أبي بكر: سير الأئمة و أخبارهم، تحقيق، إسماعيل العربي، ط1، مطبعة أحمد زبانه، 1979، الجزائر،

2 / . بكلي عبد الرحمان : فتاوى البكري ، المطبعة العربية ، غرداية ، 1982 ، جزاءن

3 / . ابن خلدون ، عبد الرحمن : العبر ، ج6،

الدرجيني : طبقات المشايخ بالمغرب، حققه و قام بطبعه إبراهيم طلائي، مطبعة البعث، د.ت، قسنطينة، ج1،

- 4 / . الشماخي : كتاب السير، ط حجرية ، 1301هـ / 1883م ، قسنطينة ،
- 5 / . ابن عذاري: البيان المغرب ، ج 1.
- 6 / . القاضي النعمان: إقتتاح الدعوة، تحقيق فرحات البشراوي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.
- 7 / . الإدريسي: القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983،
ثانيا : المراجع :
- 8 / . بحاز إبراهيم : عبد الرحمان بن رستم ، م ، و ، ك ، 1990، الجزائر
- 9 / . //////////////// : الدولة الرستمية ، ط1 ، لافوميك ، 1985 ، الجزائر،
- 10 / . جودت عبد الكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، م ، و ، ك ، الجزائر ، 1984،
- 11 / . علي أمعمر : الإباضية - دراسة مركزة في أصولهم و تاريخهم - المطبعة العربية ، د.ت ، غرداية ، الجزائر
- 12 / . بلحاج محمد : مميزات الإباضية ، نشأة و تأصيلا و تفريعا و سلوكا، مطبعة دار البعث ، 1991 ، قسنطينة .
- 13 / . عوض محمد: نشأة الحركة الإباضية، ط مطابع دار الشعب، 1399هـ/1978م، عمان.
- 14 / . محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، مطبعة دار العودة، 1396هـ/1976م، بيروت
- 15 / . صالح بن عمر اسماوي: العزابة و دورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، رسالة ماجستير، 2001، جامعة الجزائر، ق1.
- 16 / . عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1991،
- (3) موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، منذ تأسيسها إلى منتصف (ق5هـ/11م)، مطبعة أحمد زبانه، 1979، الجزائر.
- Goichon (A.M): La vie Féminine au M'Zab, librairie orientaliste, 1927, Paris

تم بحمد الله

أثر البعد الروحي في فتح

مدينة وهران سنة 1792 م

الاستاذ بن العيفاوي علي

جامعة عبد الحميد بن باديس

مستغانم

اشتهر باي معسكر عاصمة بايلك الغرب الجزائري محمد بن عثمان الكبير بجديته وصرامته وحبه للعلم والعلماء ، وقد ذاع صيته حتى بين الكتاب والمؤرخين والرحالة الأوربيين في بعده الروحي والإنساني وورعه وتقواه وعقيدته وأخلاقه الحميدة ، حيث شهدوا له بحسن معاملة العبيد الأوربيين الذين كانوا يمارسون بقصره مختلف الأعمال ، حيث ذكره عالم النبات دي فونتان Désfontains بأنه كان كريما معهم ويزودهم بما يحتاجونه من أغذية و قد جعل لهم راتبا مقابل ما يؤدونه من أعمال لديه ، ويعاملهم برأفة تنم على ورع وتقوى كبيرين لدى هذا الباي ، إضافة إلى تواضعه الكبير مما جعله يتمتع بشعبية كبيرة بين سكان مدينة معسكر .

والواقع ان الباي محمد بن عثمان كان يتميز بشخصية قوية وصرامة كبيرة ، متمرسا وخبيرا بالحروب وابدى شجاعة كبيرة اثبتتها من خلال قيادته للجيش عند ما قام الاسبان بحملتهم العسكرية على مدينة الجزائر سنة 1775 بقيادة اوريلي (Oreilly) الارلندي، حيث ذكره العقيد استرهازي بأنه كان وراء انتصار الجيش الجزائري على الاسبان من خلال حنكته العسكرية على ارض المعركة وكان على راس جيش الخيالة الذي كان له شرف هذا النصر الكبير ، على الرغم من من امتعاض داي الجزائر من هذا الانتصار ، لان ذلك سيساهم في تزايد شعبية الباي محمد بن عثمان بين السكان مما يجعله يطمع و يسعى للوصول الى منصب الداى باعتباره خليفته في الحكم . وقد تجلى عدم رضى الداى على هذا النصر انه لم يجزل العطاء لجيش الخيالة ، مما أجبر عدد كبير منهم على الفرار الى تونس ، لكن الباي محمد بن عثمان سارع اليهم واجزل لهم العطاء على شكل مكافآت مالية جعلتهم يعودون معه الى الجزائر .

وعلى الرغم من انشغالاته العديدة ، الا ان ذلك لم يشنيه على ابداء عناية خاصة و اهتمام كبير وجلي بالعلم والعلماء من خلال بناء المدارس والمعاهد والزوايا و تكريم العلماء وحفظه القرآن الكريم والمدرسين بالمعاهد التي اسسها بنفسه بمدينة معسكر..... الخ ، ونظرا لمكانة هؤلاء العلماء و رجالات الزوايا لدى عامة السكان وتأثيرهم في اتخاذ القرارات كان لزاما على الباي محمد بن عثمان الكبير أن يدرج شيوخ الزوايا والعلماء ضمن خطته وجيوشه العسكرية لفتح مدينة وهران متبركا بشهر رمضان الكريم ومتمينا بالفتوحات الاسلامية للنبي عليه الصلاة والسلام في هذا الشهر الكريم حيث كانت معركة بدر في 17 رمضان س 2هـ و فتح مكة في 20 رمضان س 8هـ . وقد تقرب الباي محمد بن عثمان الكبير من المرابطين الذين كان يقدر عددهم بأكثر من خمسمائة شخص، حيث أغدق وتكرم عليهم بأموال طائلة مما جعلهم يعدوه بالمؤازرة والنصرة والتأييد .

وكان خروج الباي من مدينة معسكر في الثالث من رمضان سنة 1206 للهجرة مارا بمدينة سيق التي مكث فيها عدة أيام ثم مدينة تلييلات التي تبعد عن وهران مسيرة ضحوة مع العلم أن الباي كان قد أقام وليمة حضرها عدد كبير من الخواص والعوام وأرسل إلى المناطق البعيدة فأوتي بجميع أعلام أوليائها الصالحين كعلم سيدي عبد الرحمان الثعالبي ، وأبي مدين شعيب التلمساني ، وأحمد بن يوسف الملياني ، ومحمد بن عودة ليحضر بها الجهاد تبركا بهم وقد أثر هذا الموقف في أهالي مدينة معسكر وضواحيها الذين هبوا بعفوية كبيرة لمساعدة الباي في حربه ضد الاسبان المحتلين لمدينة وهران .

وبدأت المواجهات في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة 1206 للهجرة واشتد القتال بين جيوش الباي محمد بن عثمان الكبير والجيوش الاسبانية حيث بدأت حصون وأبراج وقلاع وهران تنهار وتسقط الواحدة تلو الأخرى مثل حصن مرجاجو المنيع وبرج العيون واستمر القتال لفترة طويلة من النهار، وكان الباي حريصا على تنظيم صفوف الجيوش بتشكيل ثلاثة أرتال، من اجل إحراز تقدم أكبر كي يتفادى مواجهة الجيش الاسباني ليلا ، وكانت الحصيلة الأولية أكثر من 229 جندي اسباني سقطوا قتلى في ساحة المعركة وبدأ الجنود الاسبان في الفرار وكان عددهم 1526 رجلا ، موزعين على عدة مراكز وسارع الاسبان الى طلب المدد من اسبانيا التي أمدتهم ب7000 جندي ، بينما لم يستجيب داي الجزائر في تقديم المدد والعون إلى الباي محمد بن عثمان ، خوفا من طموحاته الكبيرة وحصوله على شهرة واسعة بين السكان ، خاصة اذا كان الأمر يتعلق بمدينة كبيرة وهامة مثل وهران يسعى الأوجاق إلى الاستيلاء عليها و إحكام سيطرتهم ، فسارع الباي إلى نقل مدافعه إلى البرج الاحمر لتضييق الخناق عليهم مما حدا بالاسبان إلى طلب الهدنة التي رفضها الباي عدة مرات، فالاسبان لم يكن باستطاعتهم رد هجوم باي معسكر نظرا للحالة السيئة والأوضاع المتدهورة التي كانوا عليها ، حيث عانوا من نقص حاد في المؤونة لجنودهم من جهة ، ومعنويات جيشهم كانت منحطة ، بسبب طول مدة الحصار من جهة أخرى ، إضافة إلى ارتفاع تكاليف هذه الحرب على خزينة اسبانيا .

لكن تدخل داي الجزائر حسن باشا أدى بالباي محمد بن عثمان الكبير إلى الموافقة على الهدنة مع الإاسبان على مضمض ثم الانسحاب من المدينة حيث كان يرغب في إلحاق الهزيمة بالاسبان لكي لا يفكروا في الاعتداء مرة أخرى .

وقد ساهمت تكبيرات وتهليلات شيوخ الزوايا والمرابطين في تحفيز جيوش الباي في مواصلة الجهاد وتشجيعهم على طلب الاستشهاد أو النصر وأمام هذا الوضع رضخ الاسبان إلى الصلح مع الباي محمد بن عثمان وفق شروطه وتوقيع اتفاقية الانسحاب من اجل حفظ ماء الوجه لا غير ، وذلك بحضور حسن باشا داي الجزائر في مطلع شهر محرم 1207 للهجرة والتي تضمنت عدة بنود أبرزها :

1. إنسحاب الاسبان من مدينة وهران والمناطق الخاضعة لهم ومن جميع الحصون والقلاع دون شروط

2. ترك الاسبان كل الاشياء التي كانت موجودة في المدينة خلال حكم الباي مصطفى بوشلاغم وأن لا يحدثوا عليها أي تغيير ، كما عليهم إرجاع جميع القنابل والمدافع والذخيرة التي غنمها الاسبان عند احتلالهم لمدينة وهران والمرسى الكبير
 3. يدفع الاسبان لدار السلطان كل سنة مبلغ اثني عشر ألف سلطاني [120 ألف فرنك].
 4. يدفع الاسبان 55 ريال لبيت المال 40 منها عن كل سفينة إسبانية ترسو بميناء وهران والباقي لقائد المرسى .
 5. لا يسمح لبقية الدول الأوروبية بممارسة التجارة بمدينة وهران دون إذن مسبق من باي وهران محمد بن عثمان الكبير .
 6. تحمل سفينة إسبانية بصفة رسمية إلى إسطنبول مفتاحيين ذهبيين رمزاستسلام وهران والمرسى الكبير مع جرتيين من ماء عيون وهران للخليفة السلطان العثماني كبشرى بالفتح وتأكيده للرابطة مع دولة الجزائر .
 7. للأسبان الحق في تدمير وتحطيم كل البناءات التي كانت سنة 1732.
 8. يسمح للأسبان الراغبين في مغادرة مدينة وهران بالرحيل الى مدينة قرطاجنة .
 9. حصول اسبانيا على مركز تجاري في بلدة جامع الغزوات .
 10. أن تشتري اسبانيا من بلاد الجزائر 3000 كيلة من القمح سنويا .
- والواقع أن المؤرخ ليون فاي أضاف بعض البنود السرية التي لم ترد في الاتفاقية منها :
- 1- لا يحق لباي وهران تحديد كمية القمح المصدرة الى اسبانيا .
 - 2- لا يحق رفع سعر القمح عن الأسعار المحلية الموجودة في وهران .
 - 3- كل مركب اسباني يدخل الى ميناء وهران يدفع 55 ريالا منها 40 ريالا لبيت المال و 15 ريالا الى قائد المرسى .
- وقد ذكر المؤرخ هنري قارو أن الأسبان اتفقوا مع باي وهران على الانسحاب مقابل حصولهم على امتيازات اقتصادية في بايلك الغرب ، مثلما كان عليه حال فرنسا في الشرق الجزائري ، وتم الاتفاق على ذلك في وقت سابق بتاريخ 14 جوان 1786، وكان قنصل فرنسا السيد دو كارسي وسيطا بين الطرفين .
- وبعد أن استقر الباي بن عثمان الكبير بمدينة وهران شيد مسجدا على الواجهة البحرية سنة 1792 م من ماله الخاص لا زال إلى اليوم يحمل اسمه واستعاد ت المدينة أمنها واستقرارها مما جعل الحياة الاقتصادية والحركة التجارية تزدهر بها مع العلم أن الباي محمد بن عثمان الكبير قد شجع أصحاب الحرف والمهن من الاسبان وغيرهم على المكوث بالمدينة وممارسة أعمالهم بكل حرية مع إعلان عفو شامل عنهم و تقديم تحفيزات لهم من اجل إعادة اعمار المدينة بعد الدمار الذي شهدته اثناء المواجهة العسكرية بين الطرفين الجزائري والاسباني ولم تمض مدة وجيزة حتى أصبحت وهران مدينة غنية زاهرة ، ومنحه الداوي حسان لقب الكبير اعترافا له بفضله وصدق جهاده .

وذكرت بعض المصادر ان الداى حسان داى الجزائر ، استقبل الباى محمد بن عثمان وقلده الريشة الذهبية وقال له : "أوكلك هذه المدينة الثمينة ، وذلك لما أظهرته من شجاعة ونصرة للإسلام ، واني فد عينت ابنك عثمان خليفة لك على بايلك الغرب وابنك محمد قائدا على مدينة فليطة " .

وعند عودة الباى محمد بن عثمان الكبير من مدينة الجزائر ، تم دس السم له من طرف الداى حسان في منطقة عين الربط ، نظرا لتخوفه من شجاعته وشهرته بعد انتصاره على الاسبان بمدينة وهران .

وقد وردت سيرة هذا الباى في العديد من المصادر أبرزها كتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر ألوهراي لابن سحنون الراشدي ، وهذا الكتاب عبارة عن قصيدة مطولة تمدح خصال الباى وتثني عليه بعد فتحه لمدينة وهران ، والجدير بالذكر ان الكاتب كان من الأشخاص المقربين جدا من الباى ومن خاصته وعلى دراية تامة بسياسته وتوجهاته، كما كان من بين أفراد الحملة على الأسيان ، إضافة الى كتاب "رحلة محمد الكبير للجنوب الصحراوي الجزائري"، لأحمد بن محمد بن هطال التلمساني ، والذي كان الكاتب الخاص والشخصي للباى ملما بكل التفاصيل والأسرار .

وخلاصة القول أن الباى محمد بن عثمان الكبير نجح في سياسته على مختلف الأصعدة في إدارة بايلك الغرب - على الرغم من اتساعه - بحكمة وحنكة نادرة قلما تتوفر في عدد كبير من الحكام العثمانيين الذين تداولوا على حكم بلاد الجزائر منذ مطلع القرن 16م أي منذ 1518 م الى مطلع القرن 19م ، عند سقوط مدينة معسكر في 06 ديسمبر 1935 ونهاية الحكم العثماني بالجزائر وهذا نظرا للعديد من الخصال الحميدة التي تميز بها والتي يمكن إجمالها فيما يلي :

1- حسن معاملته للرعية أكسبه ثقة السكان على اختلاف مشاربهم ، مما أدى بهم إلى إبداء فروض الولاء والطاعة له .

2- الورع والتقوى ألّتين تمتع بهما واهتمامه الكبير ببناء المدارس والمعاهد والزوايا وتبجيله لحملة العلم وحفظه القرآن الكريم ، نظرا لمكانتهم الرفيعة بين الأهالي ، أكسبته احتراماً كبيراً من طرف السكان خاصة اذا علمنا ان البعد الروحي لدى الجزائريين يأتي على رأس اهتماماتهم المختلفة .

3- قرب الباى من الرعية من خلال الاهتمام بانشغالهم ومشاكلهم اليومية ، تواضعه مع مختلف طبقات المجتمع ، زادت من ثقتهم به .

4- كرم الباى المتزايد في الإنفاق على مجالات وسبل الخير، أبدت وأظهرت زهده وتعففه في البحث و الحرص على المناصب الرفيعة .

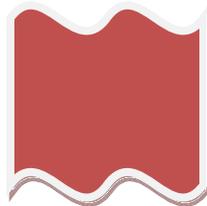
5- حرصه الشديد في محاربة العدو الاسباني ، أظهرها خلاص هذا الباى في استرجاع كل شبر محتل الى الوطن الأم "بلاد الجزائر" .

6- العمل على إخماد الفتن وبؤر التمرد والعصيان ضد سيادة الدولة خاصة في الجنوب الجزائري ، وتأديب القبائل الرافضة لمنح الضرائب والزكاة لبيت المال، اكشف عن نية صادقة على التفاني في خدمة هذه البلاد وأهلها

- 7- التسامح والمرونة في المعتقد من خلال وجود المذهب الرسمي للدولة، ممثلا في المذهب الحنفي والقاضي الحنفي ، والمذهب المالكي للسكان والإفتاء به أيضا، أظهر معاملة حسنة للرعية وتقدير كبير لها .
- 8- تجلي العامل الديني والبعد الروحي من خلال قدوته بالرسول عليه الصلاة والسلام بمبادرته في بناء المسجد ، بعد هجرته من مكة الى المدينة ، حيث كان اول ما قام به الباي محمد بن عثمان الكبير هو بناء المسجد شكرا لله على نعمة فتح مدينة وهران .

المصادر والمراجع

- 1- ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني تحقيق محمد بن عبد الكريم ، مطبعة البعث قسنطينية 1973.
- 2- الجامعي ابو زيد عبد الرحمن :فتح مدينة وهران،تحقيق الدكتور مختار حساني مخبر المخطوطات ،جامعة الجزائر 2003.
- 3- حمدان بن عثمان خوجة :المرآة ،لمحة تاريخية واحصائية على ايالة الجزائر تعريب وتقديم وتحقيق العربي الزبيري ،ش.و.ن.ت.الجزائر ،1982.
- 4- احمد الشريف الزهار :مذكرات نقيب اشراف الجزائر ،1754-1830 تقديم وتحقيق احمد توفيق المدني ، الشركة الطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1974.
- 5- أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1979 .
- 6- يحي بوعزيز ، المراسلات الجزائرية الاسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد 1780/1798 ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1993 .



من أعلام تلمسان : الآبلي

681 - 757 هـ / 1282 - 1356 م

(انجازات و مواقف)

أ/قاسمي بختاوي

جامعة حسيبة بن بوعلي . الشلف . الجزائر .

يعتبر العهد الزياني رغم ما شهدته من فتن داخلية و صراعات خارجية، العصر الذهبي للمغرب الأوسط. ففيه بلغت الدولة ذروة عزها وأوج مجدها ومنتهى رقيها وازدهارها. ومن مظاهر هذا التطور الحركة الثقافية والفكرية النشيطة التي عرفتها حاضرة تلمسان، نتيجة عوامل عديدة أبرزها: النزعة العلمية التي اتصف بها الكثير من سلاطين بني عبد الواد، أمثال يغمراسن بن زيان (633 - 681 هـ / 1235 - 1282 م)، الذي رغب العلماء في القدوم إلى عاصمته، وشجعهم على التدريس والتأليف؛ وابنه أبو سعيد عثمان بن يغمراسن (681 - 703 هـ / 1282 - 1303 م)، الذي سار على درب أبيه .

لقد عمل هؤلاء و غيرهم على استقطاب العلماء من كافة أرجاء المغرب الأوسط، ومن مختلف الحواضر المغربية والإسلامية كعلماء العدو الأندلسية، فأغدقوا عليهم الأموال والهدايا، وشيدوا لهم المدارس . ومن الأسماء اللامعة التي أسهمت في إثراء التراث الفكري بتلمسان الشيخ الآبلي، الذي سأحاول أن أبين من خلال مداخلتي بعضا من إنجازاته و مواقفه .

مولده ونشأته :

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني، الشهير بالآبلي، ولد بتلمسان سنة 681 هـ/1282 م. أصله من آبله¹، التي هاجر منها أبوه إبراهيم، وعمه أحمد إلى تلمسان، وانخرطا هناك في جيش يغمراسن الزياني.

عمل إبراهيم بن أحمد - والد الآبلي - قائدا لحماية مرفأ هنين²، وتزوج من ابنة قاضي تلمسان أبي الحسن محمد بن غلبون، وأنجب منها ولده محمد المعروف بالآبلي³. نشأ في كفالة جده القاضي ابن

غلبون، فشب على طلب العلم، مخالفا اتجاه أبيه الذي احترف الجندية، وانكب على الدراسة والتحصيل على جده وعلى علماء تلمسان، مبديا تفوقا في العلوم العقلية والنقلية قبل أن يرحل إلى المشرق والمغرب⁴.

حياته العلمية :

بدأها بمسقط رأسه تلمسان، حيث أخذ عن جده ابن غلبون علم الشريعة، وعن أبي الحسن التنسي علوما شتى. وبعد غزو أبي الحسن المريني مدينة تلمسان وحصارها، غادرها الأبلي قاصدا المشرق، فأدى فريضة الحج، ولقي الكثير من العلماء منهم : تقي الدين بن دقيق العيد (625هـ - 702هـ)، وأبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن مرتفع الأنصاري المعروف بابن الرفعة (640هـ - 710هـ)، وصفي الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد الهندي (644هـ - 750هـ)، وأبو الحسن علي بن عبد الله تاج الدين التبريزي (ت 749هـ)⁵.

عاد إلى تلمسان أيام حكم السلطان الزياني أبي حمو موسى الأول، فدرس المنطق وعلم الأصول على يد أبي حمو عيسى بن الإمام. ونظرا لتفوقه في علوم الحساب، عرض عليه السلطان الإشراف على ضبط الجباية، فلم يرضه العرض. ولما أكره على ذلك، فر إلى فاس، فأخذ فنون التعاليم عن الشيخ خلوف المغيلي اليهودي، ثم توجه إلى مراكش، فدرس هناك على العلامة أبي العباس أحمد بن البناء علوما مختلفة في المعقول والمنقول والتصوف. وبعدها استدعاه شيخ المسكرة علي محمد بن تاروميت أحد الوجهاء بجبل الأطلس، وأفاده بكثير من المعارف⁶. هكذا أصبح الأبلي شيخ العلوم النقلية والعقلية في عصره، وذلك بفضل ما أخذه عن علماء المغرب الأوسط، ثم رحلاته شرقا وغربا.

الآبلي ومهنة التدريس :

بدأ الآبلي التدريس بمكسورة⁷، حيث التف حوله عدد كبير من طلاب العلم، فانتفعوا به كثيرا، وعظموه وأكبروه، وشكره أستاذه ابن البناء على نباهته وجهوده التعليمية. رحل بعد ذلك إلى فاس، فواصل التدريس بها، وذاع صيته. ولما احتل السلطان أبو الحسن المريني تلمسان سنة 737هـ/ 1337م، بلغه نبوغ الآبلي في العلوم والمعارف، فاستقدمه من فاس، وضمه إلى مجلس علمائه، فعكف على تدريس العلوم العقلية، مساهما بذلك في تكوين جيل من العلماء الكبار بتلمسان. وبعد غزو أبي الحسن المريني لتونس سنة 748هـ/ 1347م، تصدى الآبلي للتدريس بها، وتلمذ على يديه جموع من الطلبة منهم: أبو عبد الله عرفة، وعبد الرحمن بن خلدون⁸. عاد إلى المغرب الأوسط بطلب من السلطان

أبي عنان المريني سنة 753هـ / 1352م، فدرس لطلبة بجاية وهو في طريق عودته، مختصر بن حاجب في ظرف قصير ثم وصل تلمسان، فضمه أبو عنان إلى مجلس علمائه على غرار أبيه، واتخذه أستاذا له، وأخذ عنه علوما كثيرة؛ كما التف حوله الكثير من الطلبة الذين صاروا علماء فيما بعد منهم: عبد الرحمن بن خلدون، وأخوه أبو زكرياء يحيى، وابن الصباغ المكناسي، وأبو عبد الله الشريف التلمساني، والشريف الرهوني، وابن مرزوق الخطيب، وأبو عثمان سعيد العقباني، وابن عباد، وابن عرفة التونسي، والمقري الكبير⁹.

نال الآبلي عند أبي عنان حظوة كبرى، فقربه منه وبجله، وصحبه معه إلى المغرب الأقصى، حيث واصل التدريس بفاس إلى غاية وفاته¹⁰.

شهادات بعض معاصريه:

لقد كان الآبلي من أنبغ علماء عصره في التعاليم، حيث ألم بعلوم كثيرة كالمنطق والحساب والهندسة والطب والفلاحة والفلسفة والتوحيد. ولمعرفة المكانة التي وصل إليها هذا العالم المعلم، نورد شهادات بعض معاصريه:

— قال فيه أبو زكريا يحيى بن خلدون وهو أحد تلامذته: " وشيخنا العالم الأعلى، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي، المعلم الأصغر... فاق أهل زمانه في العلوم العقلية كلها، حتى أني لا أعرف بالمغرب وبإفريقية فقيها كبيرا إلا وله عليه مشيخة " ¹¹.

— قال عنه ابن مرزوق الجدي: "... شيخ المغرب في العلوم العقلية وإمام وقته " ¹².

— وصفه تلميذه عبد الرحمن بن خلدون في كتابه - لباب المحصل في علوم الدين - بقوله: " هو سيدنا ومولانا الإمام الكبير، العالم العلامة فخر الدنيا والدين، حجة الإسلام والمسلمين، غياث النفوس... رضي الله عن مقامه، وأوزعني شكر نعمته؛ شيخ الجلالة وإمامها، ومبدأ المعارف وختامها... أفاض علينا سيب علومه، وحلانا بمنثور دره ومنظومه... " ¹³.

مواقف الآبلي في مجال التعليم:

بالرغم من تكريس الآبلي معظم حياته في تدريس العلوم، إلا أنه كانت له مواقف من المدارس والتأليف والمختصرات؛ حيث أورد المقري الجدي موقف شيخه بقوله: سمعت شيخنا الآبلي يقول: " إنما أفسد العلم كثرة التأليف، وإنما أذهب ببيان المدارس... " ¹⁴. فقد عارض بناء المدارس وانتشارها، لأنه يرى أن طلب العلم يتطلب بذل المال والجهد، بالرحلة إلى مراكز الإشعاع الفكري عبر الأمصار. فانتشار

المدارس في كل الأصقاع حسب رأيه ، سيجذب كل طامع في مرتباتها وجراياتها ، مما ينعكس سلبا على الحياة التعليمية . كما أبدى عدم رضاه على التأليف ، كونه بديل عن الرحلة التي هي أصل جمع العلم، فبقدر المشقة والبذل يكون التحصيل . وكان للآبلي موقف واضح من المختصرات ، تجلّى في قوله : "إنها تؤدي إلى تجريد الأفكار التي تحملها من معانيها الحقيقية"¹⁵ . لقد برر المقري موقف شيخه مما سبق بأن السلطة كانت مهيمنة على المدارس سيطرة شاملة؛ إذ تستخدم المدرسة في تكوين أجيال يكونون تبعاً لها. فهي التي تتولى تعيين هيئة التدريس، وتتصرف في إعطاء الرواتب للمدرسين والطلبة، ولا يمكن لأحد من أهل العلم الولوج إليها إلا إذا رضي لنفسه الدخول في حكمهم، وأن من هم أجدر بذلك لا يدعون إليها؛ فتتج عن ذلك عزوف أهل العلم الحقيقيين عن الانضواء تحت رايتها، وفسح المجال لتولي مقاليد التدريس بهذه المدارس إلى من لا يحسن حتى الإلقاء¹⁶ .

يبدو أن علاقة الآبلي غير الرضية بالسلطين ساهمت في تكوين رأيه، ذلك أن السلطان أبو حمو موسى الأول أكرهه على ضبط أمواله، لكنه أبي وفر. وإذا كان الآبلي لا يرى جدوى من انتشار المدارس، فإنه كان هو وثلة من خيرة العلماء تخرجوا من مدارس تلمسان؛ مما يعني أنه رغم ما عرفته المدارس من تدخل للسلطة في شؤونها، فلم تكن كلها أسيرة في يدها.

كما يبدو موقفه من المختصرات غريباً ، إذا علمنا أنه كلف تلميذه عبد الرحمن بن خلدون بتلخيص كتاب "محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والفقهاء والمتكلمين" للرازي ، وأخرجه تحت عنوان "لباب المحصل في أصول الدين"¹⁷ . ولعل الهدف من هذا هو التيسير على طلاب العلم لا غير .

مؤلفاته :

بالرغم من سعة علمه وغزارة معارفه، ومزايا تعليمه وإقراءه، بشهادة شيوخه وتلامذته، إلا أنه لم يخلف أي أثر علمي مكتوب. ويعود عزوفه عن التأليف إلى مواقفه السالفة الذكر. يقول المقري أنه سمعه يقول : "التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير، وقد لا يحصل له من العلم إلا النزر اليسير، لأن عنايته على قدر مشقته، ثم صار يشتري أكبر ديوان بأبخس ثمن"¹⁸ . وإن لم يخلف كتاباً، فقد تخرج على يديه علماء أجلاء، رفعوا لواء العلم من بعده، وظلوا منارات تشع في كل الأمصار، سائرين على دربه مقتفين أثره .

وفاته :

بعد مسيرة طويلة في طلب العلم واحتراف التعليم، توفي الشيخ الآبلي وهو لا يزال يبث العلم بفاس على عهد السلطان أبي عنان المريني. كانت وفاته سنة 757هـ / 1356م¹⁹.

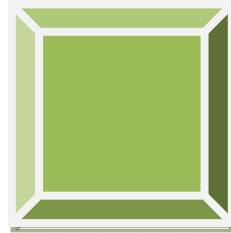
خاتمة :

يمكن أن نقول في الأخير أن رأي الآبلي حول انتشار المدارس كان له ما يبرره، إذا علمنا أن السلاطين كان لهم إشراف مباشر على المدارس، كونهم هم من أنشأها وجهزها وتكفل بتعيين معلمها وتوفير أجورهم، بل وصل ببعضهم الحد أحيانا حسب صاحبي المعيار والعبر، إلى عزل معلم واستبداله بآخر دون سبب وجيه يستحق ذلك، أو التدخل من أجل إسكان طالب في المدرسة. وقد أدت هذه العلاقة بين السلطة والمدرسة إلى فتح المجال أمام أصحاب النفوذ، حتى صار التعليم في المدارس يسند لمن هو غير مؤهل لذلك، لقول صاحب نفع الطيب أنه صار يتعاطى الإقراء في المدارس من لا يعرف حتى رسالة أبي زيد القيرواني. لكن يبدو أن هذا الوضع لم يكن سائدا في جميع المدارس، حيث نجد مثلا أن أبا عبد الله الشريف التلمساني الذي عاصر الآبلي، قد درس بالمدرسة اليعقوبية بتلمسان، وتخرج على يديه ثلة من كبار العلماء أمثال: الإمام الشاطبي وابن زمرك وابن خلدون وإبراهيم المصمودي وغيرهم. وبالتالي لا يمكن الاستغناء عن المدرسة، فلولاها لتقهقر العلم ولما استطاع الإنسان أن يصل إلى ما وصل إليه اليوم، بحيث نادرا ما نجد في عصرنا هذا حيا في قرى ومدن العالم يخلو من مدرسة.

الإحالات :

- ¹ - آبله : مدينة أندلسية ، تقع في الشمال الغربي لمقاطعة مدريد . ينظر : عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1979 ، ص 79 .
- ² - هنين : مدينة صغيرة بناها الأفاقة . تبعد عن تلمسان ب 34 ميلا . كانت تتعامل تجاريا مع مدينة البندقية الإيطالية . كما كان بها ميناء هام في العهد الموحيدي . ينظر : حسن الوزان ، وصف إفريقية ، تحقيق محمد حجي و محمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2 ، ج1 ، ص 15 .
- ³ - محمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، دت ، ص 221 .
- ⁴ - عبد الرحمن بن خلدون ، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج7 ، ضبط خليل شحاتة ، مراجعة سهيل دكار ، دار الفكر ، بيروت ، 2002 ، ص 376 .
- ⁵ - ابن مريم ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، نشر عبد الرحمن طالب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص ص 214 - 215 .
- ⁶ - التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ج2 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2003 ، ص 66 .
- ⁷ - هكسورة : قبيلة بجبل الأطلس في المغرب الأقصى . ينظر : عبد الحميد حاجيات ، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان ، مجلة الأصالة ، العدد 26 ، 1975 ، ص 153 .
- ⁸ - يحي بوعزيز ، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران ، 2003 ، ص ص 96 - 97 .

- ⁹ - ابن مريم ، المصدر السابق ، ص 219 . - محمد بن محمد مخلوف ، المصدر السابق ، 221 . - عبد الحميد حاجيات ، المقال السابق ، ص 153 .
- ¹⁰ - محمد رمضان شاوش ، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 ، ص 425 .
- ¹¹ - يحيى بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج 1 ، تحقيق و تقديم عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1980 ، ص 120 .
- ¹² - يحيى بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 99 .
- ¹³ - قدور وهراني ، الأبعاد الفكرية و السياسية لموقف الآبلي من اتخاذ المدارس بتلمسان ، مجلة الفكر الجزائري ، جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان ، العدد 4 ، ديسمبر 2009 ، ص ص 181 - 182
- ¹⁴ - الونشريسي ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، ج 2 ، تحقيق محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1981 ، ص 479 . التنبكتي ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 414 ، ابن مريم ، المصدر السابق ، ص 216-217 ، المقري ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 5 ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1968 ، ص ص 275-276 .
- ¹⁵ - ابن مريم ، المصدر السابق ، ص 184 .
- ¹⁶ - عبد الجليل قريان ، التعليم بتلمسان في العهد الزياني ، جسور للنشر والتوزيع ، ط 1 ، الجزائر 2011 ، ص ص 169-171 .
- ¹⁷ - قدور وهراني ، المقال السابق ، ص 184 . 231 .
- ¹⁸ - ابن مريم ، المصدر السابق ، ص ص 216-217 .
- ¹⁹ - أحمد بن القاضي المكناسي ، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، ج 1 ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1973 ، ص 231 .



أزمة لغة أم أزمة مجتمع

" قراءة في جدلية العودة والتهميش "

أ. بوحزام نوال، أ. نعيمة مليكة.

- جامعة معسكر - الجزائر

summary

In the light of what is known as modern societies and what it let as crisis : a crisis of identity .crisis of culture a crisis of citizenship .a crisis of education of language.....At least it 's to debate in our writing wich uses the reflex of the back ground of tools of analysis which human and social sciences present and the remedy of a mechanism of the mechanisms of change which touches the societies and its the language which bears our heritage .It's important to believe that our identity is based on one coherent existence which is a reality that can be the centre for us.

Language was and is still among the tools which takes part in puting the basis of the figures of culture and society and preserving its contimuinty .this citation according to the hypothesis and the methodology of the humman sciences Field and the science of language because this latter is in the core of the subject to construct the two levels the individual and the collective and it's essential to make relationship .This is one of the reasons that makes teaching languages a crucial case and can also be among the factors which fight the privatisation of language which leads in its turn in creating a problematic of conflicts between languages and identities and this led to the appearance of regimes and modern private values to make the subject wanted by a lot of special ities and represents one of the most important challenges for the modern Algeria and the arabic world especially and this became dominating the debates in the Arabic thinking during more than a century (duo of traditional and modern)the language became the efficient tool among them both and here rises up the problematic of the study of research in looking for the following questions :and the problematic of preading out and cut of the Arabic for learners of foreign languages ?especially if learning the latters is for need of modernization and this can be the cause of the finging of Arabic and the conflit of languages and ideology .the question now is what are drawbacks of the conflict of language in Arabic socities ?And the relationship between teaching the foreign language and its influence on identity ?which means between the problem of identity as a concept and the relationship between identity and language .

ملخص الدراسة :

في ظل ما يعرف بالمجتمعات الحديثة وما خلفته من أزمات ،أزمة هوية ،أزمة ثقافة أزمة مواطنة أزمة تعليم أزمة لغة..... إلخ، فعلى الأقل هو أن نناقش في كتاباتنا التي تركز خلفية إنعكاس أدوات التحليل التي تقدمها العلوم الإنسانية والاجتماعية ومعالجة آلية من آليات التغيير التي تمس المجتمعات وهي اللغة التي تحمل ميراثنا ، فمن الوهم الاعتقاد بأن هويتنا تستند إلى كيان واحد متجانس وهو واقع من شأنه أن يكون الركيزة لدينا . فاللغة ظلت ولا زالت من بين الأدوات التي تساهم في ترسيخ معالم النسق الثقافي والاجتماعي والحفاظ على استمرارته فهذا القول وفقا لافتراضات النظرية والمنهجية لحقل العلوم الإنسانية وعلوم اللغة لأن هذه الأخيرة هي من صميم الموضوع لبناء المستويين الفردي والجماعي وهي مجال لتأسيس علاقة الذات بالآخر وهذا هو أحد الأسباب في أن تعليم اللغات قضية حاسمة بالرغم من أنه يعد من العوامل في القضاء على الخصوصية اللغوية التي تؤدي بدورها في خلق إشكالية الصراع اللغوي والتعدد الهوياتي وكل هذا أدى إلى إبراز نظم وقيم حديثة وخاصة . ما جعل الموضوع يستهوي الكثير من الإختصاصات ويشكل إحدى الرهانات الأساسية للجزائر المعاصرة والعالم العربي بصفة عامة . بحيث أصبح هذا ما يسيطر على النقاشات في الفكر العربي منذ أكثر من قرن (نقاش محوري يركز على ثنائية التقليد والحداثة) والتي أصبحت اللغة هي الأداة الفاعلة بين هاتين الثنائيتين وهنا تبرز إشكالية الدراسة البحثية في البحث عن التساؤلات الآتية :فيما تتمثل إشكالية الامتداد والقطيعة للغة العربية لدى الفاعلين المتمدرسين للغات الأجنبية ؟ وخصوصا إذا كان الاهتمام باللغات الأجنبية كمطلب حداثي في ظل التفتح على العالم وعمولة الاتصال ما سعى في تهميش اللغة العربية وخلق الصراع اللغوي وبالتالي الإيديولوجي . ما هي مخلفات الصراع اللغوي في المجتمعات العربية ؟ وفيما تبرز حدودية العلاقة بين تدريس اللغة الأجنبية وتأثيرها على الهوية ؟ أي بين إشكالية الهوية كمفهوم وحدلية العلاقة بين الهوية واللغة .

1. مقدمة:

إن الحديث عن اللغة يحيل بنا إلى الحديث عن المجتمع فهي أحد الركائز التي يعتمد عليها في النسق الاجتماعي وبالتالي أي خلل تعرفه أو أي ضعف يعود ظاهريا على المجتمع وهذا ما جعل معظم المجتمعات سواء المتقدمة أو غيرها تحاول الحفاظ على هويتها عن طريق اللغة وذلك بوضع الإستراتيجيات الآلية التي تمكنها من المحافظة على أحد العناصر المهمة في إثبات هويتها . ولعل هذا ما جعل الجزائر كغيرها من الدول تسعى في إثبات ذلك عن طريق سياستها الإيديولوجية المتعاقبة بعد الفترة الإستعمارية كمحاولة رد فعل على نماذج ومخلفات الإستعمار الفرنسي ، هذا ما نتج عنه ظهور مشروعين إيديولوجيين ساهم ولفترة طويلة في تاريخ الجزائر عن طريق إبراز التعدد الهوياتي والفكري الذي عرفه المجتمع الجزائري . وهذا ما سنحاول إبرازه في دراسة هذه الإشكالية الإمبريقية بمعالجة تعتمد على التحليل السوسيو تاريخي مع إبراز الأزمة العلائقية بين اللغة والهوية التي طرحت بشكل جلي في تاريخ الجزائر ، وبالتالي إبراز تمثلات والممارسات التي انعكست على الفاعلين من خلال التعليم وفق النموذجين المتناقضين في الهوية والإيديولوجية .

2. تساؤلات الإشكالية:

- ماهي مخلفات الصراع اللغوي في المجتمع الجزائري ؟
- فيما تبرز حدودية العلاقة بين تدريس اللغة الأجنبية وتأثيرها على الهوية ؟ أي بين إشكالية الهوية كمفهوم وجدلية العلاقة بين الهوية واللغة .

3. الفرضيات:

- أزمة اللغة العربية في المجتمع الجزائري هي امتداد حتمي لتعدد الإيديولوجيات.
- أزمة اللغة العربية في المجتمع الجزائري هي حتمية تاريخية فرضتها مختلف التغيرات والتطورات البشرية بما في ذلك ظاهرة الحداثة والعمولة.

4. منهجية البحث:

- أدوات البحث: الملاحظة – الاستمارة.
- المقاربة النظرية: نظرية التغيير الاجتماعي.
- العينة: طلبة اللغات الأجنبية بقسم العلوم الانسانية بجامعة معسكر بالجزائر، وقد كانت عينة عشوائية تكونت من 160 طالب.
- الإطار الزمني: امتدت الدراسة الميدانية من أبريل 2013 إلى غاية جوان 2013، بقسم اللغات الأجنبية بجامعة معسكر بالجزائر.

5. مفاهيم الدراسة:

- 1-5 مفهوم الحداثة: يوجد اختلاف واضح بين المفكرين والباحثين من مختلف المجالات العلمية في تحديدهم لمفهوم الحداثة، ذلك أن كل منهم ينطلق من إيديولوجية معينة .
- لقد إرتبط مفهوم الحداثة بتلك المرحلة التاريخية التي عاشتها أوربا بدءا من القرن السابع عشر والتي سميت بعصر التنوير خاصة مع الثورة الفرنسية وظهور الرأسمالية، حيث رأى المفكر العربي "هشام شرابي" أن الحداثة تشير إلى تلك الفترة المعروفة بعصر التنوير، والتي قامت في الأساس على "العقلانية في اتخاذ القرار، والفردية كفلسفة سياسية واقتصادية واجتماعية، والوضعية في الممارسات العلمية والاعتماد على العلم والتكنولوجيا لإشباع الحاجات الإنسانية، وتبني نظرية خطية للتاريخ تذهب إلى أن الإنسانية ترتقي عبر الزمن من مرحلة إلى مرحلة أرقى " (1). فهي في أصلها عبارة عن مرحلة انتقالية وحركية وديناميكية جديدة تسعى إلى تطوير المجتمع بكافة مجالاته، وهي بهذا ضد التقليد، وهذا حسب ما تم ذكره من قبل الفيلسوف الفرنسي Jean budrillard أنها صيغة مميزة للحضارة تعارض صيغة التقليد وجميع الثقافات السابقة والتقليدية.
- 2-5 مفهوم اللغة: نسق من الإشارات والرموز، هي أداة من أدوات المعرفة وتعتبر أهم وسائل التفاهم والاحتكاك والتواصل بين أفراد المجتمع في جميع ميادين الحياة. وبدون اللغة يتعذر نشاط الناس المعرفي. وترتبط اللغة بالتفكير

ارتباطاً وثيقاً؛ فأفكار الإنسان تصاغ دومًا في قالب لغوي، حتى في حال تفكيره الباطني. ومن خلال اللغة فقط تحصل الفكرة على وجودها الواقعي.

3-5 الإيديولوجيا: هي نظام من الأفكار المتداخلة كالمعتقدات والأساطير التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية وتبررها في نفس الوقت.

4-5 مفهوم الهوية: تتجاذب مفهوم الهوية في علم الاجتماع بين مقاربتين الأولى تتناولها على أنها مرادفة للانتماء والثانية تعتبرها مفهوم غامض ذلك أن إنتماءات الفرد متعددة ولا يمكن لأي انتماء أن يفرض نفسه بشكل موضوعي كإنتماء أساسي.

الهوية في الأساس حسب C Dubar هي أشكال انتماء الفرد للجماعة أو لفئة اجتماعية وهذا بالنظر إلى مستوى اندماجه في هذه الجماعة (2).

6. اللغة والنسق الاجتماعي:

بالرغم من أهمية اللغة في حياتنا اليومية والتي تتأثر فيما بينها طولاً وعرضاً إلا أن دراسة اللغة في شقها العلمي تركزت على أحادية الأصوات، الصرف والنحو أي تحت راية علم اللغة وهي بهذا بقيت نظاماً مغلقاً بعيداً عن السياق الاجتماعي إلا أنه في السنوات الأخيرة حدث تغييراً جذرياً بعد الإستعانة بعلم اللغة الاجتماعي وهذا نظراً للدور الذي تلعبه اللغة "فهي حدث اجتماعي لهذا فإن الظروف السياسية والتاريخية ضرورية جداً لدراسة اللغة وفهم مكانتها و للأداءات التي يقوم بها، وهي بهذا المعنى جزء من ثقافة المجتمع بل هي الكل فلا ينبغي النظر إليها على أنها وسيلة اتصال فحسب وإنما من أهم أدوات التنشئة الاجتماعية للفرد والمجموعة وبالتالي من أهم مكونات الهوية، فاللغة ظلت ولا زالت العنصر الرئيسي في إعطاء الصفة الاجتماعية للمتحدثين أي هي تسجيل لجملة من الهويات الناطقة. فللغة دوراً محورياً في نمو المجتمع وحركته حيث أن الحراك في مجتمع ديناميكي بحاجة للغة ديناميكية تواكب تطوره وتشكله فقوة اللغة من قوة المجتمع. لكن إذا أردنا الشروع في دراسة العلاقة التي تربط بين اللغة والمجتمع ينبغي علينا مراعاة جملة من المفاهيم الأساسية كمفهوم السلطة والإيديولوجيا والمجتمع فهذه الشبكة المفاهيمية لها مفتاح لأزمة اللغة داخل المجتمع الجزائري. وهذا ما نستعرضه في المبحث التالي.

7. أزمة لغة أم أزمة إيديولوجيات:

قبل الخوض في مسألة إشكالية اللغة ينبغي عرض العلاقة القائمة بين الإيديولوجيا واللغة والتي لطالما طرحت لدى العديد من الباحثين منذ أوريل وصولاً إلى نظرية الإيديولوجيا التي طرحها ألتوسير. حيث أثبت على تأييده بأن الإيديولوجية ما هي إلا سلسلة لغوية مؤسسة /شعيرة/ ممارسة /فعل كلام ولعل الشكل سوف يوضح مشروع الإيديولوجيتين وعلاقتهم بالأزمة اللغوية وذلك على حد التعبير الماركسي الذي يرى في أن اللغة تأخذ المركزية في فهم الواقع الاجتماعي وارتباط اللغة بالطبقة المهيمنة في المجتمع أي وسيط بين السلطة والإيديولوجيا التي تسعى لترسيخها وتطبيعها لدى الفرد.

لمعرفة أزمة اللغة التي تعيشها المدرسة الجزائرية اليوم، علينا الرجوع إلى السياق التاريخي والمراحل التي مرت بها المدرسة في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال أي منذ سنة 1962، حيث ظهر الخلاف حول الأساس الذي تبنى عليه المنظومة التربوية بمختلف مؤسساتها ومنظمتها وقد تمظهر هذا الخلاف بين تيارين رئيسيين هما:

- تيار الثقافة الفرنسية أو ما يعرف بالتيار الفرانكفوني.
- تيار الثقافة الإسلامية .

1.7- التيار الإسلامي:

هو التيار الذي نادى بالأصالة وقد إتخذ الدين كمرجعية أساسية في فلسفة لبناء مجتمع مع ضرورة إحياء التعاليم الدينية التي يطرحها الدين الإسلامي وهذا من أجل بناء حضارة تعمل على رفض مخلفات الاستعمار الفرنسي ومحاولة تطوير التراث الإسلامي عن طريق توظيف العقيدة الإسلامية في كافة مجالات الحياة كما أكد على ضرورة جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية داخل مؤسسات المجتمع المراد تحقيقه وذلك باعتبارها لغة الإسلام ومن توجهات هذا التيار الاعتماد على التربية ومؤسساتها كركيزة لنشر هذه المبادئ ذلك أن التربية تسعى إلى تكوين وبناء منظوماته الحضارية كما أنها واحدة من أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية وبغية الوصول لهذه الغايات داخل المنظومات التربوية بناء "فلسفة قائمة على الرجوع إلى الأصول والأسس الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة حيث يتم الاسترشاد بها والاهتداء بهديها وحتى تتمكن من رسم خطط ومناهج وأساليب تتماشى مع هوية المجتمع الإسلامي" بحيث نجد في القرآن قوله عز وجل "فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (3) ولتحقيق هذه الرهانات اتبع مجموعة من الإستراتيجيات أكد من خلالها على الخطاب الديني والتاريخ واللغة العربية.

1- الخطاب الديني: من خلال تعزيزه ضمن المقررات الدراسية في مختلف الأطوار التعليمية وذلك لما تحمله من قيم ومعايير إسلامية تحث على التضامن والتماسك الاجتماعي تحت راية الدين (توحيد الهويات المتشعبة وذلك نتيجة الاستعمار أي قولبتها في هوية إسلامية واحدة وبالتالي إعادة بناء الأمة الإسلامية .

2- التاريخ: من خلال التأكيد على الثوابت الوطنية .

3- اللغة العربية: من خلال تبني سياسة التعريب لمختلف العلوم التقنية والإنسانية مع الرفض التام للغة الفرنسية ذلك أن في اعتقادهم تحمل جملة من الإيديولوجيات تخدم مصالح الاستعمار الفرنسي.

2.7- التيار الفرانكفوني:

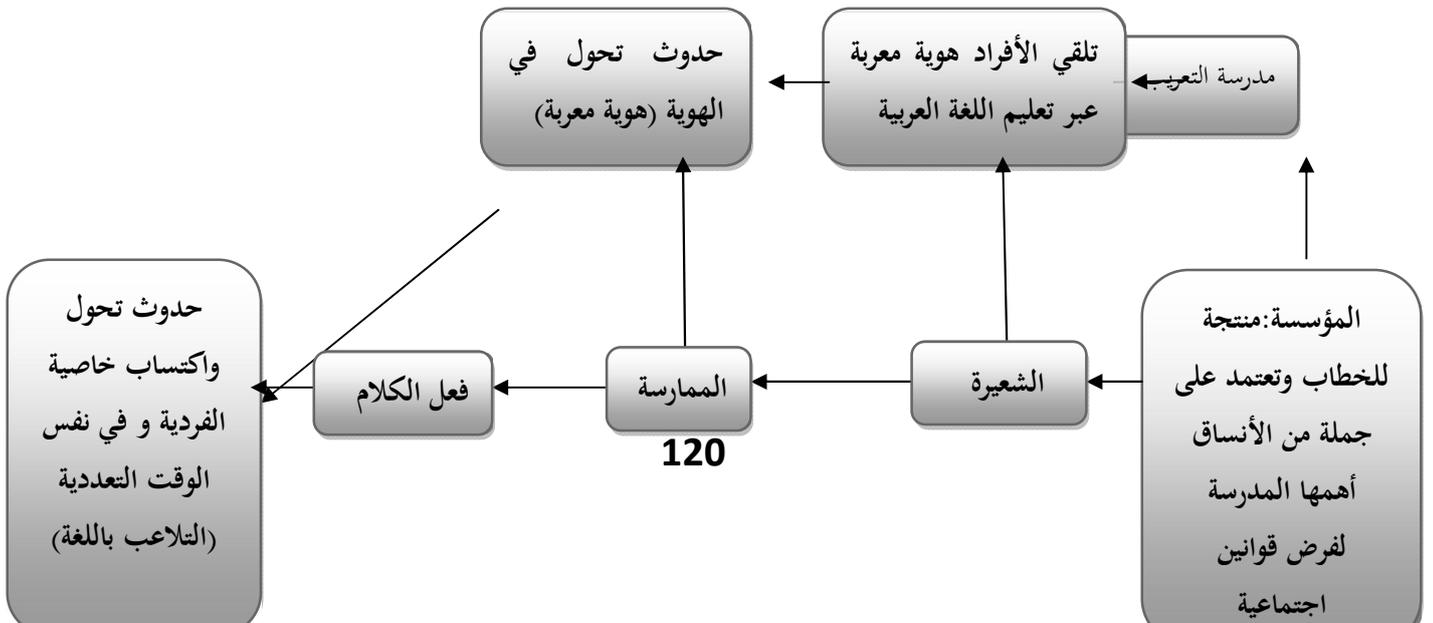
هذا التيار مغاير تماما للتيار السابق وهذا لما يحمله من إيديولوجية غربية تتطلع إلى السياق الحدائي خاصة في القضايا التربوية فتسعى إلى نشر قيم حديثة تقوم على الفلسفة العقلانية والوضعية بإعتبار أن العقل هو مصدر المعرفة العلمية مع تقديس للتكنولوجيات الحديثة وإقصاء للذهنيات الدينية التي تراكمت عبر الزمن على الدين الإسلامي (التقاليد، العادات، الخرافات... إلخ) إضافة إلى ترسيخ القيم الفردية من خلال مبادئ الحرية والمساواة والديمقراطية المستوحاة من الفكر الرأسمالي مع تبني البراغماتية النفعية وجعلها نمط حياة تتحكم وتسير العلاقات

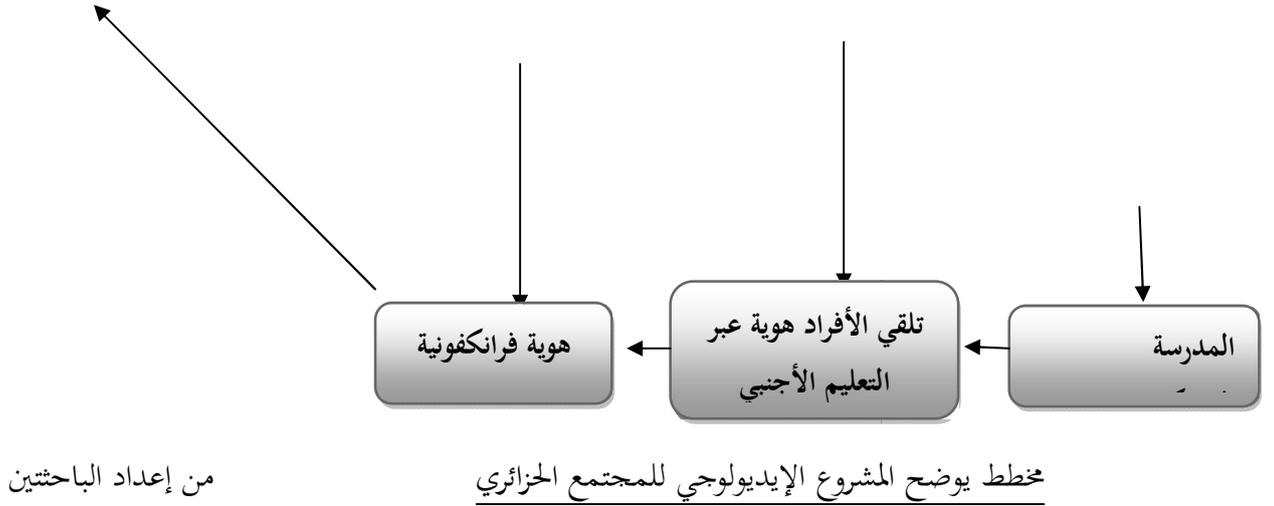
الإنسانية وقد نادى هذا التيار بقطع الصلة مع الثوابت التي تنهاها التيار الإسلامي بحجة أنها أبقت المجتمع والمنظومة التربوية في دائرة التخلف. ذلك أنها أعطت الأولوية لمقرر التربية الإسلامية بحجم ساعي مبالغ فيه وبتسرعها في عملية تطبيق سياسة التعريب وإقصائها للغة الفرنسية، باعتبارها حسب هذا التيار لغة العلم والمعرفة. فبالنسبة لهذا التيار يعتبر "المدرسة أنها منكوبة وسبب نكبتها هي اللغة العربية التي صارت تدرس بها مواد البرنامج والتربية الإسلامية التي كونت الأصولية والإرهاب" (4).

وبالتالي يمكننا القول أن هذا التيار يروج للعلمانية التي تدعو إلى القطيعة التامة بين الدين وتوظيفه داخل بنيات المجتمع، فبني العلمانية مؤشر له دلالة قوية لتقدم أي مجتمع، ويتخذ هذا التيار الدول الأوروبية المتقدمة كنموذج المراد تقليده، وفي هذا الصدد نجد الباحث المغربي محمد عابد الجابري ينفي ذلك بقوله: "سنكون مخطئين إذا اعتقدنا أن الغرب قد تحرر من تلك الخلفيات الدينية التي كانت توجه فلاسفة التاريخ والمستشرقين وأنه غرب علماني خالص، فلا يمكن تجريده من ذاكرته" (5).

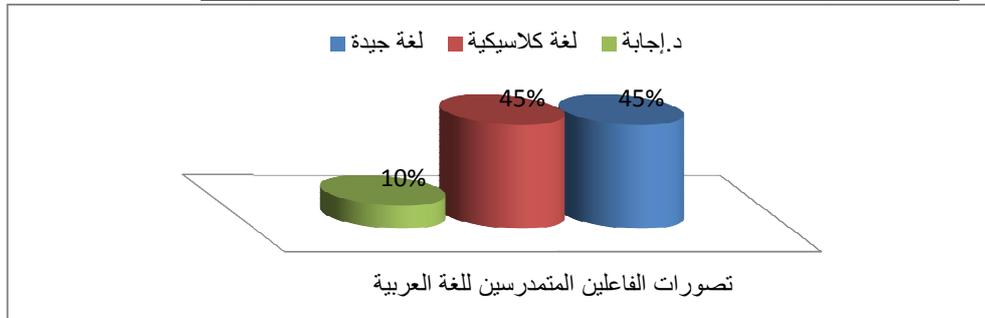
إلا أن هذين المشروعين فشلا في تطبيقهما (المشروع الإسلامي والمشروع الحديث) ذلك أن كل منهما قاما على إيديولوجية معينة فالأول لم يراع خصوصية المجتمع الجزائري آنذاك، ولا إمكانياته ولا تطلعاته، والثاني تبنى مصطلحات وفلسفات غربية لا تتلائم مع المجتمعات العربية. ويرجع الفشل أيضا إلى طموح التيارين إلى الوصول إلى السلطة حيث يرى حامد عمار أن "الانشطار التعليمي والثقافي بين ما يسمى التعليم الديني والحديث ساحة للصراع السياسي والمناظرة الثقافية للمصالح الطبقية والفئوية" (6).

وفي الأخير يمكن القول عبر هذا التحليل الذي قمنا به سواء التحليل التاريخي والسوسيوتربوي للمجتمع الجزائري من خلال هذا الفترة يجعلنا نقر بأن المجتمع قد عرف انتقالات عنيفة من مجتمع تقليدي أي أصولي تحكمه قيم محافظة ذات مرجعية دينية وذو جماعة متضامنة بين أفرادها، إلى مجتمع معاصر تحكمه قيم رأسمالية ليبرالية تعتمد على منظومة قيم ذات نمط فردي يحكمه منطق الغاية تبرر الوسيلة، أي ذو فلسفة براغماتية (طغيان الثقافة المادية التي أقصت العلاقات الإنسانية في مؤسسات المجتمع مع كبت العنصر الديني وتقليص دوره وعدم تفعيله داخل المناهج التعليمية. وهكذا بقيت أزمة اللغة محصورة في غياب معادلة مشروع المجتمع. وأصبح التلاعب بالكلمات هو الظاهرة الغالبة على المجتمع الجزائري أي مجتمع ينساق إلى الجهل اللغوي .



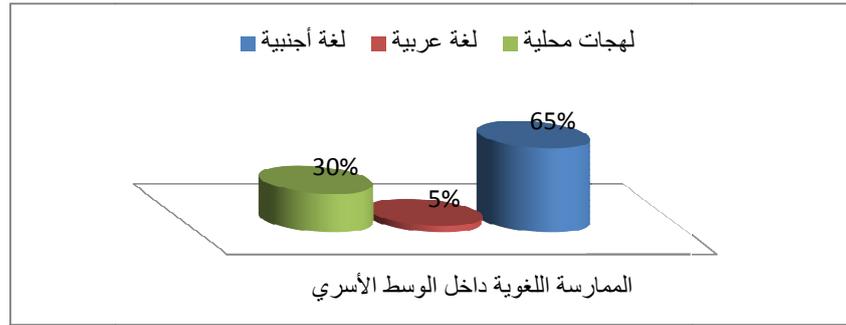


8. تمثلات الفاعلين المتمدرسين للغة الأجنبية حول الممارسة اللغوية العربية:

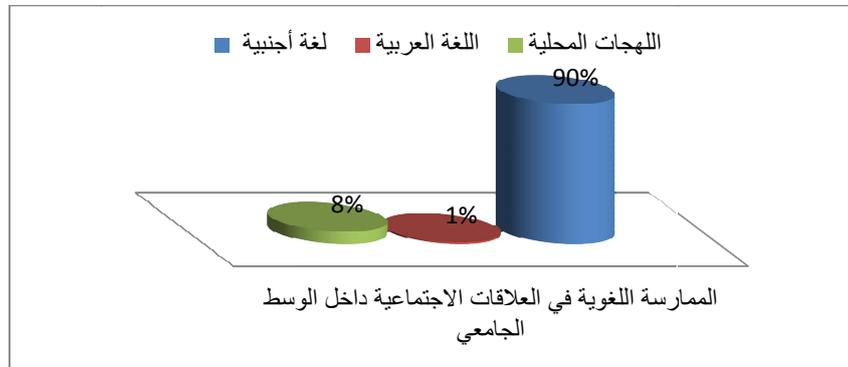


نلاحظ من خلال الرسم البياني أن تمثلات طلبة اللغات الأجنبية حول اللغة العربية قد انقسمت على وجهتين، الأولى تؤكد على وجوب الاهتمام باللغة العربية ذلك أنها اللغة الوطنية وهي التي تعبر عن هويتنا الدينية حيث أنزل بها القرآن الكريم فهي التي تحقق الوحدة الجماعية للمجتمع وهي الرابط المشترك بين الأفراد من مختلف المناطق بالجزائر، وقد تنوعت أقوالهم وتصوراتهم بين "هي لغة كاملة"، "إنها لغة العرب ورمز الوحدة"، "هي لغة الخالق والقرآن الكريم". وفي مقابل هذا نجد الفئة المناقضة التي تعتبر اللغة العربية لغة كلاسيكية لا تتجاوب والعصر الذي نحياه فهي حسبهم لغة الشعر وليست لغة العلم.

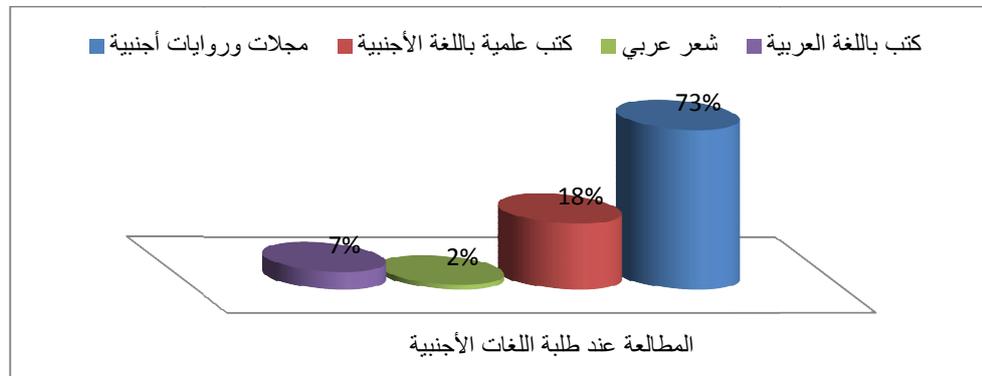
وبالتالي فإن الفاعل المتمدرس هما يتأرجح في فكرته حول اللغة العربية بين القطب الإيجابي والقطب السلبي أي بين أصالة النموذج وقيم التراث وبين الحداثة ولغة العولمة، هذا على مستوى التصور وسوف نستعرض مختلف الممارسات اللغوية للفئة التي تدرس اللغات الأجنبية بمختلف الفضاءات الاجتماعية.



نلاحظ من خلال تفريغنا لاستمارات البحث أن اللغة المتداولة يشكل كبير في الوسط الأسري لدى طلبة اللغات الأجنبية هي اللغة الفرنسية أو الإنجليزية بنسبة 65% ما يدل على طغيان مختلف اللغات على حساب اللغة العربية واللهجات المحلية، فاللغة التي يتحدث بها الفاعل المتمدرس أضحت اليوم بمثابة صورة و مرآة عاكسة لثقافته أو لإكتسابه لمكانة مرموقة في الوسط الاجتماعي حتى أنها أصبحت تتخذ كنوع من الـ prestige .

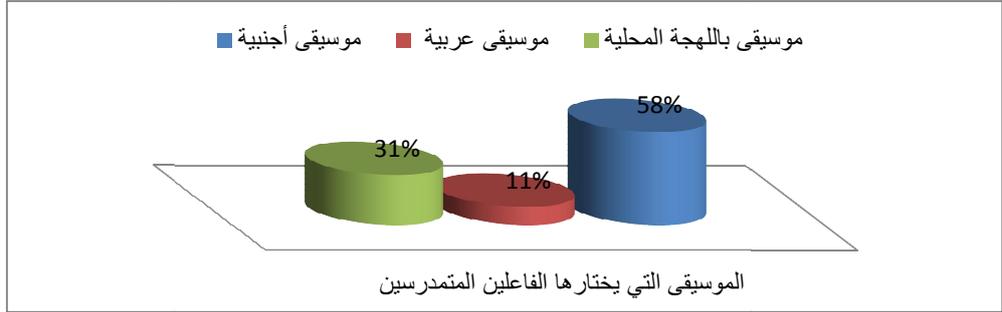


في هذا الوسط بالذات تبرز بصورة واضحة طغيان وهيمنة اللغة الأجنبية على مختلف الممارسات اللغوية للعلاقات الاجتماعية في الجامعة فهي بهذا تحتل مكانة متميزة إذ أن اللغة هنا تعتبر "الموطن الذي يتبلور فيه الانتماء الاجتماعي إلى جماعة يقاسمها عددا من السلوكيات اللغوية" (7) هذه السلوكيات بموجبها تبرز هوية الفرد والجماعة، فمن المعروف أن اللغة تؤثر وتتأثر بالجموعة البشرية فتعمل على قبولية وصقل الفاعل الذي يستخدمها وبالتالي تبرز هويته، كذلك أن اللغة في هذا المجال هي وحدة مشتركة بين الطلاب حيث أنها تظهر كرابط اجتماعي يتحقق من خلاله إندماج الفرد داخل جماعته .



نرصد من خلال النتائج المتحصل عليها أن متغير المطالعة لدى طلبة اللغات الأجنبية (فرنسية وإنجليزية) جاءت وفق ما يفرضه التخصص فنسبة المطالعة باللغات الأخرى سجلت حضورا لدى الفاعل سواء كتب علمية أو

مجالات وروايات، هذا ما يدل على أن الطالب بطريقة تلقائية يجد نفسه ملتزما مرة أخرى باللغة التي يدرسها بالجامعة.



من خلال الرسم البياني نلاحظ أن الموسيقى التي يختارها الطالب الجامعي بقسم اللغات الأجنبية هي في غالبيتها موسيقى غير عربية بل موسيقى التي تفرضها عليه ظاهرة الحداثة والعولمة وهذا ما يظهر بصورة جلية من خلال سلوكياتهم وشكلهم الخارجي فهم بهذا يتأثرون بالتمط الغربي.

في ضوء عرض النتائج المتحصل عليها نستنتج أن هناك علاقة ارتباطية بين اللغة والهوية التي تظهر بشكل جلي في ممارسات الفاعلين المتمدرسين بقسم اللغات الأجنبية حيث عملت هذه الأخيرة على إبراز جملة من الهويات المتعددة بإعتبار أن اللغة وسيلة لنقل وتمرير ثقافات وايدولوجيات هذا ما ساعد على تهميش اللغة العربية وتقليص دورها في عملية التفاعل الاجتماعي، فمن خلال الملاحظات التي ألمنا بها نرى أن سلوكيات الطلبة تأتي وفقا لمعايير وقيم التي تطرحها اللغة الأجنبية.

9. مكانة اللغة العربية داخل المناهج الجامعية:

تمكنت اللغة العربية من استعادة مكانتها الأصلية في المجتمع الجزائري وهذا بعدما عاش تحت راية الايديولوجية الكولونيالية (فرض لغة المستعمر) من خلال سياسة التعريب الذي انتهجه النظام الجزائري وطبقه في المنظومة التعليمية بمختلف مستوياتها فالتعريب في الجزائر اعتبره العديد من المثقفين والمفكرين مطلب ثقافي كان لا بد منه، والذي تم عبر مراحل عدة حيث كان يضاف على كل مرحلة طابع اللارجوع الذي عمل على إبراز اللغة العربية كلغة وطنية. وكأهم مستوى أو طور يهمننا في مقالنا هذا هو المكانة التي تحتلها اللغة العربية في مناهج التعليم العالي والبحث العلمي خاصة إن كنا نعلم أن قرارات التعريب قد شكّلت إحدى أبرز مبادئ الإصلاح (إصلاح التعليم العالي) منذ عام 1971 حيث "أن أحد أهم المبادئ المسجلة في إصلاح التعليم العالي يتمثل في ضرورة إتقان اللغة العربية من قبل الطلبة الذين حضروا شهاداتهم باللغة الأجنبية" (8) لكن رغم هذه الجهود والسياسات إلا أنه لا يزال تصور اللغة الأجنبية على أنها لغة العصر ولغة العلوم والتميز وهذا انطلاقا من تمثيلات الفاعلين المتمدرسين حول اللغة العربية، حيث يعتبر الحفاظ على وجوديتها وضمنا استمراريتها من أكبر التحديات فقد وصفت بالكارثة إلى جانب مقاييس اللغات الأجنبية، ويرجع الباحثون هذه الظاهرة إلى وجود خلل في عناصر المنظومة التربوية (الكتاب، المنهج، المعلم).

كما يرجع العديد من الطلبة أن مقياس اللغة العربية لا يتوافق مع تخصصهم ولا يحقق أي نتائج بالنسبة لهم بل هو مقياس يعرقل تعلمهم واكتسابهم اللغوي بالرغم من تحصيلهم الجيد في مقياس اللغة العربية، كما نسجل من خلال ملاحظتنا المباشرة غياب الطلبة عن قاعة التدريس في مقياس اللغة العربية مما يدل على نفور وإقصاءها بالرغم من قلة حجمها الساعي.

10. نهاية الصراع اللغوي وحتمية الاصطدام الحدائثي :

إن أزمة اللسان العربي في الجزائر تتطلب استعراض اتجاهين ساهم في بلورة إشكالية التعدد اللغوي في المجتمع الجزائري بل وأكثر من ذلك أدى إلى حدوث ما يعرف بالجهل اللغوي، فالجزائر في ظل ازدواجية هذه الإيديولوجيتين المتناقضتين على حساب مشروع المجتمع والتي هدفهما الوحيد الوصول للسلطة قد اتخذت المدرسة كبناء ونسق لتحقيق أهدافهما وتمير إيديولوجيتهما (التعريب، الفرنسية) فكان هذين التيارين بين سياسة العودة والتهميش إما المحافظة على اللغة العربية وإتخاذها لغة وطنية ولغة تعليمية وإما التهميش واستبدالها باللغة الفرنسية لغة الحدائث التي يتغنى بها المستعمر .

في ظل هذه المتناقضات التي عاشتها الجزائر ولفترة طويلة عبر إصلاحاتها التعليمية والتي خلفت أزمة لغوية ومجتمعية وذلك نظرا لما تحمله اللغة من جملة الإيديولوجيات والثقافات فالفرد الجزائري وجد نفسه يعيش صراع لغوي وفكري يحمل كل منهما إيديولوجية مناقضة للأخرى .

لكن بعد كل هذا الصراع الذي عاشته الجزائر إلى أن الفاعلين السياسيين الذي تبنا مشروع المجتمع تغاضوا عن أي لغة تمثل الحدائث هل هي اللغة الفرنسية أم الإنجليزية لغة العولمة والتكنولوجيا والثورة العلمية. فالفرد الجزائري في ظل الحدائث المفروضة وما تحمله من قيم وممارسات وأفكار وجد نفسه أمام لغة ثالثة تحملها حدائث القرن 21م، فحتمية الحدائث التي وجد الطالب الجزائري نفسه يعيشها جعلته يعيش أزمة لا غنى عن الأزمة التي عاشها فاليوم أصبحت اللغة الإنجليزية لغة ملازمة للتغير الاجتماعي الموجود في العالم وأصبحت لغة حتمية وهنا يجدر بنا إبراز الإشكالية التالية هل يستطيع الطالب الجزائري إدراك جملة المفارقات والمتناقضات الموجودة في المجتمع ؟

11. أزمة البحث عن الهوية لدى طلبة اللغات الأجنبية:

إن البحث عن الهوية لدى الكائن البشري لهي حركة مستمرة ودائمة بغية تحقيق التكيف والتوازن الاجتماعي لكن إذا ما رجعنا للفرد الجزائري بصفة عامة نتساءل هنا عن كيفية تحقيق ذلك في ظل التغير الذي يعرفه المجتمع الجزائري (الانتقال من ثقافة تقليدية تتسم بالأصالة إلى ثقافة تطلعية حدائثية) وفي ظل هذه الثنائية فإن الفرد الجزائري أقل ما يجد نفسه أمام أزمة هوية. فالمرجعيات المقدمة للفرد جعلته في حالة فقدان للتوازن أو ما يسمى بالأنوميا اللامعيارية هذا ما ساعد على عملية حدوث التناقض وخصوصا في عصر عولمة الإتصال .

فالجزائر عرفت وضعية متناقضة ثقافيا وإيديولوجيا حيث حاول بعض التيارات تبني استراتيجية الإستراتيجية كمنهج إقتصادي وإيديولوجية سياسية واتخذ الإسلام دين مصرح به للدولة الجزائرية، وهذا ما أدى بالأستاذ مصطفى الأشرف للقول "أن الجزائري هو محل نشاط وحركة دائمة للذهاب والإياب تضعه في وضعية متعارضة ومتناقضة

يستحال فيها العودة إلى الماضي من جهة ومن جهة أخرى وضعية يستحال فيها الوجود والتواجد في الوضع الراهن وضع تقدمي وتطور يسعى الجميع لتحقيقه " (9) . ولعل هذا التناقض الذي وجد الفرد الجزائري نفسه أدى ما يعرف بالازدواج الثقافي الذي أشار إليه العديد من الباحثين أمثال بورديو وبرونو Bourdieu Perneau في تاريخ الجزائر والتي كانت سببا في حالة الأنوميا التي عرفتها الجزائر .

وإذا ما انتهينا إلى أن الثقافة جزء من ونسق شامل يعبر عن هوية الفرد والذي نتجت في نمط عيش مجتمع ما يتم كل هذا في إطار مؤسسات تنشئية كالأسرة وجماعة الرفاق إلخ وهذا ما يشكل هوية ثقافية فمن خلال التواصل داخل هذه البنيات التي تجسد هويتنا الثقافية عن طريق اللغة سواء الشفوية أو المكتوبة بل تعدى ذلك إلى جملة المواقف والسلوكيات التي رصدناها عن طريق تفاعلات التي أبرزت هويات متعددة حيث نجد طالب اللغات الأجنبية يؤدي بعض الممارسات لا على أساس الهوية الوراثية وإنما على أساس الهوية الاجتماعية المتطلعة وهو محاولة تسيير المفارقات والتناقضات حسب التحول الاجتماعي كما نسجل بعض الملاحظات عن سلوكيات وأفعال طلبة اللغات الأجنبية وهو أن معظم الطلبة يلتحقون إلى اللغة الأجنبية والحديث بها لا على أنها لغة علمية وإنما للهروب من التخلف حيث يصرح أحدهم "بقوله" ما بقاش زمان اللغة العربية لغة المتخلفين فأصبحت اللغة الأجنبية ودراستها كوسيلة للهروب من نمط عيش معين "في حين تناسى هؤلاء الفاعلين أن السبب لا يعود إلى اللغة في حد ذاتها وإنما في طريقة التفكير . فالفاعلين في دراستهم انغمسوا وانصهروا في النواتج والمحصلات التي تحملها اللغة من ممارسات ثقافية . وفي نهاية المطاف نلخص أن مسألة عرض إشكالية الهوية المتطلعة لدى الفرد الجزائري مرتبطة ارتباطا وثيقا بتدريس اللغات الأجنبية وما نتج عنها من تغيير في الهوية الوراثية وهذا لما تعرفه هذه اللغات من تطور في جميع أطوار الحياة وتحول في العلاقات الاجتماعية والثقافية , كما نستنتج من هذه الدراسة إلى ما يسمى بالهوية المفروضة حيث أن الطالب وجب عليه تغيير هويته حسب ما يتطلبه التغيير الاجتماعي وخاصة الآن أصبحت اللغات الأجنبية مطلب حداثي وبالتالي التعامل معها بطريقة براغماتية حيث أصبحت لغة لإيجاد الوظائف . وهكذا فإن إنخراط طلبة اللغات الأجنبية ضمن مجموعة معينة بصفة إرادية لا يعني رفض نمط معين من النماذج الأخرى ولكنه قد يبرز صراعا رمزيا يمكنه الانفجار في المستقبل وهذا يستدعي بنا الحديث عن هوية في طور التشكيل .

12. خاتمة:

نظر لأهمية اللغة العربية ودورها في حياتنا الاجتماعية وما تمثله من رمز الهوية وأحد الركائز التي تثبت وجودية المجتمعات العربية على الساحة الدولية وخاصة في ظل الهيمنة الأجنبية دعت الحاجة إلى وضع الإستراتيجيات والتكثيف في البحث عن الآليات التي تمكننا من الحفاظ على هذا الرمز وخصوصا أننا في عصر يستدعي ويتطلب تعليم اللغات الأجنبية باعتبارها رمزا للحداثة إلا أن هذه الأخيرة أحدثت صراعا وعزوبا عن اللغة الأم وغدت المواقف النفسية والجوانب الانهزامية اتجاه مسألة اللغة العربية وسعت إلى إبراز جملة من الهويات التي انفرد بها الفرد الجزائري وأقل ما يمكن قوله هو أن تعليم اللغات الأجنبية في السياسات الإصلاحية التعليمية أحدث صراع لغوي

وإيديولوجي نتج عنه وجود براديجمات لهويات متعددة. وذلك نظرا لحاملي مشروع المجتمع فلم ينظر للغة على أنها لغة علمية وفكرية بل وسيلة لتمرير غايات إيديولوجية معينة وهكذا بقيت إشكالية اللغة العربية في سياق دوغمائي لا يمكنها محاوره اللغات الحداثية والعلمية مما جعلها تبقى مهمشة وبالتالي هذا ما إنعكس على الناطقين بها .

قائمة المراجع:

- 1- سامي محمد نصار، قضايا تربوية في عصر العولمة وما بعد الحداثة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 2005، ص 72.
- 2- Claude Dubar. La socialisation, construction des identités sociales et professionnelles. Armand Colin. Paris. 1991. p 83.
- 3- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 38.
- 4- علي بن محمد ، معركة المصير والهوية في المنظومة التعليمية: الصراع بين الأصالة والإنسلاخ في المدرسة، دار الأمة، الجزائر، 2001، ص 96.
- 5- محمد عابد الجابري ، مسألة الهوية العروبة والإسلام، مركز الوحد العربية، بيروت، 1995، ص 136.
- 6- حامد عمار، دراسات في التربية والثقافة: في آفاق التربية العربية من رياض الأطفال إلى الجامعة، مكتبة الدار العربية للكتاب، مصر، 2003، ص 135.
- 7- خولة طالب الإبراهيمي، تر: محمد يجياتن، الجزائريون والمسألة اللغوية: عناصر من أجل مقارنة اجتماعية لغوية للمجتمع الجزائري، دار الحكمة، الجزائر 2007، ص 169.
- 8- خولة طالب الإبراهيمي، مرجع سابق، ص 138.
- 9- Lachraf.M .Algérie nation et société. paris. 1965. p 118.



الغزو المغربي لبلاد السودان الغربي (غرب إفريقيا)

في نهاية القرن 10هـ/16م دراسة في الدوافع

الأستاذ : عبدالرحمن قدوري قسم التاريخ والآثار جامعة تلمسان .

مقدمة:

تميزت العلاقات بين سلاطين السعديين¹ وملوك السودان الغربي (الأساكي²) بالتوتر والفتور في كثير من الأحيان، وتعتمد على الغرض والمنفعة وتحقيق مصالح استغلالية مغربية في السودان الغربي (غرب إفريقيا)، فمنذ ظهور السعديين (916هـ/1510م)، وقيام دولتهم بالمغرب، سعوا إلى البحث عن موارد ثابتة، تمكنهم من توطيد أقدامهم، وتساعدتهم على تطوير الاقتصاد المغربي لما فيه رفاهية البلاد وازدهارها خاصة في ظل الضائقة المالية التي عانوا منها نتيجة حروبهم المتواصلة مع أعدائهم³. فتوجه السعديون بأنظارهم إلى ثروات السودان الغربي من الذهب والرقيق، وقد ركزوا على مناجم الملح في تغازا⁴، والذي تعتمد عليه سائر بلاد السودان.⁵

وبالفعل فقد أرسل السلطان محمد الأعرج ثاني السلاطين السعديين إلى الأسكيا إسحاق الأول في عام (933هـ/1526م)، يطلب منه تسليم معدن تغازا، وكرر هذا الطلب السلطان محمد الشيخ خليفة الأعرج في عام (951هـ/1544م) بشأن التنازل

¹ - الأشراف السعديين: يرجعون نسبهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان ظهورهم في زمن دب فيه الضعف في دولة المرينيين منذ أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وقد أخذ الوطاسيون محل بني مرين في جنوب المغرب الأقصى، كما قامت دويلات فيما تبقى من البلاد، وكان البرتغاليون جد حريصين على الاستيلاء على الموانئ الأطلسية للبلاد فاحتلوا أصيلة، وأغادير، وأسفي، وأزمور. بالإضافة إلى طنجة و القصر الصغير. أما على شواطئ البحر المتوسط فقد استولى البرتغاليون على سبتة، كما استولى الإسبان على مليلة، ولم ينقذ المغرب الأقصى إلا قيام الدولة السعدية الشريفة، وكان محمد القائم أول السعديين (916-922هـ/1510-1517م)، ثم خلفه ابنه أحمد الأعرج (923-948هـ/1517-1541م)، ثم ابنه الثاني محمد الشيخ (948-965هـ/1541-1557م)؛ ثم أحمد المنصور المعروف بالذهبي والذي امتد حكمه ربع قرن من الزمان، قام خلاله بأعمال عمرانية وإدارية كبيرة في المغرب، وحصن اطراف البلاد، وقد أرسل حملة إلى السودان الغربي قضت على مملكة سنغاي (بمنطقة غرب إفريقيا اليوم).

² - أسس سني على إمبراطورية "صنغى" الإسلامية، وكان أول إمبراطور لها، حتى مات في ظروف غامضة، وبموته انتقل الحكم إلى أسرة جديدة أسسها أحد قواد "السوننكى" إحدى قبائل منطقة غرب إفريقيا، وهو "أسكيا محمد الأول" بعد إعلانه الثورة على ابن "سني على" واستيلائه على السلطة. و"أسكيا" لقب يعنى «القاهر»، حيث قام بتنظيم شئون البلاد من الناحية الإدارية، واستخدم طائفة من الموظفين الأكفاء، كما نظم الجيش وأفاد من الخبرات السابقة، واتخذت حركته مظهرًا إسلاميًا واضحًا، وقد استمر ابناؤه في حكم البلاد إلى أن سقطت في يد المغاربة.

- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، المجلد الثاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1978، ص 283³

⁴ - إقليم تغازا: يقع إلى الشمال من مدينة تنبكت، وهو مصدر الملح في السودان الغربي، عملت كل الممالك التي قامت بالسودان الغربي على السيطرة عليه، وكانت آخرها مملكة سنغاي، وذلك لقيمته الاقتصادية. الهادي الدالي، التاريخ السياسي و الاقتصادي لا إفريقيا . الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999، ص 122.

- المرجع نفسه، ص 123.⁵

عن نفس المعدن¹، مما أدى الى توتر العلاقات السياسية بين المغرب ومملكة صنهايا² انتهت بغزو المغرب للمنطقة واسقاط حكم الأساكي.

أولاً: ظروف الحملة المغربية على السودان الغربي (غرب افريقيا):

عرفت منطقة غرب المتوسط في القرن 16م تحولات جذرية، كان لها الأثر الكبير على العالم العربي والاسلامي، حيث تغيرت موازين القوى بشكل تدريجي نحو الضفة الشمالية للمتوسط، وذلك بعد أن تمكن الاسبان من طرد المسلمين من الأندلس واسقاط آخر ممالكهم غرناطة سنة 1492م، كما ظهرت الدولة العثمانية كقوة اقليمية وعالمية ساهمت بشكل كبير في رد العدوان البرتغالي والاسباني على شمال افريقيا.

ساهمت هذه الأحداث بتزامنها مع تغيرات سياسية واقتصادية داخلية عرفها المغرب الأقصى في توجه السعديين نحو السودان الغربي (غرب افريقيا).

1- الظروف الداخلية للمغرب الأقصى :

واجهت المغرب في زمن الحملة ظروفًا داخلية ارتبطت بمصير الدولة ومستقبلها، فقد انطلقت دعوة السعديين في ظل انقسام داخلي كبير، وتهديد خارجي من طرف البرتغاليين بشكل خاص أدى إلى حدوث معركة وادي المخازن الشهيرة، ومجيء المنصور الذهبي إلى الحكم.

أ- معركة وادي المخازن³ وتأثيرها (968هـ/1578م):

وقع صراع داخل الأسرة السعدية حول الحكم في المغرب ما بين أبو مروان عبد الملك وأخيه أبو العباس المنصور من جهة، وابن أخيهما أبي عبد الله المتوكل على الله من جهة أخرى⁴.

وقد استعان عبد الملك في هذا النزاع بالأتراك لعزل المتوكل، والذين أبحدوه بجيش عظيم تمكن به من طرد ابن أخيه⁵، ودخل فاس منتصراً وبايعه الناس سنة 983هـ، وبذلك استقر له الملك في المغرب وأصبح يلقب بالسلطان المعتمد بالله⁶. وقد نال عبد الملك خبرة واسعة في شؤون الإدارة والجيش، والسياسة في الجزائر أثناء احتكاكه بالأتراك⁷، فما إن تولى حكم المغرب حتى عكف على تنظيم الجيش تنظيمًا جديدًا، على غرار الجيوش التركية⁸.

ولما فر المتوكل، قصد مراكش وطاف في قبائل السوس¹، وكون منهم جيشاً تقدم به إلى مراكش فنشبت معارك طاحنة بينه وبين جيوش عمه، فانهمز فيها هزيمة نكراء، ولكنه استطاع أن ينجو بنفسه وتنقل بين أماكن عديدة إلى أن بلغ سبتة ثم طنجة.

1- إبراهيم حركات ، المرجع السابق، ص 284.

2- مملكة صنهايا هي آخر ممالك السودان الغربي بعد غانا ومالي ، استمر حكمها ما بين القرنين 8 و11هـ/14 و16م، سقطت على يد المغاربة في عهد المنصور الذهبي سنة 1000هـ/1591م.

1- حملت هذا الاسم لأنها وقعت على ضفاف هذا الوادي، كما سميت بمعركة القصر الكبير لأنها حدثت على مقربة من المدينة التي تحمل هذا الاسم، أيضاً سميت بمعركة أصيلا، وسميت بمعركة الملوك الثلاثة لأنها شهدت مصرع ثلاثة ملوك هم سبستان ملك البرتغال، والمتوكل الملك المخلوغ المستنجد بالبرتغاليين، وعبد الملك السعدي. مصادر متفرقة.

- أبو العباس الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الخامس، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1955. ص 65.

3- شوقي الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1977، ص 175. عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة العربية، 1989. ص 249.

4- إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص 292.

5- شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، القاهرة: دار المعارف، ب ت ن، ص 292.

6- شوقي الجمل، مرجع سابق، ص 176.

وهناك تمكن من مقابلة ملك البرتغال "سان سبستيان"، وطلب منه أن ينجده بجيوشه ضد عمه على أن يسلمه الشواطئ المغربية ويحتفظ هو بالمناطق الداخلية²، فوافقه الملك البرتغالي على ذلك³، لأنه رأى فيها فرصة ينفذ بها إلى المغرب والسيطرة عليه⁴، وتغاضى عن نصائح مستشاريه وحاشيته بعدم التورط في بلاد المغرب⁵.

وهكذا قام ملك البرتغال بإعداد جيش عظيم قوامه ثمانين ألفاً من الرجال تقريباً، مدججين بالبنادق والمدافع وسائر وسائل القتال الحديثة، في ذلك الوقت، وتقدموا نحو القصر الكبير بالمغرب⁶. وما إن علم السلطان عبدالمملك بتقدم الجيوش البرتغالية، حتى استعد استعداداً عظيماً من جانبه، وترك العدو يتوغل داخل البلاد عمداً⁷.

وفي يوم الاثنين 6 أغسطس 1578م الموافق لـ 30 جمادى الأولى 986هـ، تقابل الجيشان المغربي والبرتغالي، قريباً من القصر الكبير، على وادي المخازن، وقبل نشوب المعركة بعث عبدالمملك فرقة من جيشه لهدم القنطرة الوحيدة⁸، التي كانت على النهر، كي يتعذر على العدو الفرار إذا ما انهزم⁹.

ثم التحم الطرفان في واقعة عظيمة، دوى فيها الرصاص وقنابل المدافع، واختلط الحابل بالنابل، وتلونت مياه النهر بدماء القتلى والجرحى، ولم يمض وقت طويل حتى لاحت بشائر النصر للمغاربة الأبطال، وحلت الهزيمة بالبرتغاليين¹⁰، وتوجهت فلولهم نحو القنطرة للنجاة بأنفسهم، فوجدوها مهدامة فألقوا بأنفسهم في النهر¹¹.

وهكذا انتهت المعركة بفناء الجيوش البرتغالية، وموت ملكها "سبستيان"، والمتوكل الذي استنجد به، وانتشل الناس جثة الخائن من النهر، وسلخت وحشي جلده تبنياً¹²، وطيف به في الأحياء، جزاءً على خيانتته للدين والوطن.

وفي نفس اليوم، وأثناء المعركة فاضت روح السلطان عبدالمملك، لأنه كان مريضاً جداً من قبل، ولكن همته العالية وإخلاصه لوطنه جعلاه يصبر على حضور المعركة ويشهد نتيجتها سواء بالنصر أو بالهزيمة، غير أن المنية عاجلته و القتال مستمر¹³.

ومن فطنة أبي العباس أحمد أخو الملك، أنه لم يفش سر وفاته في تلك اللحظات الحاسمة، بل ظل يصدر الأوامر إلى القواد والجنود، على أنها من سلطانهم المريض، ولم يطلع الناس على خبر الوفاة إلا بعد انتهاء المعركة وتحقيق النصر المبين¹⁴، واتفقت كلمة الجميع على تولية أبي العباس أحمد الذي لقب بالمنصور¹⁵.

1 - ابوالعباس الناصري، الاستقصا ج 5 ص 67.

2 - الناصري، المصدر السابق، ص 69.

3 - محمود علي عامر ومحمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، مديرية الكتب الجامعية، جامعة دمشق، ب ت ن، ص 53.

4 - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، الجزء السادس، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1994، الجزء 6 ص 175.

5 - ابوالعباس الناصري، مصدر سابق ج 5 ص 83.

6 - عبدالفتاح الغنيمي، نفس المرجع، ص 178.

7 - محمود علي عامر ومحمد خير فارس، مرجع سابق ص 54.

8 - عبد الفتاح الغنيمي، مرجع سابق، ص 183. شوقي الجمل، مرجع سابق، ص 178.

9 - ابراهيم حركات، مرجع سابق، ص 293.

10 - ابوالعباس الناصري، مصدر سابق ج 5 ص 80. عزيز سامح، مرجع سابق ص 256-257.

11 - عبدالهادي التازي، مرجع سابق ص 108.

12 - ابراهيم حركات، مرجع سابق ص 294.

13 - عبدالفتاح الغنيمي، مرجع سابق ص 185.

14 - ابو العباس الناصري، مصدر سابق ج 5 ص 81. عبدالهادي التازي، مرجع سابق ص 104.

15 - شوقي الجمل، مرجع سابق ص 180.

وقد اسر من البرتغاليين فلولاً عظيمة قدرت بنحو أربعة عشر ألفاً افتدوا بمال ضخيم من الذهب¹، حتى أن بعض المؤرخين يرجع لهذا السبب في تسمية المنصور بـ"الذهبي"، إذ كان ما حصل عليه من الذهب من البرتغال، في تقديرهم أكثر مما جلبه من السودان فيما بعد، أما جثة "سبستيان" فقد أرجعها المنصور إلى البرتغال² ورفض أن يقبض المال مقابل ذلك. أما نتائج موقعة وادي المخازن³ فيمكن إجمالها فيما يلي:

- تعد المعركة من أهم المعارك في تاريخ المغرب، شبهها المغاربة بمعركة بدر، وقد تركت لأحمد المنصور رصيلاً مادياً ومعنوياً جعل منه واحداً من أشهر سلاطين المغرب، فقد تدفقت الأموال البرتغالية مساهمة في ازدهار تجارة المغرب⁴، وأتاح النصر فرصة الاستقرار للمغرب، والتفرغ للبناء والتعمير، كما ازدهرت الحركة الفكرية والأدبية وبرز الكتاب والشعراء والأدباء.

- تركت هذه المعركة آثاراً بعيدة، ليس فقط بالمغرب، بل في العالم الإسلامي والمسيحي أيضاً، فبالنسبة إلى المغرب، فقد استعادت الوحدة الوطنية قوتها طيلة حكم المنصور السعدي⁵، كما فرضت الدولة السعدية هيبتها وأمكن لها أن تقضي على المخططات الاستعمارية والمطامع التوسعية التي تعرضت لها البلاد منذ استولى البرتغال على سبتة عام 1415م. وتم إيقاف زحف البرتغاليين نحو المغربين الأوسط والأدنى.

- دعم هذا النصر نفوذ السعديين في المغرب وفرض احترامهم على الجميع سواء في العالم الإسلامي أو في أوروبا، وكان أول ما قام به المنصور هو أن كتب للملك الإسلام يبنئهم بهذا الانتصار العظيم⁶، فتقاطرت عليه الوفود مهنئة ومحملة بالهدايا من القسطنطينية ومصر والجزائر وتونس وفرنسا وإسبانيا، بعد أن كان الجيش العثماني بالجزائر يتهيأ لحملة جديدة ضد المغرب، بهدف غزوه بحجة أن عبدالمملك نكث في عهده للعثمانيين إلا أنهم عدلوا عن ذلك بعد المعركة.

- أدت نتائج هذه المعركة، إلى تحطيم البرتغال وتركها فريسة سهلة أمام فيليب الثاني ملك إسبانيا الذي نجح في ضمها بعد عامين من ذلك سنة 1580م⁷.

وبدأ ملوك أوروبا ينظرون إلى المغرب كدولة كبرى يخطبون ودها، ويحسبون حسابها في خططهم الدبلوماسية⁸.

ب- تولي المنصور الذهبي الحكم في المغرب (986-1012هـ/1578-1603م) : ولد أبو العباس أحمد بن السلطان أبي عبدالله الشيخ بفاس سنة 956هـ، ونشأ في عفاف وصيانة وتعاطي للعلم⁹. وعرف عنه أنه كان مثال الشجاعة والإقدام، وحسن التبصر وسعة الخبرة والإنصاف، وكان على جانب كبير من الفضل والعلم والأدب، وقد ألف كتاباً في السياسة بنفسه .

تولى أبو العباس أحمد الملقب بالمنصور عقب وفاة أخيه عبدالمملك في معركة وادي المخازن كما ذكرنا سابقاً، فأضاف إلى ذلك النصر انتصارات أخرى ضد البرتغال، وكان لذلك صدى في نفوس المغاربة الذين تشجعوا، وضاعفوا من نشاطهم ضد النصارى، حتى تمكنوا من إخراجهم من أصيلا سنة 996هـ. وولد المنصور الأمن في البلاد، وفي زمنه كثر العمران، وازدهرت العلوم والآداب

1 - عبدالفتاح الغنيمي، مرجع سابق ص 187.

2 - ابوالعباس الناصري، الإستقصا ج5 ص 84.

3 - محمود عامر ومحمد فارس، مرجع سابق ص 55.

4 - شوقي الجمل، مرجع سابق ص 181.

5 - ابراهيم حركات، مرجع سابق، نفس الصفحة.

6 - ابوالعباس الناصري، مصدر سابق ج5 ص 86.

7 - نفسه ص 85.

8 - شوقي الجمل، مرجع سابق ص 183.

9 - أبوالعباس الناصري، الاستقصا ج5 ص 89.

وقام بتكوين مجلس ديمقراطي سماه "الديوان"، ومهمته أن يجتمع أفراده المختارون من رجال السياسة والعلم، ليتناقشوا في مصالح الأمة وأمورها.

واهتم المنصور بتنظيم الجيش ، ولكنه أضاف إليه تقاليد المغربية، إلى جانب الأساليب التركية المعاصرة، مخالفاً بذلك عمل أخيه عبدالمملك، الذي كان جيشه ذا نظام تركي محض، فأرضى المغاربة بذلك.¹ ويقال إن قصر البديع الذي بناه في مراكش كان أعظم قصر بني في عهد السعديين، لما احتواه من روعة الهندسة وجمال الفن، كما بنى المنصور الحصون المتعددة، التي مازال بعضها قائماً في فاس والعرائش إلى اليوم.² وكانت مادة السكر موجودة في المغرب في العهد السعدي بكثرة، حتى فاضت عن حاجة البلاد، وأخذ المنصور يصدرها إلى الخارج، فكان يدفع السكر إلى إيطاليا فتدفع له ما قيمته رخاماً، كما أحدث عدة مصانع للمادة في البلاد.³

لما استقر الأمر للمنصور بمراكش، وأمن هجوم الأوربيين من الشمال والغرب، كما أمن هجوم الترك من الشرق⁴، تآقت نفسه إلى مد سلطانه فبعث بعساكره إلى الجنوب حيث استولى على بلاد "تيكورارين" و"توات" من أرض الصحراء، وما انضاف إليها من القرى والمداشر، وقد وصف الناصري ذلك بقوله: "إذ كان أهل تلك البلاد قد انكفت عنهم أيدي الملوك ولم تسسهم الدول منذ أزمان ولا قادهم سلطان قاهر إلى ما يراد منهم، فسمح للمنصور أن يجمع بهم الكلمة ويردهم إلى أمر الله، فبعث إليهم... في جيش كثيف فقطعوا إليهم القفر من مراكش، وانتهوا إليهم على سبعين مرحلة منها، فتقدموا إليهم أولاً بالدعاء للطاعة والإعذار والإنذار، فامتنعوا فنازلوهم وقتلوهم وطالت الحرب بينهم أياماً، ثم كان الظهور لجيش المنصور فأوقعوا بهم...".⁵

وبعد أن استتب له الأمر هناك بدأ المنصور في التطلع إلى بلاد السودان بغية السيطرة على مناجمها وثرواتها، وهو هدف كان يسعى إليه كثير من السلاطين المغاربة من قبله، لكن الظروف لم تكن متوفرة كما هي للمنصور، وقد غزاها بالفعل وقضى على مملكة سنغاي، بالرغم من أنها كانت بلداً إسلامياً تحكمه حكومة إسلامية، وسنورد الدوافع والأهداف التي جعلت المنصور يغزو السودان ووقائع ذلك فيما بعد.

وفي سنة 1012هـ توفي المنصور الذهبي⁶، فانقرض بذلك عقد الدولة السعدية، إذ مال أبنائه من بعده إلى التناحر من أجل العرش، فعمت الفوضى، وقامت الفتن والثورات.⁷

2- الظروف الخارجية :

- 1- محمود عامر ومحمد فارس، مرجع سابق ص 58.
- 2- إبراهيم حركات، نفس المرجع و الصفحة. الناصري، الاستقصا، ج5، ص ص 135-137.
- 3- محمود عامر ومحمد فارس، مرجع سابق، ص 59.
- 4- كانت الظروف الخارجية مواتية للمنصور فقد كانت أوروبا تعيش في فترة صراع دولي بين إسبانيا من جهة وإنجلترا وفرنسا والبلاد المنخفضة من جهة أخرى ، وقد شلت هذه الحروب نشاط إسبانيا في إفريقيا ودفعتها إلى التماس العون من المغرب، كما كانت الدولة العثمانية مشغولة في أوروبا، وفي صراعها مع الدولة الصفوية في إيران، وفي اضطرابات البلاد العربية ولم يكن بإمكانها تهديد المغرب تهديداً جدياً وذلك من جراء تراجع قوتها. وقد استخدم المنصور هذه العوامل ببراعة حيث كان يستعمل إسبانيا ضد الأتراك تارة، وتارة أخرى يستخدم إنجلترا وأسواقها ضد إسبانيا وفق ما تقتضيه مصلحته .

5- الناصري، مصدر سابق ج5 ص 98.

6- الناصري، الاستقصا ج5 ص ص 186-187.

7- الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط2، 1986. ص 323.

ارتبط تاريخ شمال إفريقيا والمغرب العربي بالعالم الإسلامي، كما ارتبط إلى حد كبير بالتاريخ الأوروبي، خاصة دول جنوب أوروبا بحيث يصعب فهم تاريخ شمال إفريقيا، والمغرب بشكل خاص في فترة الدراسة دون الإمام بالأحداث التي كانت تتفاعل في هذه الأقاليم الأوروبية، وتلك التي كانت تحدث في العالم العربي¹. وقد عرفت المنطقة أحداثاً مهمة لعل أبرزها الغزو الإسباني البرتغالي للسواحل المغربية، وطرد المسلمين من الأندلس، وكذا امتداد الحكم العثماني إلى المغرب الأوسط (الجزائر).

أ- الغزو البرتغالي للسواحل المغربية:

في الوقت الذي دب فيه الضعف والانحلال في جسد الدولة المغربية مع نهاية عصر بني مرين²، كانت الدولة البرتغالية الحديثة تتكون وتتوطد، وانطلقت بها النهضة العلمية والصناعية، وتولد الشعور القومي في كامل شبه الجزيرة الإيبيرية خلال الصراع مع المسلمين، فاتسم بالتعصب والنزعة الصليبية³.

وامتدت آثار هذا الصراع إلى شمال إفريقيا، فقد حمل مسيحيو الأندلس شمال إفريقيا تبعة الغزو الإسلامي لبلادهم وتدعيم هذا الغزو، كما صبوا جام غضبهم على المسلمين في إسبانيا، ففر منهم من استطاع الفرار بدينه، وبقي من عجز عن الهرب⁴. وتعقب المسيحيون المسلمين الفارين إلى الشمال الإفريقي⁵، وقامت حروب طاحنة أطلقوا عليها اسم حروب الاسترداد⁶.

وقد أعطت هذه الحروب للبرتغال دفعة دينية قوية، بدليل أن الملك "يوحنا" والد الأمير "هنري" الذي عرف فيما بعد باسم "هنري الملاح" قد صرح بأن الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه أفراد العائلة الملكية الفخار هو ميدان القتال ضد المسلمين في المغرب، وأنه يمنح أكبر وسام في بلاده وهو وسام "السيد الأعظم" لمن يجاهد في هذا الميدان، وكان هذا الشرف من نصيب "هنري" الابن الثالث للملك والذي تصدى لهذه المهمة⁸.

1 - شوقي الجمل، مرجع سابق ص 41.

2- الدولة المرينية: المرينيون فخذ قوي من قبيلة زناتة البربرية، ويؤكد بعض المؤرخين انتماء المرينيين الى العرب عن طريق جددهم الأعلى زناتة، وتعد قبيلة بني مرين نموذجاً للقبيلة البدوية التي استطاعت بفضل جهود قادتها وعلى مدار ما يقارب ستين عاماً من الكفاح أن تفرض واقعاً سياسياً وقبلياً جديداً على حساب نفوذ دولة الموحدون الذي بدأ يتلاشى تدريجياً في معركة حصن العقاب في الأندلس سنة 609هـ/1202م أمام الممالك النصرانية الإسبانية. استغل المرينيون الظروف السياسية والاقتصادية السيئة التي عاشتها دولة الموحدون في آخر عهدها خاصة بعد انفصال الحفصيين في تونس، والزبانيين في تلمسان وبني الأحمر في الأندلس، ودخلوا المغرب الأقصى تحت قيادة الأمير عبدالحق المريني (592-614هـ/1196-1217م) معلنين قيام دولتهم، واستغلوا جو الاستقرار الذي ساد في عهدهم لتطوير وضعهم الاقتصادي فزدهر على اختلاف صعدته تجارياً وصناعياً وزراعياً وتمكنت الدولة المرينية أن تترك بصمات حضارية لازالت ماثلة الى وقتنا الحاضر خاصة في النواحي المعمارية والثقافية والدينية والعلمية، بدعم من سلاطينهم الذين لم يقيموا دولتهم على أساس ديني أو فكري أو سياسي، مما أعطى هامشاً كبيراً للإبداع والتطور الفكري والحضاري على مختلف الصعد، واهتم المرينيون ببناء المدارس والمساجد والمؤسسات الوقفية والمدن الجديدة. كما أبدع المرينيون في استحداث النظم الإدارية والعسكرية فأصبحت لديهم دولة قوية فرضت نفسها سياسياً وعسكرياً في حوض المتوسط. إلا أنها ما لبثت أن انحارت سنة 869هـ/1465م تحت وطأة الخلافات الداخلية التي تمحورت حول التنافس على السلطة في بلاد المغرب الأقصى.

5- محمود عامر ومحمد فارس، مرجع سابق ص 16. وايضاً: واشنطن ارفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هلاقي يحي نصر، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت 2000. صفحات متفرقة.

- الفريد البستاني، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، مكتبة الثقافة الدينية، 2002. ص 45.

- الحسن السائح، مرجع سابق ص 326.

- شوقي الجمل، مرجع سابق ص 42.

- كولوين ماكفيدي، أطلس التاريخ الإفريقي تر: مختار السويدي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987. ص 109.

10- عبدالعزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب لعالمية الثانية، بيروت: دار الفكر العربي، 1999.

هذا الأخير، هو الذي حكم البرتغال فيما بعد (1394-1460م)، وقد راودته فكرة رسم خطة كاملة لحمالات بحرية تستولي على سواحل إفريقيا الشمالية، بل وتتابع إلى الجنوب، حيث مصادر الثروة التي كانت تعتبر الأساس الذي يعتمد عليه المسلمون في بناء وتدعيم جيوشهم، وكانت هذه الخطة تتجه أولاً للوصول إلى "غانة" التي ذاعت شهرتها لثروتها وتجارتها مع المسلمين، وكانت ثغور المغرب تعتبر المنافذ الرئيسية لهذه التجارة. كما كانت تهدف إلى نشر المسيحية ببلاد المغرب، وتوطيد العلاقة مع أثيوبيا المسيحية بغية تطويق العالم الإسلامي¹، وقد جاءت هذه الخطة متزامنة مع انطلاق حملات الكشوف الجغرافية التي تمكن البرتغاليون من خلالها الالتفاف حول إفريقيا عبر طريق رأس الرجاء الصالح².

وهكذا استولى البرتغال على ثغر سبتة سنة 818هـ، في العهد المريني، أي قبل سقوط غرناطة بنحو 76 سنة، وذلك بسبب حيلة استعملوها، وهي أنهم أنزلوا بمرساها عددا من الصناديق على اعتبار أنها بضائع وبيع، بينما كانت تحتوي على حوالي أربعة آلاف جندي، فانقض هذا الجيش على السكان الأمنيين بغتة، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً واحتلوا المدينة³. وفي سنة 869هـ احتل البرتغال مدينة طنجة، وقد أتوا إليها من سبتة، وظلت بأيديهم مدة طويلة من الزمان، ثم قدموها هدية إلى ملك الإنجليز بمناسبة المصاهرة التي تمت بين الأسترين الملكيتين، البرتغالية والإنجليزية.

وفي سنة 874هـ استولوا على أنفي، التي سميت فيما بعد بالدار البيضاء، وظلت بأيديهم مدة أربعين سنة، وفي سنة 876هـ احتلوا اصيلا، وألقوا القبض فيها على الأمير محمد بن السلطان محمد الشيخ الوطاسي، كما قبضوا على أسرته. وظل هذا الأمير في الأسر عند البرتغاليين مدة سبع سنين إلى أن افتكه والده بمال جسيم، ومنذ ذلك الوقت عرف الأمير الأسير بالبرتغالي⁴. وانتهز البرتغال انشغال الوطاسيين بالدفاع عن السواحل الشمالية للمغرب، للاستيلاء على الثغور الجنوبية غير المحصنة والتي لم يكن بها أي دفاع منظم، فاستولى على حصن فونتي (أغادير) سنة 875هـ، وعلى آسفي سنة 910هـ، وأزمور سنة 918هـ⁵، وكان الإسبان قد استولوا على العرائش بالشمال في عهد محمد البرتغالي. وكان انشغال الوطاسيين عن الدفاع عن الجنوب من الأسباب التي ساعدت على ظهور الدولة السعدية سنة 915هـ/1513م⁶.

وفي الوقت الذي كان فيه البرتغاليون يستولون على ثغور المغرب، كان الإسبان يستولون على ثغور المغرب الأوسط والأدنى، فقد استولوا على بجاية سنة 910هـ، وعلى وهران سنة 914هـ، وعلى تلمسان سنة 923هـ⁷. ولكن العثمانيين استطاعوا أن يطردوهم منها⁸، واستمر الصراع بين المغاربة والبرتغاليين زهاء 364 سنة.

ب- العلاقات المغربية العثمانية :

تراوحت علاقات المغرب بالأتراك العثمانيين بين التعاون تارة، والصراع تارة أخرى بسبب تداخل المصالح بين الطرفين، خاصة فيما تعلق بالأوضاع الداخلية للمغرب الأقصى، ورغبة العثمانيين الدائمة في التوسع نحو المحيط الأطلسي غرباً.

1 - نفسه ص 61-62.

2 - محمد حمدي علي، الكشوف الجغرافية من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، مطبعة الجمالية، القاهرة 1913. ص 12-14.

3 - عبدالفتاح الغنيمي، مرجع سابق، ص 75.

4 - المرجع نفسه، ص 80.

5 - المرجع نفسه، ص 83.

6 - عبدالهادي التازي، مرجع سابق ص 7.

7 - الغنيمي، مرجع سابق، ص 85.

8 - بسام العسلي، خير الدين بربروس، بيروت: دار النفائس، 1980، صفحات متفرقة.

فقد سعى الأتراك العثمانيون منذ الوهلة الأولى التي دخلت فيها قواتهم إلى الموانئ والديار المغاربية في الجزائر وتونس وطرابلس على العمل على كسر شوكة القوى الأوروبية المسيحية¹، ومنعها من تنفيذ مخططاتها لاحتواء الأراضي المغربية وخاصة في المغرب الأقصى. ومن ثم كان إرسالها شحنات السلاح التركية الوفيرة للمغاربة في أثناء جهادهم لتحرير السواحل والمدن المغربية.² ولكن إزاء تطور القوة العسكرية المغربية فإن خلافاً قد حدث بين اتجاه حكام المغرب الأقصى من السعديين، وبين سلاطين آل عثمان الأتراك، ذلك لأن السعديين الذين كانوا يعتبرون بنسبهم القرشي الشريف كانوا يرفضون الاعتراف بالخلافة العثمانية باعتبار أن الأتراك أعاجم³، وسعوا إلى الترويج إلى فكرة الخلافة المغربية على سائر البلاد الإسلامية وخاصة البلاد المغربية⁴، كما رفضوا الوصاية الخارجية حتى ولو كانت من دولة إسلامية كبرى كالإمبراطورية العثمانية .

كما أن الخلافة العثمانية من جانبها حاولت مراراً بسط نفوذها على المغرب الأقصى، بعد أن استتب لها الأمر في سائر بلاد المغرب بعد أن قامت بدور عظيم في تحرير سواحلها من الاحتلال الإسباني⁵، فدخل الطرفان في تنافس شديد وفي علاقات حذرة بينهما، تطورت في أحيان كثيرة إلى الصراع المسلح.

وقد دُشنت العلاقات المغربية العثمانية بعهد محمد الشيخ السعدي منذ أن التجأ أبو حسون الوطاسي إلى الجزائر، فعمد محمد الشيخ إلى غزو تلمسان سنة 957هـ (1551م)⁶، وكان رد الأتراك أن احتلوا فاس سنة 961هـ ونصبوا أبا حسون، ولكن لم يلبثوا أن انسحبوا بعد الحصول على تعويضات هامة من جهة⁷، ولتركهم الجزائر بلا دفاعات هامة من جهة أخرى، مما فسح المجال للسعديين للسيطرة عليها مجدداً.

وفي سنة 964هـ/1557م، تم اغتيال محمد المهدي على يد جماعة من الأتراك، مما أدى إلى توتر العلاقات المغربية العثمانية فترة من الزمن⁸، ثم هاجم الأتراك المغرب بجيش قاده حسن بن خيرالدين باشا، ولكنهم انهزموا عند وادي اللبن، وذلك في عهد الغالب سنة 965هـ⁹، ولم يقبل الغالب بدوره الاعتراف بالخلافة العثمانية.

أما عبدالمملك وأحمد المنصور فقد التجأ منذ وفاة والدهما إلى البلاط العثماني للسيطرة على العرش المغربي، فأمدتهم الأتراك بجيش - كما ذكرنا سابقاً - قوامه خمسة آلاف مقاتل من أتراك الجزائر، وبفضل هذا الجيش سيطر عبدالمملك على فاس وبويع سلطاناً، بينما انسحب الأتراك مقابل تعويضات التزم الأخوان من قبل بأدائها وكان ذلك سنة 983هـ¹⁰. وقد وقع خلاف حول ما اتفق عليه من قبل ما بين الأخوين والأتراك مما أدى بهم إلى تجهيز حملة ضد المغرب، توقفت بعد الانتصار العظيم في معركة وادي المخازن¹¹.

⁹ - محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986. ص 669.

- عبدالفتاح الغنيمي، مرجع سابق 299.

- عبدالعزيز سامح، مرجع سابق ص 176.

- الغنيمي، نفس المرجع والصفحة السابقة.

- عبدالعزيز سليمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر الإسلامي، بدون مكان وتاريخ النشر. ص 106.

- عبدالهادي التازي، مرجع سابق ص 16.

- ابراهيم حركات، مرجع سابق ص 341. الناصري، الإستقصا ج 5 ص 28. عبدالعزيز سامح، مرجع سابق، ص 187.

- الهادي التازي، مرجع سابق ص 9، الناصري، الإستقصا ج 5 ص 32.

- الهادي التازي، ص 30. الناصري، الاستقصا ج 5 ص 39.

- إبراهيم حركات، مرجع سابق ص 342.

- عبدالعزيز سليمان، مرجع سابق ص 110.

ومنذ عهد المنصور الذهبي اتسمت العلاقات بالتوتر حيناً خاصة في حالة التدخل العثماني في شؤون العرش المغربي¹، وبالتقارب والتعاون بعد تزايد الخطر الإسباني بعد ضمها للبرتغال سنة 1580م، وتبادل فيها الطرفان الكثير من الهدايا والسفارات.

وقد تحسنت العلاقة بين الطرفين في أواخر عهد المنصور بسبب انشغال السلطان العثماني بالحرب مع النمسا، والاضطرابات داخل البلاد العربية. بينما فترت العلاقة بعد وفاته بسبب انشغال كلا الطرفين بمشاكله الداخلية.

ج- ضعف مملكة صنهايا:

شهدت مملكة صنهايا بعد إقصاء السلطان الأسكيا الحاج محمد من الحكم سنة 1586م، حالة من التصدع في العلاقات داخل البيت الحاكم، ترتب عنها انعكاس على الحالة السياسية والاقتصادية للمملكة، وظهر التنافر بين أبناء الأسكيا بغرض السيطرة على الحكم، وبدأ التدهور يظهر في أمور الدولة، وحدث التمرد من أمراء المقاطعات والقبائل²، فقد ثار "الصديق" والي منطقة تنبكتو، وقام بغزو "غاو" عام 1588م، على رأس قوات المقاطعات الغربية، ونصبته تمبكتو أسكيا ولكنه لم يصمد أمام أسكيا غاو الجديد "إسحاق الثاني"، الذي قمع الثورة بوحشية وأباد جيوش الغرب³.

وهكذا انقسمت مملكة صنهايا من الناحية المعنوية، وأصبحت تعاني من فوضى سياسية، واقتصادية، واجتماعية، مما أصبح يعرضها أكثر من أي وقت مضى للغزو الخارجي، وهذا ما استغله المغاربة بزعامة احمد المنصور الذهبي، الذي جهز حملة عسكرية لغزو السودان انتهت بالقضاء على المملكة.

ثانياً- دوافع الحملة المغربية على السودان:

لقد هيأت الظروف الداخلية والخارجية للمغرب في عهد المنصور الذهبي الأجواء لهذا الأخير للتوجه جنوباً نحو السودان لتحقيق جملة من الأهداف والدوافع، تعددت مجالاتها سياسياً، عسكرياً، اقتصادياً، ودينياً.

1- الدوافع السياسية: ويمكن أن نجملها في النقاط التالية:

أ- الأجواء الدولية وعملية الغزو:

لا شك أن التطورات السياسية والتهافت الاستعماري والصراعات الدينية التي قادت عند نهاية القرن السادس عشر إلى مجامعات بين دول غرب أوروبا وفي جنوبها، قد فتحت الطريق أمام المنصور لتنفيذ مخططاته، فقد كان المغرب في مأمن عن الخطر والغزو، ولو لفترة محدودة.

ولكن هذه التطورات نفسها أدت إلى إقفال أبواب الشمال والشرق في وجه المغرب بعد ضياع الأندلس، وامتداد الحكم العثماني إلى الجزائر، لأنه كان من مألوف الأمور عند ملوك المغرب من أيام المرابطين ثم الموحدين أن يتوسعوا في الأندلس أو الجزائر، إلا أن استيلاء ملوك إسبانيا على بلاد الأندلس جعل التوسع هناك متعذراً، واستتباب الأمر في الجزائر للأتراك حال دون

1- الناصري، الإستقصا ج 5 ص 95. عبدالعزيز سامح البر، مرجع سابق ص 265.

2- الهادي الدالي، مرجع سابق، ص 197.

3- س م سيسوكو، الصنهايا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، تاريخ إفريقيا العام، المجلد 4، اليونسكو، بيروت: المطبعة الكاثوليكية،

1988. ص 208.

الإنسياح شرقاً، ففي المشاورة التي عقدها المنصور لأخذ رأي نصحائه في غزو السودان - سنأتي على ذكرها لاحقاً - أورد ما ذكرناه قائلاً: "فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقاتلة الإفرنج ومن بذلك الساحل من أمم الأروام، والموحدون اقتنوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية، والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان، ونحن اليوم قد انسدت أبواب الأندلس باستيلاء العدو الكافر عليه جملة، وانقضت عنا حروب تلمسان ونواحيها من الجزائر باستيلاء الترك عليها"¹.

وفيما كان المغرب منذ بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر، يمثل بالنسبة إلى أوروبا الجسر الأكثر ملاءمة للعبور إلى إفريقيا الغربية والهند والعالم الجديد² عن طريق سواحله المترامية الأطراف، وبفضل موانئه العميقة، كان في نظر العثمانيين المنطقة الغنية الأهلة التي استعصت على جيوشهم، والبلد العربي الوحيد الخارج عن دائرة خلافتهم³. ومعنى هذا أن المنصور كان يرى في احتلال بلاد السودان منفذاً عسكرياً واقتصادياً للمغرب إلى الجنوب فرضته عليه الظروف.

ب- الحيلولة دون تطويق المغرب من الجنوب:

لقد اتجه جهد السعديين بشكل عام إلى تحرير السواحل المغربية في الشمال، أما في الجنوب فكان العمل بنظرهم وقائياً يرمي إلى منع العثمانيين من الوصول إلى وسط وغرب إفريقيا، وشل حركة المستعمرات البرتغالية التي قامت في منطقتي "أركان" و"غامبيا"⁴، ومنع القوات المتواجدة فيها من التوغل شرقاً والوصول إلى مصادر الذهب والملح، وبالتالي منع أي امتداد نحو المغرب في المستقبل مع حرمانه من ثروات السودان التي يريدها لنفسه.

لقد لعبت هذه الجيوب الاستعمارية دوراً كبيراً في تحويل التجارة القائمة بين المغرب والصحراء وتزايد خطرها بالرغم من زوال دولة البرتغال الأم، إذ قامت بمهمات تجارية كثيرة أهمها تجارة العبيد ومبادلة الذهب بمصنوعات مختلفة، وكان هناك تبشير مسيحي، كما كانت هناك حملات عسكرية محدودة وتجارة لبيع السلاح انطلاقاً من أربع مستعمرات صغيرة على الساحل الغربي لإفريقيا⁵. وقد فوجئ المنصور بحلول جيش إسباني مكان الحامية البرتغالية، في أركان عام 1588م، فلجأ إلى مفاوضات طويلة مع الإنجليز لمساعدته بأسطولهم على احتلال الرأس، واستمرت تلك المفاوضات دون جدوى حتى أواسط عام 1600م⁶.

وقد اكتفى المنصور خلال ذلك باعتراض السفن المتجهة إلى الجنوب، حيث استطاع أن يصادر الكثير من مدافع تلك البواخر قبالة سواحل أغادير، كما أنه واصل لمدة طويلة مهاجمة جزر الكناري باعتبارها عقدة المواصلات الرئيسية نحو الجيوب الاستعمارية على الساحل الإفريقي⁷.

- الناصري، الإستقصا ج 5 ص 113.¹

- ويقصد به الأمريكيتين، الشمالية والجنوبية. بحيث احتلت البرتغال البرازيل وإسبانيا بقية أمريكا الجنوبية كلها.²

- محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مكتبة الإسكندرية، 2005. ص 88.³

¹ - نزل البرتغاليون أول مرة على ساحل إفريقيا الأطلسي، في عهد منسا محمود الأول عام 1484م، وبنوا أكواخاً من الخشب في رأس أركان شمال مصب نهر السنغال. وفي عام 1553م، في عهد حكم منسا محمود الثاني فقد اختاروا بعد استكشافات طويلة، موقعا منيعا في غامبيا السفلى وسط ساحل بلاد السنغال، ولكنهم واجهوا في هذه المرة مقاومة عنيدة من الماليين ثم أسسوا قلعة أخرى أطلقوا عليها اسم "ميناء" في ساحل الذهب (غانا) لم تسبب لدى القبائل المجاورة أي قلق.

- محمد الغربي، مرجع سابق، ص 149.⁵

- عن العلاقات المغربية البريطانية، انظر: حركات، مرجع سابق ج 2 ص ص 349-351. الغربي، مرجع سابق، ص 102.⁶

- ابراهيم حركات، مرجع سابق ج 2 ص 419.⁷

وعموماً فإن الوجود الأوروبي على الساحل السوداني كان يقض مضاجع المنصور، ويشكل في نظره منطلق تهديد للمغرب، ولمشاركته التوسعية، وقد أعطاه ذلك التهديد الفرصة المواتية ليظهر بمظهر الأمير المسلم المزاو لإحدى واجباته الدينية المقدسة.

ج- ربط المغرب بإمبراطورية كاتم- بورنو¹ :

حصل تطور سياسي هام خلال القرن 10هـ/16م، نتيجة قيام دولة إسلامية في "برنو" في السودان الأوسط، واتخذ حكامها سياسة الوفاق والتفاهم تجاه دول وحكام المغرب، وفي نفس الوقت وسعوا دولتهم لدرجة اصطدم معها نفوذهم بنفوذ الأسكيا في المغرب، ودخلوا معهم في صراع مدة من الزمن، ودفع كلاً من الحاكمين إلى البحث عن الوسائل والسبل التي تحقق له القوة وتكفل له النصر².

فقد أرسل ملك برنو إدريس الثالث (972-1005هـ/1564-1596م)، سفارة إلى المنصور الذهبي، تحمل الهدايا وكان من مهامها أن تقدم للمنصور خطاباً من الملك إدريس الثالث يطلب منه النجدة والمساعدة بالعساكر والأسلحة لمحاربة أعدائه الوثنيين في السودان³. فاستغل المنصور هذه الظروف لصالحه، مشترطاً على ملك برنو البيعة له كخليفة للمسلمين لتلبية طلبه، فبايعه إمبراطور برنو كاتم سنة 1582م، وكتبت البيعة بفاس ونقلت إلى "نجامينا" حيث أشهد الإمبراطور على نفسه وعلى رعيته بمنطوقها وتبعاتها⁴. ولكن المنصور برغم تنفيذ شرطه لم يف بوعده بإرسال الأسلحة والجنود خشية أن ترتد ضد المغرب.

ولهذا فقد قرر المنصور تطويق مملكة سنغاي من الشرق ليفتح الاتصال المباشر بينه وبين مملكة برنو الإسلامية، فالواضح إذاً أن المنصور لم يكن يفكر فقط بإمبراطورية السنغاي فقط بل كان تفكيره يتجاوزها إلى تخوم الشمال الإفريقي من مصر إلى الجزائر، وتمركزه على امتداد الساحل الصحراوي الذي يجد تلك البلاد جنوباً⁵.

5- ظهرت هذه المملكة في الأراضي المحيطة ببحيرة تشاد وتقع عليها اليوم جمهورية تشاد وقسم من شمال نيجيريا، وقد امتد نفوذها في أزهى عصورها من النيجر غرباً إلى النيل شرقاً ومن شمال الكاميرون الحالية إلى طرابلس في ليبيا، ويعتقد أن كلا من كاتم وبورنو كانتا مملكتين منفصلتين ثم اتحدتا تحت حكم واحد، وقيل أن كاتم كانت في الشرق ثم تعرضت للضعف والغزو من طرف القبائل العربية التي استوطنت منطقة النوبة، فهرب حكامها إلى غرب بحيرة تشاد وأسسوا مملكة بورنو، وصل إلى حكم هذه البلاد في منتصف القرن الحادي عشر أسرة يطلق عليها إسم السيفيين، نسبة إلى سيف بن ذي يزن في اليمن، وأسس هذه الأسرة "جمادي" ما بين (1075-1080م)، انتشر الإسلام في هذه الربوع قبل ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، وقد تمتعت هذه المملكة في زمن قوتها بتنظيم سياسي وإداري دقيق، وتميز نظامها باللامركزية وكان على رأسها سلطان مقدس. وقد ربطتها علاقات اقتصادية وثقافية قوية مع بلدان الشمال الإفريقي. للمزيد عن مملكة كاتم-بورنو أنظر:

- ظاهر جاسم، إفريقيا ما وراء الصحراء، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة 2003.ص

51.

- اسماعيل ياغي، محمود شاكر. مرجع سابق ص 194.
- ديرك لانجي، مالك تشاد وشعوبها، تاريخ إفريقيا العام المجلد الرابع، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1988.ص 247-255.
- الهادي الدالي، مرجع سابق ص 168.
- ابي فضل العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار السفر4، تح حمزة عباس، المجمع الثقافي، أبوظبي 2002 ص 95.
- ديرك لانجي، المرجع نفسه، ص 267.²
- الناصري، الإستقصا، ج5 ص 104.³
- الناصري، المصدر السابق، ص 106.⁴
- محمد الغري، مرجع سابق، ص 153.⁵

ومن هنا نصل إلى النتيجة النهائية التي تبرر غزو المغرب للسودان، وهي الربط الجغرافي بين المغرب ومملكة برنو بإزالة الحاجز الذي يفصلهما ألا وهو مملكة سنغاي.

2-الدوافع الدينية:

استغل المنصور الذهبي بعض المسائل الدينية في تبرير حملته على السودان، ومن بينها قضيتي الخلافة والجهاد لنشر الإسلام، في ظاهرة اختلطت فيها السياسة بالدين وبالوطنية.

أ- اعتبارات الخلافة والإمامة:

وظف المنصور الذهبي مسألة الخلافة على المسلمين كحجة أساسية داخل المغرب وخارجه لتبرير إلحاق مملكة سنغاي بالمغرب، فقد كان يعتبر نفسه الخليفة الوحيد للمسلمين بالنظر إلى انفراده بين ملوك المسلمين وأمرائهم بالنسب الهاشمي القرشي الشريف.¹ ولقد أثير جدل كثير حول هذا الموضوع خلال كل أحقاب التاريخ المغربي، فكما كان الشأن بعد سقوط الدولة الإدريسية² (974م)، حيث ظهر من كان ينفي الخلافة عمن لا ينتسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقد اندفع في عهد السعديين من كان ينفيها عن غير ملوك المغرب، وبالتالي تسقط عن ملوك الزنج .

وقد حدث تطور مهم في موضوع الخلافة عام 1517م، عندما انتهت الدعوة العباسية بإلحاق مصر بالدولة العثمانية، فانبرى السعديون لفكرة إحياء مراسيم الخلافة باعتبارهم أحق من غيرهم.³

وهكذا فقد اعتبر أحمد المنصور قضية الخلافة غطاءً مناسباً لتحركه في السودان ونبه الأسكيا، ونبه كل المتصلين به أن الله وحده هو الذي يفرض على الأسكيا أن يبدي السمع والطاعة وينخرط بواسطة البيعة في سلك الجماعة.⁴ كما صدر جميع رسائله التي وجهها إلى علماء السودان وأعيانه وقادته فيما كان يندبهم إلى تسهيل مهمة الجيش السعودي الغازي بعد الحمد والثناء بالآية الكريمة: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجراً عظيماً»⁵.

وقد مر بنا أن الحاج محمد أسكيا ملك سنغاي (898-935هـ/1493-1528م) أثناء أدائه لفريضة الحج، لقي في طريقه بمصر الخليفة المتوكل (العباسي)، والذي ألبس الأسكيا الفلنسة والعمامة ومنحه لقب "خليفة بلاد التكرور"، ومعنى هذا قيام منافس على المنصب الروحي لسلطان المغرب.⁶

ب- الجهاد في إفريقيا لنشر الإسلام:

- ورد في الحديث " الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها، فجارها أمراء فجارها".¹

⁶ - انفصل المغرب عن الخلافة الإسلامية في بغداد في سنة 788م، و أسس مملكة مستقلة عن العباسيين على يد الأشراف الأدارسة الهاربيين من شبه الجزيرة العربية، ولم تنجح المحاولات لإعادته إلى الخلافة المشرقية في عهد الفاطميين، وفي عهد العباسيين الأخير حيث تسمى ملوك المرابطيين والموحدين بأمرام المسلمين وتظاهروا في أول أمرهم بالولاء للخليفة في بغداد، ولم يكن ذلك سوى بغية الحصول على مؤيد قانوني لغزو أراضي غير مغربية.

- محمد الغربي، مرجع سابق ص 106.³

- أورد ابن تيمية في كتابه الإمامة والسياسة ص243: "أن مصدر سلطة الإمام هو الله تبارك وتعالى".⁴

- سورة الفتح الآية 10.⁵

- نقولا زياده، مرجع سابق، ص 375.⁶

يعتبر الجهاد في سبيل تحرير السواحل المغربية الأساس الذي قامت عليه الدولة السعودية، كما أن سقوط الأندلس وغزو البرتغاليين للسواحل الإفريقية في الجنوب أعطى للمنصور فرصة لاستغلال المد العاطفي والنفسي للمغاربة في توجيه بعض الحملات العسكرية، وخاصة ما أخذ منها وجهة السودان، حيث كان يقال دائماً أن تلك البلاد تعج بالوثنيين وتحتاج إلى من يرشدها إلى طريق الحق.

ولكن هذه المبررات فندها كثير من المؤرخين، معتبرين أن الجهاد كان قضية ثانوية في حملة المنصور وذلك لأمرين: أولاً: أن المنصور كان يعرف أنه سيواجه جيوشاً إسلامية، وأن المناطق المراد إخضاعها، وكلها تقريباً ضمن إمبراطورية السنغاي هي أراضي تعود للمسلمين في مجملها من حيث السكان¹، وكانت تحكم وفق الشريعة الإسلامية بواسطة حكومة الأسكيا وعماله، وقد توفرت المقومات الدينية الضرورية في كل ذلك فالجوامع في كل المدن والقرى، ورجال الدين لهم المقام الأرفع في الدولة، وينالون من الاحترام والتبجيل من الأساكي والحكام والعامّة بالقدر الذي لم يحظ به رجال الدين في المغرب نفسه. كما أن ما لحق بمؤلاء من الأئمة والقضاة والنخبة المفكرة وطلبة العلم وغيرهم من أذى أثناء ثورة تنبكتو التي قامت في وجه المغاربة بعد وقت قصير من وصولهم إلى السودان، بل وتمحير بعض أفراد هذه الطبقة فيما بعد إلى المغرب بغية إبعاد خطرهم وتقليل نفوذهم²، ضف إلى ذلك العبث بما وقعت عليه يد الجيش المغربي والعامّة من كتب وتحف ومتاع³، قد خلف آثاراً سلبية جداً لازالت آثارها إلى اليوم.

كما أن انتشار المحرمات بعد وصول المغاربة أكثر مما كان عليه الحال من قبل بسبب اقتصار الحملة على الذكور العزب أو الذين تركوا زوجاتهم في المغرب، وانتشار شرب الدخان وتجارة الرقيق وشرب الخمر وتعاطي الميسر⁴، كلها أمور فندت مزاعم المغاربة، بل وتسببت في فتنة بين العلماء سواء في المغرب أو السودان⁵. كما أساءت للعلاقات العربية الإفريقية المتينة والتي امتدت لعصور طويلة، مما استغله الأوروبيون منطلقاً لتشويه صورة العرب المسلمين، والمغاربة منهم على وجه الخصوص.

ثانياً: أن أحمد المنصور -لعدم اهتمامه بنشر الإسلام- لم يوجه ضمن الحملة أشخاصاً مؤهلين للقيام بالدعوة الإسلامية، بل أكثر من ذلك فإن الحملة لم تتوفر على أئمة ووعاظ للجيش نفسه من بين آلاف الخبراء الذين رافقوها.

فقد ضمت الحملة مجموعة من القادة كانوا كلهم أجانب غالبيتهم من إسبانيا وعلى رأسهم جودرياشا قائد الحملة، وأخيه محمود بن زرقون، وكانوا من بين الذين حكموا السودان فلم تكن لغتهم هي العربية، بل إن أغلبهم مشكوك في إسلامهم، فقد ذكر أنهم أسلموا بضغط من السعديين⁶.

وضمت أيضاً جنوداً كانوا هم أيضاً في الغالب من الأندلس، وبرغم حماسهم للدين الإسلامي إلا أنهم لم يكونوا مؤهلين للقيام بالدعوة إلى تعاليمه. كما ضمت الحملة الصناع والأطباء والعمال والخدم الذين لم يبرحوا المدن الكبرى في السودان، بل إن أكثرهم عاد إلى المغرب بعد الحملة¹.

⁴ - اليفري، نزهة الهادي في أخبار ملوك القرن الحادي، ط2 مكتبة الطالب، الرباط 1988. ص94، وذكر مايلي أيضاً: "وولى السودانيون الأدبار وحق عليهم البوار وحكمت في رقايم سيوف جود وجيوشه، حتى كان اهل السودان ينادون نحن مسلمين، نحن إخوانكم في الدين، والسيوف عاملة فيهم....."

- الناصري، الإستقصا ج 5 ص 130. ²

- الغربي، مرجع سابق، ص 133. ³

- نفسه ص 134. ⁴

- الناصري، الإستقصا ج 5 ص 127. ⁵

- إبراهيم حركات، مرجع سابق ج 2 ص 414. ⁶

3- الدوافع الاقتصادية:

لقد تحدث المنصور الذهبي بصرحة كبيرة عن غنى السودان الغربي، وضخامة ثرواته، وما سوف تدره تجارة الصحراء على بلاده، إذا ما صارت للمغرب. هذه الثروات التي لفتت سلاطين المغرب منذ عهد بعيد، وكانت تلك الخيرات متعددة الأشكال وأبرزها الذهب كما ذكرنا سابقاً، والملح والعاج ومختلف المعادن، والعييد.

وفي إشارة عن خيرات السودان قال المنصور لأعضاء مجلسه: "إن تجار الصحراء لا ينقطعون ذهاباً وعوداً منها محملين بكميات كبيرة من التجارات المحملة على الإبل، ولم يحدث أن انقطع لهم صدور أو ورود، وإذا كان هذا شأن التجار، فما البال بشأن اجتياز جيوش أمير المؤمنين ذات الاستعداد والأهبة"².

بل ذهب المنصور أبعد من ذلك حين استفتى جمعاً من العلماء في المغرب، فأفتوه بأن "النظر في المعادن مطلقاً إنما هو للإمام لا لغيره، وأنه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك إلا عن إذن السلطان"³.

وكان الدافع الاقتصادي هو الأهم، لرغبة السعديين في السيطرة على تجارة الصحراء مع السودان وخاصة في مادة الذهب، وكذا تعويض تكاليف الحروب التي خاضوها ضد أعدائهم، وكان للمنصور ما أراد فقد أوردت المصادر التاريخية أنه حصل على غنائم كثيرة، فروى اليفرنى أنه: «ولما فتح عليه ممالك البلاد السودانية، حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويجير الناظرين، حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب إلا النضار الصافي والدينار الوافي وكانت يباه كل يوم أربعة عشر مائة مطرقة تضرب الدينار دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأفرط والحلي وشبه ذلك، ولأجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان الذهب في زمانه"⁴.

وقد أورد آخر أنه: "دخل لدار السلطان اثني عشر مائة مملوك بين الجوارى والغلمان وأربعون حملاً من التبر وأربعة سروج من الذهب وأحمال كثيرة من العاج... وذخائر السودان، فتذخر من ذلك مولاي أحمد الذهبي وقوي ملكه وبقيت جباية السودان تأتيه في كل سنة"⁵.

4- الدوافع العسكرية: لقد شكل الموريسكيون⁶ مصدر قلق للمنصور الذهبي، طيلة حكمه وكانوا بعد ذلك من العوامل التي ساهمت في زوال حكم السعديين، ولهذا استخدمهم في الإدارة والمعامل والمزارع والجيش، وجعلهم عماد حملته على السودان بهدف التخلص منهم وقطع دابر الفتنة التي قامت بسبب بعض عناصرهم، لأنهم مع مرور الوقت شكلوا تكتلات دينية ذات خلفيات سياسية⁷.

كما أن المنصور الذهبي استغل عدم تكافؤ القوة بين المغرب ومملكة سنغاي في السودان لغزوها⁸، فقد كان جيش السعديين منظماً ومجهزاً بأحدث التجهيزات، أما جيش سنغاي فكان يضم أصنافاً من المرتزقة والعييد والمتطوعين بلا تنظيم ولا تأطير محكم.

1 - الغربي، مرجع سابق ص 131.

2 - الغربي، المرجع السابق، ص 117.

3 - الناصري، الاستقصا ص 111.

4 - اليفرنى، نزهة الحادي، ص 95.

5 - نقولا زياده، مرجع سابق ص 384.

1 - الموريسكيون هم سكان الأندلس الذين فروا من بطش الإسبان خاصة في عهد الملك فيليب الثاني، فقد تعرضوا للاضطهاد ومورست عليهم كافة أنواع التنكيل والتعذيب فانتشروا في سائر بلاد المسلمين إلى مصر وتركيا والشام، إلا أن مناطق شمال المغرب العربي استقبلت القسط الأكبر منهم، وقد ساهموا بشكل كبير في نقل المؤثرات الحضارية التي كانت سائدة في الأندلس إلى بلدان المغرب.

7 - الغربي، مرجع سابق ص 157. حركات، مرجع سابق ص 323.

8 - الغربي، مرجع سابق، ص 161.

ثانياً- وقائع الحملة وموقف المغاربة في السودان الغربي منها:

أ- التحضير للحملة :

أول ما قام به المنصور قبل إرسال الحملة لغزو السودان الغربي أمران أراد أن يبرر بهما حملته شرعاً، أولهما أنه استجاز عالمين من علماء مصر هما: الإمام العارف بالله أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي الحسن البكري، صاحب كتاب المسالك والممالك، وأبي عبد الله محمد بن يحيى المصري الشهير ببدر الدين القرافي صاحب كتاب توشيح الديباج وحلة الابتهاج، وقد أجاز العالمان للمنصور القيام بالحملة¹.

والأمر الثاني فهو مشاورته لأهل الحل والعقد في دولته، فقد عقد مجلساً للشورى تحدث عنه الناصري نقلاً عن الفشتالي بقوله: «شاور المنصور أصحابه وجمع أعيان دولته، والتقى أهل الرأي والمشورة....»، فقال لهم المنصور: «إني عزمت على منزلة أمير السودان.... لأن بلاد السودان وافر الخراج كثيرة المال يتقوى بها جيش الإسلام...»، ومضى المنصور يبرر أسباب حملته للسودان بما مضى ذكره من الدوافع والأسباب، لكن الحاضرين في المجلس حذروه من مغبة التورط في السودان وعارضوه بادئ ذي بدء فقالوا: «أن ذلك رأي عن الصواب منحرف....»، وذلك لأن بيننا وبين السودان مهامه فيحنا تقصر فيها الخطأ، وتجار فيها القطأ²، وليس فيها ماء ولا كلال، فلا يتأتى السفر فيها ولا اعتساف شيء من طريقها مع كونها مخوفة مملوءة الجوانب ذعراً، وأيضاً فإن دولة المرابطين على ضخامتها، ودولة الموحديين على عظمتها، ودولة المرينيين على قوتها لم تطمح همة واحد منهم لشيء من ذلك.... وحسبنا أن نقتفي أثر تلك الدول...»، فغضب المنصور لذلك واتهمهم بالضعف، وبرر ذلك بالقوافل التجارية التي تخوض الصحاري على ضعفها، وانشغال الدول السابقة بحروب اعدائهم في الشمال والشرق، وما زال بهم حتى وافقوا على الحملة، ومما يبدو أن الحملة قد تم التحضير لها مسبقاً، وإنما عقد المجلس لإسباغ أمر المشورة والإجماع عليها³.

ب- وقائع الحملة :

بعد تهيئة الجو الملائم للحملة، اشتغل المنصور بتجهيز آلة الحرب وما يحتاج إليه الجيش من آلة السفر ومهمات، وأمر القواد بأن يقوموا حصص القبائل وما يحتاجون إليه من إبل وخيل وبغال، وأخذ هو بنفسه يقوم آلة الحرب من المدافع والعجلات،

³ - جاء في رسالة البكري: "لقد وصل إلى المثل العدم المثال، المزري نظامه يعقود الآل، فإذا به السحر إلا أنه حلال، ولو إدعى أحد أن من معجزات أحمد صلى الله عليه وسلم أن يمد الله كراماً كاتبين في زمان نجله أمير المؤمنين أحمد بكتاب كريم على أسلوب قويم يرسله إلى محب قدم من النبعة والصميم لم تكذب دعواه، فما من خارق في الأمة إلا وهو من معجزاته صلى الله عليه وسلم دال على علاه، وأما ما شرفني به من طلب الإجازة فاليبيت والحديث له، ولكن رب أب أرسل إلى ابنه على يد عبده عطاء قبله، وإليه بأمره حمله، وحيث وقع الأمر فأمر مولانا حتم، وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العهد، من جميع ما يجوز للعبد، بجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند أهل الأمر، وكذلك مجاز أهل العصر إجازة عام بعام، ليكون أبناء الوقت جميعاً على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الإنعام، فإنه هو السبب في تحصيل ذلك المرام وكتب تحريراً في رابع عشر ربيع الثاني سنة إثنتين وتسعين وتسعمائة، محمد بن أبي الحسن الصديق سبط آل الحسن". أما الإمام القرافي فقد أجازته إجازة عامة بسط فيها بالقول ثم ختمها

بالأبيات التالية : أجزت لمن تفضل وإستجازا وبادر لأقتنا خير وحازا

وأبرز في سلوك العلم حالا به من فضل مولانا يجازي

أمام كامل غوث البرايا أمير المؤمنين حوى مجازا

الناصري، الاستقصا، ج5 ص 115-116. للمزيد انظر:

- كناية عن بعد المسافة بين المغرب و بلاد السودان.²

-الناصري، نفس المصدر: ص 113-114. نقولا زياده، مرجع سابق ص ص 377-378.³

التي تحملها والبارود والرصاص، وتقويم الخشب واللوح والحديد والسفن والبرامل.....، واستمر الحال إلى ان استوفى المنصور أمر الغزو في ثلاث سنين.¹

انطلقت الحملة بعد أن عقد المنصور لواءها لجودر باشا، وجعل معه عشرة قواد لمساعدته في مهمته، وكان بينهم واحد تركي وثلاثة أندلسيين يغلب على الظن أن إثنين منهم من الأسرى المسيحيين على حسب ما أورده السعدي. وقد اختلفت المصادر التاريخية حول تعداد العساكر في الحملة بين مبالغ ومعتدل، فقد ذكر الناصري أن العدد كان نحو اثنين وعشرين ألفاً، فيما ذكر السعدي أن العدد ثلاثة آلاف من الرماة ما بين أصحاب الخيل والرجل ومعهم من الأتباع ضعفها، ولكن يبدو أن العدد لم يتجاوز الأربعة آلاف موزعين كآلاتي:

| | |
|------|-----------------------------------|
| 2000 | حملة البنادق (وأكثرهم من الأندلس) |
| 500 | حملة البنادق الفرسان |
| 1500 | حملة الرماح |

وكان إلى جانب ذلك 1600 من الأتباع، وقد رافق الحملة ثمانية آلاف من الإبل وألف من الخيل واحتاج إلى 180 خيمة، وحملوا معهم 300 قنطار من البارود، ومثلها من الرصاص.²

خرج الجيش من مراكش في ذي الحجة عام 998هـ/ أكتوبر 1590م، قاطعاً مسافة كبيرة قدرها البعض بحوالي 2040 كم، فاحتاج إلى 135 يوماً بما فيها أيام الراحة لبلوغ مقصده. وقد هلك نصف الجيش في الطريق بسبب الجوع والعطش والتعب.³ وكانت آثار الجهد بادية على الجنود، فكان لزاماً على جودر أن يريحهم في أول محطة⁴، خصوصاً وأن جيش الأسكيا لم يظهر للعيان بعد، وهذا ما قام به مستفيداً من خصوبة المنطقة، وغناها بالموارد لتعويض ما فقده، ثم دخل "تنبكت"⁵ وتخطاها قاصداً "غاو" عاصمة مملكة سنغاي.

ومن جهة اخرى فقد استنفر الأسكيا جنوده لملاقاة الجيش السعدي، وقد روى اليفرني ذلك قائلاً: «وكان لما سمع الاسكيا إسحاق بخروج الجيوش وتوجهها إليه حشر جنوده وبعث في المدائن حاشرين وجمع جمعاً عديدة ويقال أنه جمع مائة ألف وأربعة آلاف مقاتل».⁶

كما يروي أحداث الواقعة التي جرت بينهما قائلاً: «فلما التقت الفتتان نكص إسحاق على عقبه، انتشرت جموعه وفل غربه ودامت الحرب من لدن الضحى إلى قرب العصر فطحنتهم رحى الحرب وصيرتهم كأعجاز نخل خاوية ونجا إسحاق بنفسه...، وكان ذلك كله في السادس عشر من جمادى الأولى عام 999هـ (12 مارس 1591م)، ولما فر إسحاق تبعه جودر بعد أن استولى على تنبكت وسائر ما يواليها من المدائن والقرى وبعث إلى المنصور يخبره بالفتح وبهدية عظيمة فيها عشرة آلاف مثقال ذهباً،

1 - الناصري، الاستقصا، ج5 ص 121.

2 - نقولا زياده، افريقيات دراسات في تاريخ المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس للكتب و النشر. ب ت ن، ص 380.

3 - نقولا زياده، مرجع سابق، ص 381.

4 - الهادي الدالي، مرجع سابق، ص 203.

5 - إسم " تنبكت" هو شطران تن إسم مكان، وبكتو إسم امرأة عهد إليها الطوارق بحراسة بئر كانت في ذلك المكان، إتخذ الطوارق مركزاً لتربية مواشيهم في فصل الجفاف بالسودان، حوالي القرن 9م، حيث حفروا بئراً وتكاثرت الآبار بعد ذلك، وصار التجار يلتقون في ذلك المكان ثم تحول إلى سوق للتبادل التجاري بين الشمال الإفريقي والسودان الغربي أنظر: مسعود علي، مرجع سابق، ص 105.

6 - اليفرني، نزهة الحادي، مصدر سابق ص 193.

ومئتان من الرقيق وغير ذلك"¹، وقد لعب الفارق الكبير في موازين القوى دوراً كبيراً وحاسماً في انتصار جيش السعديين كما سبق وان ذكرنا.

ولم تغلح محاولات الأسكيا في طلب الصلح مع جوذر قائد الجيش السعدي، الذي رجع بالجيش إلى تنبكت، وقد حنق المنصور على جوذر لمجرد انه فكر بقبول الصلح مع الأسكيا، فعزله وعين محمود بن زرقون ليتولى إمارة الجند في السودان. هذا الأخير الذي سارع إلى الإجهاز على باقي مملكة سنغاي وقتل الأسكيا، وقد ذكر ذلك الناصري في الإستقصا قائلاً: "انهمز السودان من سماع رعد المدافع وارتفاع القنابل في الجو وهدير الطبول، وتبعتهم العساكر يقتلون ويأسرون إلى أن غشيهم الظلام ورجعوا بالغنائم والسيبي.... وسار محمود في إتباع إسحاق إلى ان لحقه ببعض الجهات فأوقع به وقعة شنعاء.... فهزمه وقتله فيمن معه من جنده وأتباعه، وتمهدت له البلاد واستولى عليها استيلاء كلياً وكتب بخبر الفتح إلى المنصور"².

بعد انتصار الجيش السعدي واستتباب الأمر للمنصور، خاب أمل المغاربة القادمين بعد اكتشافهم أن مصادر الذهب لم تكن في تلك المناطق، إنما كانت إلى الغرب منها في أماكن بعيدة المنال عن الجيوش المغربية، فلم تكن ثروة السنغاي في استخراجها إنما كانت في التحكم في تجارتها، بل إن الذهب من ذي قبل كان يتم مبادلتها بالملح ومختلف المواد التجارية فيستفيد منه التجار، ولكن أصبح بعد الغزو يصادر ويرسل باسم السلطان.

كانت أهم مشكلة واجهت المغاربة في حملتهم على السودان هي مشكلة الاحتفاظ بالبلاد التي احتلوها إذ يبلغ طولها 1500 كم³، وهي جزء صغير من البلاد السودانية المترامية الأطراف، الأمر الذي ييسر لها مساعدة من الجوار في حالة حدوث ثورة، كما أن تنظيم الإدارة في هذه الحالة كان أمراً صعباً، كما كان للتغيير المستمر في الباشوات (الحكام) أثر كبير في تعثر الإدارة، إلا أن البلاد نعمت بنوع من الاستقرار لفترة قصيرة ما بين (1008-1012هـ/1599-1603م) بعد تعيين حكام إسميين من آل إسكيا⁴. ولكن وفاة المنصور ألقى بالمغرب في أتون الخلافات والحروب الأهلية بين أبنائه، فاضطرب الوضع في السودان تبعاً لذلك .

ج- موقف المغاربة بالسودان الغربي من الحملة :

أما عن موقف العناصر المغربية المقيمة في السودان من الصراع الذي نشأ بين سلاطين المغرب وملوك السودان، بسبب التنافس على خيرات السودان وخاصة الملح والذهب، فقد تمثل أولاً في الموقف الذي اتخذته الطوارق، الذين تعتبر ملاحه "تغازا" في أراضيهم، فهم ينقادون للطرف الذي يحافظ على مصالحهم الناشئة من الاشتغال في تعدين الملح والاتجار فيه. ومن هذا المنطلق نجد ان الطوارق لا يتورعون عن الانضمام للسلطان المغربي أحمد المنصور لمساندته ضد الإسكيا، إذا ما تعلق الأمر بفقد عملهم في ملاحه تغازا.⁵

كما سعى المنصور إلى استمالة العلماء المغاربة في السودان فاهتم بشكل خاص بقاضي تنبكت محمود بن عمر، وأرسل إليه في سنة 998هـ/1581م طالباً إليه الدخول في طاعته، لأنه كان محبوباً من الناس، مسموع الكلمة وجميع أهل السودان يثقون بفتواه

¹-اليفرنى، مرجع سابق، ص 194.

²- الناصري، الإستقصا، مصدر سابق ص 123.

³- نقولا زياده، مرجع سابق، ص 383.

⁴- نفسه، ص 384.

⁴- عبلة محمد سلطان، العناصر المغربية في السودان الغربي، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث و الدراسات الافريقية، جامعة القاهرة، 1999،

وبقدرته على إقامة الحجة، وعدم التخلي عن الاهتمام بالكتاب والسنة، وطلب منه المنصور بيعته وفرض طاعته على الأحمر والأسود والانخراط تحت إمارته والإتمام بإمامته،¹ فكان القاضي محمود بن عمر في مقدمة المؤيدين للحملة. أما عامة الناس من المغاربة من أهل تنبكت فلم تظهر منهم أية مقاومة للقوات المغربية حين اقتربت من العاصمة "غاو". خاتمة:

أدى المغاربة من شمال إفريقيا دوراً مهماً في التأثير على مختلف جوانب الحياة، السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية في السودان الغربي المعروف اليوم باسم غرب إفريقيا، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، ولم يتوقف هذا التأثير حتى يومنا هذا، بل أصبح بوتقة انصهرت فيها الثقافة العربية الإسلامية الوافدة، في نوع من التعايش السلمي والامتزاج والترابط مع الثقافات الإفريقية المحلية، الأمر الذي أدى إلى غلبة الطابع العربي الإسلامي في المنطقة، إلا أن المنطقة عرفت فترات من التوتر مع المغاربة من الشمال خاصة المغرب الأقصى مع نهاية القرن 16م انتهى بغزو المنطقة واسقاط مملكة صنغاي الإسلامية، وبالرغم من الرغبة الواضحة من طرف ملوك المغرب في استغلال خيرات السودان الغربي وبفضية الذهب السوداني، إلا أن هذه الحملة خلقت آثاراً إيجابية أبرزها أن الوجود المغربي في السودان أثر على نحو لا يقبل التأويل أو الشك في الأسس البنوية للاقتصاد السوداني مما أدى إلى إحداث تغيير جذري في كمية ونوعية الإنتاج وفي التصنيع والتجارة، كما ساهمت ظروف الأمن والتنظيم الإداري الجديد والقوانين التجارية في تطور ونمو اقتصاديين كبيرين.

كما ساهم الوجود المغربي ببلاد السودان الغربي أو منطقة غرب إفريقيا اليوم في ترسيخ الثقافة العربية الإسلامية بالبلاد، حيث انتشرت اللغة العربية والمذهب المالكي، وتعربت الكثير من المناطق وبرزها موريتانيا الحالية بتغلغل القبائل العربية بالمنطقة.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- حركات ابراهيم ، المغرب عبر التاريخ، المجلد الثاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1978.
- 2- الدالي الهادي ، التاريخ السياسي و الاقتصادي لا فريقيا . الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999.
- 3-الناصرى أبو العباس ، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الخامس، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1955.
- 4- الجمل شوقي ، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1977.
- 5- سامح عزيز ، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة العربية، 1989
- 6- ضيف شوقي ، عصر الدول والإمارات، القاهرة: دار المعارف ، ب ت ن
- 7- عامر محمود علي و فارس محمد خير ، تاريخ المغرب العربي الحديث ، مديرية الكتب الجامعية، جامعة دمشق، ب ت ن
- 8- الغنيمي عبد الفتاح مقلد ، موسوعة تاريخ المغرب العربي، الجزء السادس، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1994.
- 9- السائح الحسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ط2، 1986.
- 10- ارفنغ واشنطن ، أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هلاقي يحيى نصري، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت 2000.
- 11- البستاني الفريد ، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، مكتبة الثقافة الدينية، 2002.
- 12- ماكفيدي كولين ، أطلس التاريخ الإفريقي تر: مختار السويفي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1987.
- 13- نوار عبدالعزيز ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب لعالمية الثانية، بيروت: دار الفكر العربي، 1999.

⁵- الافرائي، نزهة الحادي، مصدر سابق ص 94.

- 14- علي محمد حمدي ، الكشوف الجغرافية من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، مطبعة الجمالية، القاهرة 1913.
- 15- العسلي بسام ، خير الدين بربوس، بيروت: دار النفائس، 1980،
- 16- المطوي محمد العروسي ، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986.
- 17- سليمان عبدالعزيز ، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر الإسلامي، بدون مكان وتاريخ النشر.
- 18- سوكو، الصنغي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، تاريخ إفريقيا العام، المجلد4، اليونسكو، بيروت:المطبعة الكاثوليكية، 1988.
- 19- الغربي محمد ، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مكتبة الإسكندرية، 2005.
- 20- جاسم ظاهر ، إفريقيا ما وراء الصحراء، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة 2003.
- 21- لانجي ديرك ، ممالك تشاد وشعوبها، تاريخ إفريقيا العام المجلد الرابع، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1988.
- 22- العمري ابي فضل، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار السفر4،تح حمزة عباس، المجمع الثقافي، أبوظبي 2002.
- 23- اليفري، نزهة الهادي في أخبار ملوك القرن الحادي، ط2 مكتبة الطالب، الرباط 1988.
- 24- نقولا زياده، افريقيات دراسات في تاريخ المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس للكتب و النشر. ب ت
- 25- سلطان عبلة محمد ، العناصر المغربية في السودان الغربي، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الافريقية، جامعة القاهرة، 1999.



- كُتِبَ مَنَاهِجُ التَّحْقِيقِ عَرَضٌ وَتَقْيِيمٌ
الدكتور ماحي قندوز جامعة تلمسان
- ص 4
- صناعة المخطوط في المغرب الأوسط على العهد الزياني
أ/ العربي لخضر المركز الجامعي بالبيض.
- ص 12
- صور التغير النحوي للعربية
د. مختار درقاوي جامعة الشلف)
- ص 27
- التمركز الجغرافي للقبائل النوميديّة من حدود قرطاجة حتى نهر الملوية
أ/ يعطيش عبد الحميد/ جامعة باتنة
- ص 38
- الحراك السياسي في ليبيا 1939-1945
د. المدني سعيد عمر المدني ، جامعة الجبل الغربي - ليبيا
- ص 53
- إدمان الأطفال على الانترنت جريمة رقمية
الدكتورة نعيمة رحمانى
- ص 69
- المضامين الإنسانية في ديوان الشمس اليتيمة ل نزار الملحون
أ/ عامر رضا.
- ص 81
- المرأة في الاسطغرافية الاباضية
د/ نبيلة عبد الشكور
- ص 95
- أثر البعد الروحي في فتح مدينة وهران سنة 1792 م
أ/ بن العيفاوي علي
- ص 103
- من أعلام تلمسان : الآبلي
أ/ قاسمي بختاوي
- ص 109
- أزمة لغة أم أزمة مجتمع " قراءة في جدلية العودة والتهميش "
أ. بوحزام نوال، أ. نعيمة مليكة.
- ص 115
- الغزو المغربي لبلاد السودان الغربي (غرب إفريقيا)
الأستاذ : عبدالرحمن قدوري قسم التاريخ والآثار جامعة تلمسان .
- ص 127